



هارون الرشيد

الخليفة المفترى عليه

تأليف

حسن عبد الغفار

الناشر

مكتبة النافذة

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة المصرية العامة للكتاب والوثائق القومية إدارة الشؤون الفنية

عبد الغفار، حسن

هارون الرشيد الخليفة المقتدى عليه / تأليف: حسن عبد الغفار

ط _ 1 _ الجيزة: الدار العالمية للكتب والنشر، 2009

ص، سم

تدمك 2 _ 222 _ 436 _ 977 _ 978

1 _ الدولة العباسية (750 _ 1258م)

2 _ هارون الرشيد، هارون بن محمد بن منصور العباسي، 766 _ 809

1 _ العنوان

ديوي 953,04

هارون الرشيد الخليفة المقتدى عليه

حسن عبد الغفار

الطبعة الأولى: 2010

رقم الإيداع: 2009/23498

الناشر

مكتبة النافذة

المدير المسئول: سعيد عثمان

2 ش الشهيد أحمد حمدي _ الثلاثيني _ ميدان الساعة

الطابية _ فيصل _ الجيزة _ مصر

هاتف: 37241803 فاكس: 37827787

موبيل: 0123595973

Email: alnafezah@hotmail.com

تقديم

في زمن اختل فيه ميزان العدل، وتفشى الظلم والطغيان، وعم الفساد وانفلتت الطبيعة الحيوانية في الإنسان واحتكم لشريعة الغاب، وحمل معول الدمار، وأصبح شبح الدمار يطارد كل شعب مهما استحكمت قلاعها، وماج العالم في حروب طاحنة تأكل الأخضر واليابس، في زمن تغلبت فيه المادة على الروح باسم التقدم والمدنية والرقي، وأصبح الإنسان يكابد بين الماضي والمستقبل وفقد حاضره، فنراه وقد زاغ بصره، وتاهت خطاه، ولا يدري إلى أين المصير.

في ظل هذا الاضطراب الفكري والتشويش العقلي، وتزييف الحقائق، وطمس التاريخ، وإشاعة القلاقل وإذكاء الفتن، وبعث النعرات العرقية وإحياء الشعوبية؛ لتقسيم ما هو مقسم وتفتيت ما هو مفتت، ومنذ شيعت الخلافة العثمانية تعرض العالم الإسلامي لكل أنواع الغزو والهيمنة، وانفرط العقد وتشيعت الأمة، وتمزقت أواصر الإخوة، وهدمت جسور المودة.

ولا عجب في ذلك؛ فإن جميع الحضارات القوية منها والهشة عانت من الصراعات السياسية والاقتصادية والمذهبية والعقائدية، واختلفت في المبادئ وأصول الحكم، واستنصر الظالمون بالظالمين، وانهارت المبادئ الأخلاقية، وشاور الفاسدون المفسدين، وتوارت الفضائل وعزت الأخلاق النبيلة، وشاع الانحلال والرذيلة، وتضاءل صوت الحق.

ولكن بين غمام الزيف وسحابات السوء القائمة، دائماً ما يكون هناك وميض خافت ضعيف، ينتظر الفرصة السانحة؛ ليصير فيض من نور يغشي الليل البهيم، يحمل صوت الحق ودفء الشمس، ولو كان في بقعة نائية على أرض الله، أو في نفس طاهرة تقية تبعث من جديد الأمل في حياة كريمة لكل البشر.

وعلى مر التاريخ ظهرت حضارات واندثرت، وتسيدت أمم واستُعبدت في أطوار متعاقبة، وكل أمة تظن أنها الأقوى والأرقى والأعظم والأأنفع للإنسانية، ولا تدري أنها كانت مجرد ترس في عجلة الزمن نشأت وبزغت لتؤدي دورها وتروي زرعها، وبأتي غيرها ويجني الثمار.

غير أن الحضارة الإسلامية تمثل نقطة تحول في حياة البشر، فهي حضارة عقائدية، الدين فيها أساس التنوير، وهداية النفس البشرية هو الهدف، وترويضها هو المراد، فكان أساسها قوياً، وانتشارها سريعاً، وقواعدها راسخة، أما من حيث التكوين فقد سبقتها أمم وحضارات في الشرق والغرب، ولحقتها أخرى، وقد تأثرت في تطورها المادي بالحضارة اليونانية، فأخذت عنها الفلسفة والتأريخ وعلم النفس، وتأثرت بالحضارة الفارسية من حيث الإدارة والتنظيم، والذي يحسب للحضارة الإسلامية أنها بعثت من جديد حضارات كادت تندثر، فهي لم تعتمد إلى هدم البناء الاجتماعي للحضارة الرومانية أو الفارسية، بل عملت على تطويره وإرساء قواعده لينطلق منها العالم إلى آفاق جديدة في كل فروع العلم، فسال يروي كل ظمآن، وشبع كل جائع، ويطمئن كل هاجع، ويشفي كل عليل، وبرئ كل سقيم، ويضيء العالم الذي كان سابحاً في ظلام الجهل والخرافات (أوروبا في العصور الوسطى).

تمهيد

الوازع الديني هو السلطة الحاكمة للنفس البشرية السوية، وفي عالمنا المعاصر ما أوجنا إلى الوازع الديني والأخلاقي والسلطة القوية التي تسعى لتجميع الجهود ونبذ الفرقة، والتي تسعى للبناء والرقي وتحديد معالم طريق النهضة لأبناء الأمة الإسلامية وسط تلك التيارات الصاخبة والأمواج العاتية والغزو الفكري والثقافي الذي يأتيها من الخارج ومن تحت أقدامها.

والعالم الإسلامي يمثل وحدة تاريخية هي في ذاتها جزء هام من تاريخ العالم، خلال تاريخه ظهرت نماذج مرذولة انحرفت عن الطريق الذي رسمه منهج نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم، وكان مأهّم مزيلة التاريخ، وهناك أعلام في بهاء نور الشمس وقوة جلاميد الصخر أخذت بيد الأمة إلى عنان السماء، وخلدت ذكراها بحروف من نور، ولكن في ظل تغييب العقل ووجود الفكر الهدام الذي يهدف إلى النيل من رموز الأمة نجد أن هذه الأعلام تتعرض لحمولات تضليل كاذبة لتشويه سيرتهم، وبذلك يكون الطعن موجهاً إلى الإسلام ذاته، وإظهار الحضارة الإسلامية ووصمها بأنها حضارة همجية بربرية، وتصوير رموزه وقادته وملوكه بأنهم سفاحون متعطشون للدماء في النهار، وفجار آثمون غارقون في الملذات إذا ما جاء المساء.

وقد عمد المستشرقون إلى تهميش دور الحضارة الإسلامية وتأثيرها في مسيرة الحضارة الإنسانية، فسلخوا عنها إسهاماتها في العلوم الطبيعية (طب - هندسة - رياضة - فلك) وصاروا يطعنون في العقيدة والكتاب والسنة، ومن المحزن أن بعض الكتاب وأصحاب الرأي الذين تأثروا بالفكر الغربي، والذين اتخذوا من كتب المستشرقين مرجعيتهم فساروا على نهجهم، وسار الامام الحافظ الفقيه متأولاً متنطعاً، والقائد الشجاع القوي سفايحاً وشيطاناً مريداً، والخليفة العادل الصارم العابد فاجراً غارقاً في الملذات آتماً، والمدافع عن أرضه وعرضه وماله ودينه إرهابياً.

ومن هؤلاء الخلفاء "هارون الرشيد"؛ ذلك الخليفة الذي ما ذكر إلا وذكرت الدعة والخلاعة والفجر والمجون وشهوة النساء ومعاقرة الخمر والرفاهية والقصور والضياع والبساتين، فهل كان حقاً كما يدعون وكما تصوره بعض الأقلام والأفلام والقصص؟ هل هو بطل ألف ليلة وليلة وشهر زاد وليالي بغداد؟ هل كان الخليفة الفاسق الفاجر الذي لا يجالس إلا الجواري والغلمان، يعاقر الخمر وينعم بالملذات، وصار اسمه مقروننا بكل رجل مزواج باحث عن المتعة حلال أم حرام؟! هل هو صاحب الشهرة التي جابت الأصقاع غرباً وشرقاً بأنه سيد الليالي الحمراء، وأمير العشاق الذي يغلبه سلطان الهوى وتسيره نزواته وشهوته؟!

منطق السيرة لا يدل على ذلك، فقد كان رجل دولة عظيمة يواجه قوى غاشمة، ويحمل رسالة طاهرة، ووصلت الدولة الإسلامية في عهده إلى أزهى عصورها في الدعوة ونشر الدين وفتح الأمصار والإعمار، والثراء واستتباب الأمن والسلام الاجتماعي، وأخضع الزنادقة والخارجين؛ لذا فقد وجدت نفسي مدفوعاً للكتابة عن هذه

الشخصية من منطلق الغيرة على الإسلام وأعلامه، ومحاولة التصدي لهذه الافتراءات، ولم يكن شغفي بالكتابة عن هارون الرشيد هو الدافع الوحيد، ولكن حال الأمة الإسلامية التي فقدت الانتماء، أو لنقول أنه توارى وانزوى خلف الحاجات الملحة، ومسالك الغربية التي فرضت عليها، وركن معظمهم إلى التواكل والاعتماد على الغير، واكتفوا بأداء المشاعر من صلاة وصيام وحج، وتركوا كيان الأمة تزلزله النكبات وتصعقه الملمات وقد تداعت عليه الأكلة.

وفي هذا الكتاب لا نسعى لأن نجتر التاريخ ونفخر بالماضي التليد ونبكي على الأجداد الضائعة، ولكن نسعى لنبعث من جديد روح الانتماء للأمة الإسلامية لتصبح حالة عامة تتغلغل في وجدان كل مسلم، ونستمسك بالعروة الوثقى، ولنكون مسلمين كالبنيان المرصوص في ظل تعاليم الإسلام السامية التي حولت الحياة القبلية إلى مجتمع متحضر، لذا سنبدأ الكتاب بمعرفة معالم التحول الاجتماعي في العالم الإسلامي.

والله الموفق وعليه قصد السبيل

حسن عبد الغفار

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

التحول الاجتماعي في العالم الإسلامي

يعتبر تاريخ العالم الإسلامي من منبعه إلى مصبه سجلاً حافلاً بأروع محاولة في مسيرة الإنسانية للوصول إلى الرقي والتحضر والخير والنماء.

كانت النظم القبلية منقطرة على الفردية ونفوذ الأسرة والعشيرة، ولا تميل إلى تكوين أحلاف أو تشييد مجتمعات ثابتة وحكومات، وظلت القبيلة هي الوحدة السياسية العليا، ولذا لم تكن هناك ممالك وسط الجزيرة العربية، إلى أن جاء الإسلام وبدأ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في نشر الدعوة وتعاليم الإسلام التي تهدف إلى تنظيم حياة الفرد والتخلص من العصبية القبلية، وعندما هاجر إلى المدينة بدأ في تنظيم جماعات المؤمنين من المهاجرين والأنصار لإنشاء مجتمع تذوب فيه الطبقات ويخضع الجميع لنظام تشريعي واحد، وصار الجميع ينتمون إلى هذا المجتمع الوليد التي تمكن الرسول صلى الله عليه وسلم من إرساء قواعده على المساواة في الحقوق والواجبات، واقرنت العبادة والتوحيد بضرورة إعمال الفكر والجهاد في سبيل الحفاظ على هذا المجتمع الجديد.

أصبحت التقوى ميزان كل إنسان، وتعاظمت قيمة التعاون والفكر البناء، وظهرت مبادئ أخلاقية تنظم العلاقات الإنسانية بين الفرد والجماعة أجملها الشرع والمشرع في قوله تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا

أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَّا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}١.

لاقى هذا الاتجاه مقاومة عنيفة، ولكن ثبات الايمان وقوة العقيدة وما يشعر به المسلمون من مساواة وعدل جعلهم يرضون بهذا التحول الاجتماعي، واختفت النزعات الشخصية وذاب الفرد في الجميع مع الاحتفاظ بكيانه كإنسان له حرية الاختيار، قال تعالى: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ}٢.

وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المسلمين من قریش ویشرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس".

هكذا وضع رسول الله دستور أمة الإسلام، فصارت الأمة تضم كل مسلم دون النظر إلى أصله وقبيلته وراثته وفقره، حرراً أم عبداً، وأذاب كل الفوارق، فلا تميز طبقي ولا استغلال فردي، وجعل الجميع في خدمة الأمة الإسلامية، وفي ظل سيادة القانون الحاكم للجميع.

اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، وصار نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الينبوع الذي نهل منه المسلمون خلفاً بعد سلف

١ - الأنعام: ١٥١ - ١٥٢

٢ - المؤمنون: ١٠١

وهم يرفعون قواعد الدولة ويضعون النظم التي تتلائم مع كل مرحلة، وتناسب كل امتداد وتتوائم مع كل شعب، لينخرط كل وافر في الأمة الإسلامية في ظل حقوق المواطنة للجميع، فالدين لله والوطن للجميع، فأسهم ذلك في إرساء قواعد ثابتة للسلام الاجتماعي لم يشذ عنه إلا مختل أو حاقد أو ناقم.

توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ترك للمسلمين ثلاث مبادئ أساسية كفيلة بإقامة أي مجتمع سليم، وهي:
أولاً: كتاب الله وشرعه وسنة نبيه ونهجه.

ثانياً: حرية التفكير وضرورة إعمال العقل والتدبر في شئون الكون، واتخاذ العلم وسيلة للترقي والتحضر.

ثالثاً: مبدأ الشورى في أمور الحكم والولاية.

وتلك هي الأسس التي قامت عليها الخلافة الرشيدة في عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي.

اتسعت الدولة الإسلامية في زمن الخلافة، وفتحت العراق وفارس والشام ومصر، وعبرت الأساطيل الإسلامية، وتم فتح قبرص وغيرها من جزر البحر المتوسط.

انتهى عهد الخلافة الراشدة وانتقلت الخلافة إلى البيت الأموي، وقد أحدثت هذه الخلافة تطوراً سريعاً في مسيرة الحضارة الإسلامية، ساعدها على ذلك وجود جذور عربية في الشام قبل ظهور الإسلام، وتمكن بنو أمية من تأسيس دولة قوية الأركان، وانتقلت دار الخلافة إلى دمشق التي أصبحت عاصمة الدولة الأموية، وكانت من القوة بحيث تحول نظام الحكم من الانتخاب والشورى إلى الخلافة الوراثية؛ الأمر الذي أدى إلى تأصيل الخلاف الذي ظهر عند اختيار عثمان بن عفان خليفة قبل علي، ولكن معاوية بن أبي سفيان استطاع بماضيه

ومصاحبة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يستقطب كثيراً من
الساخطين على الدولة الأموية، وأنفذ مبدأ التوريث في الحكم، وتمكن
من إحكام قبضته على جميع البلاد التي وصلها نور الإسلام.

جعل الأمويون العراق القاعدة والمنطلق لاستئناف الفتوحات،
ففتح بلاد ما وراء النهر (تركيا، وبلاد السند وشمال الهند)، وفي
الغرب تمكن الأمويون من فتح شمال إفريقيا وبلاد الأندلس.

لم يكتفِ الأمويون بفتح البلاد، ولكنهم سعوا إلى تفعيل حركة
التعريب، وسارت اللغة العربية هي اللغة الرسمية في سائر أرجاء
الدولة الأموية، وذلك لنشر الدعوة وسهولة تنظيم الولايات إدارياً،
وبجانب ذلك تم إصدار العملة العربية لتنظيم شئون المعاملات
التجارية.

صاحب حركة التعريب وسك العملة، واستتباب الأمن وفرض
النظام، واحتواء كل وافد على دين الإسلام، وتوفير الموارد وتنظيمها
نهضة علمية وثقافية أدت إلى النهوض بالمجتمع الإسلامي، وقد
توفرت له كل مقومات النجاح والرقى والتقدم، فدانت لهم الأرض
وفتحت لهم الأمصار، ورفرف العلم الأخضر على معظم الأرض
المعمورة.

مظاهر التحول الاجتماعي

كان العصر الأموي بداية لظهور الملكية الخاصة، وتحول العرب عن مفاهيم البداوة والترحال، وقد بدأ عهد جديد من الاستيطان وشراء الأراضي والعمل بالزراعة، وقد أدى هذا التحول الاجتماعي إلى ضعف الروابط القبلية والعصبية، ولم يعد أفراد القبائل يخضعون لشيخ القبائل، وظهرت معالم اجتماعية أخرى، ومنها الاشتغال بالتجارة، ومهن أخرى كان العرب يعيدون عنها كل البعد، إما لعدم الخبرة أو الازدراء، وتركزت سلطة الدولة في الخليفة وعماله على الأمصار، وظلت هذه السلطة قوية ما دام الخليفة قويًا حكيمًا ويقوم ميزان العدل.

مع اتساع الدولة وظهور بعض العناصر غير العربية التي أصبحت تنتمي إلى الإسلام، ولكنها لا تنتمي إلى الحاكم، واستعلاء بعض العناصر العربية على الموالي، وفي ظل ضعف الحاكم، أصبح هناك تكتل وصراع بين عرب الشمال وعرب الجنوب من جهة، والعرب والموالي من جهة أخرى.

بعد وفاة الخليفة هشام بن عبد الملك (١٢٥ هـ / ٧٤٣ م) والذي كان عهده حدًا فاصلاً بين علو شأن الدولة الأموية وبين عهد اضمحلالها وانتشار الفتن، فقد خلف اثنين من أقوى خلفاء بني أمية هم معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان، وخلفه أربعة من الخلفاء الأمويين عجزوا عن الحفاظ على كيان الدولة الأموية.

عوامل سقوط الدولة الأموية

سنن الكون أن كل كائن جماد أو نبات أو حيوان إلى زوال وفناء، وإن أي كيان مهما كانت قوته فهو إلى انحدار وانذار، ينطبق هذا على الدول والأمم والإمبراطوريات، فهناك المثلث الحضاري "النشأة والنمو والقوة - التمكّن والثبات والثراء - الترف والضعف والانذار".

وقد مرت الدولة الأموية كغيرها بهذا المثلث الحضاري، فقد نشأت وترعرعت واشتد ساعدها خلال حكم الخلفاء الأربعة الأول، ثم تمكنت وفرضت سلطانها ومدت نفوذها واستقرت، ثم جاء الترف وعمت الفتن وشاعت الفوضى، فكان الضعف والسقوط.

عقب وفاة الخليفة هشام بن عبد الملك آلت الخلافة إلى الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي استهل خلافته بالاحتفالات الصاخبة، وجمع حوله الندماء والمغنين، وانصرف إلى معاورة الخمر.

واهتم برحلات الصيد والقنص، وعاش على اللهو والملذات في القصور العامرة الشاهقة في الشام، وترك أمور الحكم وانصرف لإشباع رغباته وشهواته، وترك مهام الحكم والإمارة في يد ندمائه وأصفيائه والقيان، فأخذت أركان الدولة تتصدع وتنهار، ودبت الفتن وفقد الأمن والاستقرار.

زاد الأمر سوءاً انقسام البيت الأموي وتفجر الأطماع، وظهرت النوايا الخبيثة والرغبة في الوصول إلى العرش بأي وسيلة مهما كانت دنيئة أو قاسية، وأدى هذا الانقسام إلى ضياع هيبة الخليفة، وانفلت

زمام الأمور في عهد الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك، فقد ثار عليه ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وانتهى الصراع بمقتل الخليفة عام ١٢٦ هـ وتولى يزيد الخلافة.

عندما يضعف السلطان ويصير عبداً لنزواته ونزقه وأسير جرائمه وشطحاته، يضيع سلطانه ويستهن به أعداؤه، وتربص له خصومه، وما أكثر أعداء بني أمية وخصومهم خاصة بين الموالي، فبدأت الحركات القومية والدعوة الشعبية، وسعي أهل الفارسية الذين دخلوا في دين الإسلام إلى إعادة أمجاد بلادهم القديمة وإن كانت تحت عباءة الإسلام أو خارجها من أصحاب المانوية والزرדתشية والماجوسية عبدة النار، والتي كانت فلولهم تحاول إحياء عباداتهم، وقد اتخذت من مبادئ الدين الإسلامي في الدعوة إلى المساواة والعدالة الاجتماعية ستاراً لتحقيق أطماعهم واستعادة نفوذهم، وصارت تبث سمومها وتشعل نار الفتنة للقضاء على البيت الأموي، فوجدوا في آل البيت النبوي من نسل علي بن أبي طالب ملاذاً لهم، وتشيعوا لهم وكان مذهب الشيعة.

انتشرت مذاهب الشيعة ونفوذهم في شرق الدولة (بلاد فارس) وكان هذا آخر مسمار يندق في نعش الدولة الأموية، وساهم بجزء كبير وأسرع بزوالها.

عندما آلت الخلافة إلى عثمان بن عفان وهو من البيت الأموي، وتخطى القوم علي بن أبي طالب ظهرت جماعة يرون أن علياً أولى بالخلافة من عثمان، بل إنه أولى من أبي بكر وعمر، وضمروا في صدورهم غلاً لبني أمية، وعندما قتل علي يد أحد الخوارج ثارت هذه الفئة وانضم إليهم مدعو التشيع، وانتشرت الفتنة وعمت الفوضى، غير أن معاوية ومن خلفه إلى عهد هشام بن عبد الملك

تمكنوا من إخماد هذه الفتن، لكن هذه الفرق ظلت تعمل بالظلام تنتظر الفرص السانحة للانقضاض على البيت الأموي، وعندما قتل الحسين بن علي تحول الفكر الشيعي من حركة عقائد فكرية إلى حركة سياسية عسكرية، ولكنها ظلت أيضاً تعمل بالخفاء لقوة سلطان الدولة الأموية، ولكنهم سعوا إلى الدعوة لهذا المذهب الشيعي في كثير من بلدان العالم الإسلامي، ووجدوا لهم أعضاء مؤيدين ومريدين.

تركزت جماعات الشيعة في مدن العراق المتاخمة لبلاد فارس والبعيدة عن مقر الخلافة بدمشق، وكانت جماعات الشيعة في أول الأمر في معظمها من العناصر العربية الموالية لآل البيت الكارهة لبني أمية، فوجد الموالي من أهل فارس فيهم العبادة التي انضوا تحتها لتحقيق أغراضهم القومية، فادعوا التشيع والدعوة إلى أن تصبح الخلافة في علي ونسله، واكتسب هذا المذهب في العراق وفارس أعداداً كبيرة، وأصبح لهم فقهاء وعلماء وتنظيمات، وعمدوا إلى استقطاب من تبقى من البيت العلوي بعد مقتل الحسين بن علي.

استطاع محمد ابن الحنفية الابن الثالث لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه إعداد تنظيم هذه الطائفة، ولنقل أنهم هم الذين أجادوا توظيفه لهدم الدولة الأموية، وبالتالي ضرب الإسلام، وفي عهد أبي هشام بن محمد ابن الحنفية، وكانت الدعوة ما زالت سرية، ولكنها أصبحت قوية، وزات نفوذ وتأثير، وخاصة في الكوفة بالعراق وخراسان بفارس، حتى ظهر العباسيون على مسرح الأحداث ومطالبتهم بالخلافة، وكان ذلك بمثابة الضربة القاصمة، وقد تمكنت الدولة العباسية من استغلال كل عوامل الضعف التي ظهرت في الدولة الأموية والتي أدت إلى تدهورها وسقوطها.

وجاء عام ١٣٢ هـ / ٧٥٠م ليشهد نهاية عصر الدولة الأموية
ويزوغ عصر جديد وخلافة جديدة، وسبحان من له الدوام.

خلفاء العصر العباسي الأول

ميلادية	هجريّة	
٧٥٤ - ٧٥٠	١٣٦ - ١٣٢	أبو العباس
٧٧٥ - ٧٥٤	١٥٨ - ١٣٦	أبو جعفر المنصور
- ٧٧٥	١٦٩ - ١٥٨	محمد المهدي
- ٧٨٥	١٧٠ - ١٦٩	موسى الهادي
٨٠٩ - ٧٨٦	١٩٣ - ١٧٠	هارون الرشيد
٨١٣ - ٨٠٩	١٩٨ - ١٩٣	محمد الأمين
- ٨١٣	٢١٨ - ١٩٨	عبد الله المأمون
- ٨٣٣	٢٢٧ - ٢١٨	أبو إسحاق
٨٤٧ - ٨٤٢	٢٣٢ - ٢٢٧	هارون الواثق

الدولة العباسية وازدهار الحضارة الإسلامية

قيام الدولة العباسية

تنتسب الدولة العباسية إلى العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسله، وقد توفي العباس في زمن خلافة معاوية بن أبي سفيان، ولم يكن العباس يروم الخلافة ولا يتطلع إليها، ولكنه كان يرى أن علي بن أبي طالب أولى بها وأجدر، ولذا لم يألو العباس وآل بيته جهودهم في تأييد علي وآل بيته للوصول إلى الخلافة، وكان عبد الله بن العباس من أشد الموالين لعلي بن أبي طالب، وقد حارب معه، ووقف بجانب الحسين، وكان من أشد المعارضين لخروجه من الحجاز وتوجهه إلى العراق، ثم جاء علي بن عبد الله بن العباس، وسار على نهج أبيه وجده في موالة أبناء علي بن أبي طالب إيماناً منه بحقهم في الخلافة.

كان علي بن عبد الله بن عباس قد هاجر من الحجاز في زمن الدولة الأموية مع كثير من آل بيت النبوة، ومنهم أبو هاشم بن محمد ابن الحنفية من أبناء علي، وأقاموا بمدينة الحميمة على أطراف الشام، وقد عملت الدولة الأموية على أن يجتمع العلويون (أبناء علي) والعباسيون (أبناء العباس) في مكان واحد ليكونوا تحت أعينهم ويسهل مراقبتهم.

كان عبد الله بن عباس قد انصرف عن السياسة وابتعد عن الصراعات حول الخلافة، وجاء ابنه علي وسار على نهجه في حين

كان هاشم بن محمد ابن الحنفية يسير على نهج أبيه في محاولة استعادة الخلافة وهدم البيت الأموي، وكانت دعواه سراً حتى يتجنب بطش الأمويين.

ظل أبو هاشم يدعو الناس سراً، وأرسل دعواته إلى الكوفة حيث شيعة علي، وإلى خراسان حيث الموالي الحاقدون على الدولة الأموية. شعر الأمويون بخطر أبي هاشم، فأرسل سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي واستدعى أبا هاشم إلى دار الخلافة في دمشق، وكان ذلك في عام ٩٨ هـ، فأكرم وفادته وأمر فدس له السم، وفي طريق عودته عرف بما حدث له، ولما وصل إلى الحميمة شعر بدنو أجله، فأرسل إلى علي بن عبد الله العباسي وتنازل له عن حقه في الخلافة وطلب منه مواصلة المسيرة ومطالبته بالخلافة وهدم الدولة الأموية.

كان هذا التنازل نقطة تحول في تاريخ العالم الإسلامي؛ إذ تحول اهتمام العباسيون إلى المطالبة بالخلافة بعد أن كانوا يكتفون بمناصرة العلويين، غير أنهم كانوا أكثر حنكة ودقة في تدبير الأمور.

توفي علي بن عبد الله العباسي فحمل اللواء ابنه محمد بن علي العباسي الذي نشط في الدعوة والاستقطاب، ولكنه أوعز للدعاة بأن يدعوا الناس إلى موالاة آل بيت النبوة، أي تكون الخلافة في بيت النبوة ولا تشير أن أحد بعينه علويًا أو عباسيًا، فظن الشيعة أن الدعوة هي لخلافة أبناء علي بن أبي طالب.

سارت الدعوة كالنار في المهشيم، وتألفت حوله القلوب المحبة والقلوب الكارهة، وتفانت الأنفس الطاهرة والأنفس الخبيثة، وكان الهدف واحداً، وهو إسقاط الدولة الأموية بدعوى عدم المساواة بين العرب والموالي، واستعلاء بني أمية على جنسهم والأجناس الأخرى، وانصرافهم إلى الترف والملذات، وأصبح العباسيون حملة لواء القضاء

على الحكم الفاسد، ونصرة الحق والعدل ونشر المساواة وتحكيم شرع الله.

تمكن محمد بن علي العباسي من توطيد دعوته وتثبيت أركانها، ولكنه توفي سنة ١٢٤ هـ، وترك الأمر لابنه إبراهيم الذي أعاد تنظيم الدعوة ليخطو خطوة واسعة في سبيل تحقيق الهدف، فلقب نفسه بالإمام ليصبح زعيماً دينياً سياسياً، وبدأ الإعداد لتصبح حركته السرية ثورة على الخلافة الأموية.

جاء عام ١٢٨ هـ يحمل رياح التغيير، فجعل إبراهيم العباسي أبا سلمة الخلال عاملاً له وداعية على الكوفة، وعبد الرحمن بن مسلم الذي عرف فيما بعد بأبي مسلم الخراساني عاملاً له وداعية على خراسان، وفي عام ١٢٩ هـ كانت الخلافة الأموية قد دب فيها الخلاف والانشقاق والصراع على السلطة، فوجد إبراهيم العباسي فرصة للانقضاض على بني أمية، فجعل من عبد الرحمن بن مسلم عاملاً وداعية على الكوفة وخراسان، وأمره بأن يجهر بالدعوة إلى بني العباس.

أصبحت خراسان هي القاعدة التي انطلقت منها القوات العربية المدعومة بالموالي ضد البيت الأموي في خلافة مروان بن محمد الأموي، وقام أبو مسلم الخراساني بالاستيلاء على "مرو" عاصمة خراسان، ولم يتمكن نصر بن سيار عامل الأمويين من مواجهة أبي مسلم ولم يسعفه مروان بإرسال النجدة.

أمر مروان بالقبض على الإمام إبراهيم العباسي في الحميمة، وإرساله إلى دار الخلافة بدمشق، وعندما علم إبراهيم بذلك وتوقع مصيره المحتوم أوصى بالإمامة إلى أخيه أبي العباس، وطلب منه أن يرحل وأهله إلى الكوفة، ويلوذ بدار أبي سلمة الخلال، ويختفي عن

رجال الأمويين.

حاول أبو سلمة الخلال أن يجعل الدعوة بالكوفة إلى الأسرة العلوية مستغلا عدم قدرة أبي العباس على الظهور، ولكن أبا العباس أسرع يستنصر بأبي مسلم الخراساني الذي بادر وأرسل رهطاً من العباسيين إلى الكوفة لنصرة أبي العباس ومبايعته، فما كان من أبي سلمة إلا أن بايع أبا العباس على الخلافة.

تمكن العباسيون من فرض سلطانهم على الكوفة وخراسان وما بينها، فهب الأمويون لوأد هذه الثورة في مهدها، وعند نهر الزاب الأعلى أحد فروع نهر دجلة التقى الجمعان، ودارت رحى معركة رهيبة، وكان ذلك في عام ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م، وانتهت المعركة بهزيمة مروان بن محمد الذي هرب إلى مصر.

تمكن العباسيون بقيادة أبي مسلم الخراساني من تتبع فلول الجيش الأموي التي انسحبت نحو الشام، وظلت تطاردهم وتستولي على المدن واحدة بعد أخرى، حتى وصلوا إلى دمشق، وفي تلك الأثناء كانت هناك قوات تطارد مروان بن محمد فأدركته عند قرية "أبو صير" بالقرب من الفيوم وقتلته، وصارت الخلافة إلى أبي العباس الذي عرف بالسفاح، وبهذا انتهى العصر الأموي ليزغ العصر العباسي.

خلفاء العصر العباسي الأول أبو جعفر المنصور مؤسس الدولة العباسية

في عام ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م سقطت الدولة الأموية وبويع أبو العباس بن محمد بن علي العباسي خليفة للمسلمين، وقد عمل هذا الخليفة الذي لقب بالسفاح على قطع دابر الأمويين، ولقد استعمل في ذلك كل وسائل العنف والقسوة حتى استتب الأمر، وفي عام ١٣٦ هـ وافته المنية.

آلت الخلافة إلى أبي جعفر المنصور بعد وفاة أخيه أبي العباس، وقد بذل أبو جعفر المنصور جهوداً عظيمة في توطيد حكم الدولة الجديدة، وإن كان أبو العباس هو أول خليفة عباسي إلا أن أبا جعفر المنصور يعتبر هو المؤسس للدولة العباسية، فقد عمل على إعلاء شأنها وتأكيد هيبتها والحفاظ على كيانها والحفاظ عليها من أي تهديد خارجي أو داخلي.

كان أبو جعفر المنصور بالحجاز يؤدي مناسك الحج عندما وصله نبأ وفاة أخيه أبي العباس، ولما فرغ توجه إلى الكوفة فصلى بها وخطب في الناس، ثم توجه إلى الأنبار حيث بايعه أهل العراق وخراسان وسائر البلاد سوى الشام، وبعد أن استتب له الأمر أرسل إلى عمه عبد الله بن علي يخبره بوفاة أبي العباس، فلما بلغه الخبر أعلن في الناس أن أبا العباس قد جعل فيه الخلافة من بعده، والتف حوله بعض من أمراء العراق وبايعوه خليفة للمسلمين، وجعلوا له جنداً كثيراً.

كادت ثورة عبد الله بن علي أن تزلزل أركان الدولة العباسية وهي ما زالت في المهد، فأسرع أبو جعفر بإرسال أبي مسلم الخراساني على رأس جيش جرار، ودارت بين الفريقين حروب طاحنة انتهت بهزيمة عبد الله بن علي العباسي والقضاء عليه في عام ١٣٧ هـ.

كان أبو مسلم الخراساني من أبرز قادة العباسيين والسيف المسلط على أعدائهم، وساهم بجهد عظيم في ترسيخ الدعوة للعباسيين وتكوين جيش كبير حقق به انتصارات عظيمة في الداخل والخارج، الأمر الذي جعله يشعر بأن العباسيين يدينون له بالفضل، وقد علا شأنه بينهم وكان عازماً على العودة إلى وطنه خراسان.

خشي أبو جعفر المنصور من عودته إلى خراسان وهو بما عليه من زهو وفخار أن يتمكن من حشد الموالي من أهل خراسان وفلول الدولة الأموية والانقلاب عليه، فدعاه إلى قصر الخلافة، وقبض عليه، ثم أمر بقتله، وبذلك قضى أبو جعفر المنصور على خصومه الطامعين في الخلافة والمهددين لها، وأصبح الحاكم الفعلي للدولة العباسية، بعد أن فرض هيئته وسلطانه.

تفرغ أبو جعفر المنصور لشئون الحكم وبناء الدولة وإعداد الجيش لحماية حدودها، والعمل على توسيع رقعتها وإنشاء عاصمة جديدة لها، فأسس مدينة بغداد لتكون عاصمة للخلافة العباسية، وتعد بغداد شاهداً على عظمة الدولة العباسية وراثتها ورخائها، وقد شيّدت على نهر دجلة وسميت مدينة السلام، غير أن اسم بغداد قد غلب على هذا الاسم، وصارت بغداد مدينة العلم والاقتصاد، وكثرت بها القصور والمساجد وأصبحت درة العالم الإسلامي.

فتن الخوارج في العصر العباسي الأول

أجملنا وذكرنا بعض الحركات التي ظهرت في العصر العباسي وكيف تعامل معها أبو العباس والمنصور والهادي والمهدي والرشيد، ومن هذه الحركات: المقتنع وأبو مسلم الخراساني، ولكننا لا يمكن أن نغفل فتن الخوارج التي نشطت خلال هذا العصر، خاصة وأن بعضها ممتد إلى يومنا هذا.

ويطلق لفظ الخوارج على الفئة أو الفئات التي تخرج على نظام الخلافة، وظهرت هذه الفئات منذ خلافة عثمان بن عفان، وقد قتل على يد أحد هؤلاء الخوارج، وحاربهم علي بن أبي طالب عندما غالوا في الدين وابتدعوا، ثم عادوا ونشطوا في عهد الخلافة الأموية التي دخلت معهم في حروب شديدة الوطأة، وكانوا من أهم أسباب إضعاف الدولة الأموية وسقوطها.

وصل عدد فرق الخوارج في العصر الأموي لأكثر من عشرين فرقة أشهرهم الأزارقة - النجدية، تناحروا فيما بينهم وأفنوا بعضهم، ووصل عددهم في عصر الدولة العباسية إلى فرقتين فقط هما: الإباضية والصفيرية^(١)، وهما من الفرق التي كتب لها النجاة من الإبادة والبقاء حتى الآن، ويرجع ذلك لعدم غلوها في الدين، ولا ينادون بتكفير المجتمع المسلم، ولا يسعون للقتال في الدين، وكانوا يعملون بمبدأ التقية، وجواز التستر.

(١) البغدادي والشهرستاني.

عادت هذه الفرق - الإباضية والصفيرية - إلى الظهور في جنوب شرق الجزيرة العربية قبل أن تستقر الخلافة العباسية، وذلك بعودة شيبان بن عبد العزيز ويكنى أبا الدلفاء^(١)، وكان قد اختفى تحت وطأة مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين والذي حاربه بشدة في آخر أيامه، ففر شيبان إلى خراسان، وعندما قامت الدولة العباسية قام أبو مسلم الخراساني بدعوته إلى مبايعة أبي العباس، إلا أنه رفض وفرّ إلى جزيرة كاوان في الخليج العربي (الفارسي)، فأرسل إليه أبو مسلم قائده خازم بن خزيمة، ففر شيبان إلى عُمان لينضم إلى ما بها من الإباضية بزعامة الجلندي بن سعدي.

اتخذ خازم البصرة قاعدة لتتبع حركة الخوارج، وظل يطاردهم في عُمان والبحرين، وتمكن من تشتيت شملهم بعد أن هدم وحرق دورهم، وكان ذلك في عهد العصور، وفي شمال العراق والتي كانت وكر الخوارج ظهر رجل منهم يدعي ملبد بن حرملة الشيباني في عام ١٣٨ هـ - ٧٥٥ م، فترصده المنصور وأرسل إليه عدداً من قادته، إلا أنه تمكن من هزيمتهم الواحد تلو الآخر، وحاول حميد استمالته بالمال، فعرض عليه مائة ألف درهم ليتوقف عن القتال فرفض، وأخيراً أرسل إليه المنصور قائده خازم بن خزيمة الذي تمكن من القضاء عليه وقتله، وكان خازم يتشبه في قتاله بالقائد المهلب بن أبي صفرة الذي اشتهر بحرب الخوارج في عهد الأمويين.

وفي عام ١٨٤ هـ - ٧٦٥ م ظهر في بلاد الجزيرة بالقرب من الموصل رجل يدعى حسان^(٢) من الصفيرية، وفي تلك الآونة نشط أكراد العراق، فأرسل المنصور خالد بن برمك لمحاربة الفريقين فانتصر

(١) الطبري.

(٢) العبر.

عليهما، وبين عامي ١٥٢-١٥٨ هـ قامت بعض فتن الخوارج بمحاولة زعزعة استقرار الدولة العباسية في خراسان، إلا أن الدولة العباسية تمكنت من إخماد ثوراتها ومحاولة القضاء عليها.

وفي المغرب كانت فتن الخوارج أخطر وأشد من فتن خوارج المشرق، وكان غضب البربر على الخلافة الأموية ومن بعدها الخلافة العباسية خير داعم لهذه الحركات، وأهم حركات الخوارج في المغرب كانت بقيادة عبد الرحمن بن حبيب الذي استقل بالقيروان القاعدة العربية بالمغرب.

كان اعتماد العباسيين على الفرس (العجم) على حساب العرب، الأمر الذي جعل عرب المغرب دائماً في حالة تمرد على الدولة العباسية، وفي أيام المنصور أرسل الخليفة العباسي قائده محمد بن الأشعث الخزاعي والي مصر على رأس جيش من عرب مصر وبرقة وخراسان للقضاء على أبي الخطاب زعيم الإباضية بالمغرب، وفي حين تمكن العباسيون من فرض سيطرتهم على بلاد المشرق تزعزع الاستقرار في بلاد المغرب.

بداية الحركات الشعبية

روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما عاد من إحدى غزواته: "عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"، يعني جهاد النفس الأمارة بالسوء، والتي تهفو إلى التحرر من كل قيد والتخلص من كل التزام، وقد عانى الخليفة أبو بكر الصديق في محاربة المرتدين ومدعي النبوة، وكابد عثمان من الخوارج، وناهض علي الشيعة ومدعي التشيع، وسعى الأمويون لتوطيد دعائم الدولة الإسلامية، وظلوا خلال دولتهم يحاربون على جبهتين الداخلية والخارجية حتى سقوطها وقامت الدولة العباسية.

ولم تكف الدولة العباسية لتتخلص من مناوأة الأمويين حتى واجهت خطرين داهمين صرفا جهدها في مشاكل داخلية وحالا بينها وبين تكريس قوتها لاستكمال الحرب ضد الدولة الرومانية، وتأمين الحدود، وكانت أولى هذه المشاكل تكمن في أطماع الفرس الذين هم عماد جيوش العباسيين، وأصحاب الفضل في تثبيت دعائم هذه الدولة، وكانوا يتطلعون في ذلك إلى مجد سياسي يعلي الموالي ويجعلهم على قدم المساواة مع العرب.

ظهور الحركات العدائية للدولة العباسية

وبدأت حركة الشعبية (الفارسية) خلال العصر العباسي كما أسلفنا بأبي سلمة الخلال الذي لقب بـ "وزير أبي محمد" الذي اتخذ أبو العباس وزيراً له لدرء خطر الخراسانيين الذين كانوا عضد الدولة، وكان أبو سلمة يدعو لتكون الخلافة في العلويين، الأمر الذي

جعل أبا العباس يستنصر بالقائد الخراساني أبي مسلم، وحرصه على قتل أبي سلمة ليكون الأمر بين اثنين من القادة أبناء طائفة واحدة وبلد واحد (خراسان)، وكان لأبي العباس ما أراد، وقتل أبو سلمة، وانفرد أبو العباس بالحكم، واستعمل أبا مسلم الخراساني قائداً لجيوش العباسيين في القضاء على الفتن الداخلية والفتوح الخارجية، وكان له شأن كبير في تدعيم وتوطيد دعائم الدولة العباسية.

في عهد أبي جعفر المنصور كان أبو مسلم الخراساني قد علا شأنه وزادت قوته، وأصبح له أتباع من بني جلدته، وكان أبو جعفر المنصور لا يميل إلى أبي مسلم، حتى أنه أوعز لأبي العباس وهو ولي للعهد بأن يتخلص من أبي مسلم الخراساني، وها هو وقد أصبح الخليفة ويرى أبا مسلم الخراساني المعتد بنفسه والعارف لقدره بين الخراسانيين، وأخذت مظاهر العداوة تشتد والخلافات تحدث، وأراد أبو مسلم الخراساني اللجوء إلى خراسان.

أوجس أبو جعفر المنصور خيفة من هذا الأمر، فأرسل إلى أبي مسلم رسالة يدعوه فيها إلى المثل بين يديه في عاصمة الخلافة، غير أن أبا مسلم أرسل إليه خطاباً كشف عن تأصل الفكر الفارسي القديم في طبيعة هذا الفارس، فأرسل أبو مسلم رسالة إلى أبي جعفر قال فيها: "إنه لم يبق لأمر المؤمنين أكرمه الله عدو إلا أمكنه الله منه، وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء، فنحن نافرون من قريك، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت، حريون بالسمع والطاعة، غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة".

تمكن أبو جعفر المنصور من التحايل على أبي مسلم، وأغراه

بالمجيء إلى العاصمة، ودبر له مقتله، وبذلك تخلص أبو جعفر من أخطر شخصية فارسية كانت تهدد سلطان دولة بني العباس في طور نشأتها.

أفرز مقتل أبي مسلم الخراساني جيلاً جديداً اتخذ أشكالاً خفية مسترة، وأولى هذه الحركات المناوئة للعباسيين حركة الراوندية^(١)، وهم جماعة من غلاة الفرس الذين عمدوا إلى الزج بالتحاليم الفارسية القديمة في الدين الإسلامي، والتأثير على المجتمع الإسلامي، وبدأوا بالمناداة بتأليه أبي جعفر المنصور، وحاولوا إرساء مبادئ الديانات القديمة وصبغتها بصبغة إسلامية، وذلك لإنفاذ أغراضهم السياسية إلى المجتمع الإسلامي وبين العوام، وكان من أخطر تلك التحاليم تناسخ الأرواح والحلول، وإضفاء مظاهر التقديس على الخليفة والدم الإلهي، ونادوا بتأليه أبي جعفر المنصور، ولكن أبا جعفر عاملهم بمنتهى القسوة، فأعمل فيهم القتل وقضى على معظمهم.

لم يتوقف نشاط الجماعات المناوئة عن بث التحاليم الفاسدة، فبعد الراوندية ظهر رجل قبيل الخلقة من أهل مرو بخراسان (لقب بالمقنع) واتخذ لنفسه وجهاً من ذهب حتى لا يرى الناس وجهه، وادعى الألوهية، فقال: إن روح الإله انتقلت منه إلى نوح، ثم إلى سائر الأنبياء، حتى حلت أخيراً في روح أبي مسلم، ومنه انتقلت إلى المقنع نفسه، وقال: إن أبا جعفر لم يقتل أبا مسلم، وإنما قتل شيطاناً على صورته.

تمكن المهدي من القضاء على هذه الحركة والخلص من المقنع

(١) الراوندية: نسبة إلى راوند وهي صوفية قريبة من أصفهان، وهي مهد هذه الحركة.

بعد جهد كبير، وما لبث أن قضى على هذه الحركة حتى اتخذ الفرس أسلوباً آخر لتفتيت المجتمع الإسلامي وانحلاله عن طريق إشاعة "الزندقة" والتحلل من القيم الدينية والاجتماعية، والإسراف في العبث والمجون عن طريق الشعر وشرب الخمر.

أنشأ الخليفة المهدي ديوان "صاحب الزندقة" مهمته القضاء على هذه الحركة وعلى تعاليمها المنحلة، ومطاردة كل من يدعي الزندقة ولو على الشبهة، فتم محاصرة هذه الحركة حتى يتمكن الخليفة العباسي من التفرغ لمواجهة الرومان.

العلويون

لم يكن الخطر الفارسي وحده الذي يهدد الدولة العباسية، وإنما كانت هناك ثورة دائمة من العلويين، وتمثل هذا الخطر في حقد العلويين على العباسيين؛ لاستئثارهم بالخلافة دونهم، حيث إن الشيعة اعتبروا تنازل أبي هاشم بن محمد ابن الحنفية عن الإمامة إلى محمد بن علي العباسي أمر باطل، ولا يكسب العباسيين حقاً مشروعاً في الخلافة، وتزعم أولئك العلويين أحد أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب الذي عرف باسم "محمد النفس الزكية"، والذي اشتهر بالتقوى والورع.

حين ولي أبو جعفر المنصور الخلافة لم يبايعه محمد النفس الزكية على الخلافة، وكن في الحجاز وجعلها مقراً لدعوته: "الرضا من آل البيت"، وكما تخلص أبو جعفر المنصور من أبي مسلم الخراساني سعى للتخلص من محمد النفس الزكية بعد أن تمكن إبراهيم - أخو محمد النفس الزكية - من السيطرة على البصرة بمساعدة الشيعة الموجودين بها، وأصبح سلطان أبي جعفر المنصور في خطر، فأرسل أبو جعفر إلى محمد النفس الزكية يدعوه إلى دار الخلافة ويمنيه

بالوعد والعهد، وكتب إليه يقول: "... ولك علي عهد الله وميثاقه... إن تبت ورجعت من قبل، وأن أومنك وجميع ولدك وإخوانك وأهل بيتك".

فأجابه محمد النفس الزكية قائلاً: "إنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاطمة بنت عمرو في الجاهلية، وبنو بنته فاطمة بالإسلام دونكم، إن الله اختارنا، أو اختار لنا، وأنا أوعى بالأمر منك... فأبي الأمانات تعطيني؟ أمان ابن هبيرة، أم أمان عمك عبد الله؟ أم أمان أبي مسلم؟

فأرسل إليه المنصور مرة أخرى قائلاً: "قرأت كتابك، فإذا جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الجافة والغوغاء... وأما قولكم: إنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي قرابة قريبة، ولكنها لا تجوز الميراث، ولا ترث الولاية، ولا تجوز بها الإمامة، فكيف تورث بها.

بعد هذه الرسائل أدرك أبو جعفر المنصور أن خطر العلويين على استقرار الدولة العباسية أصبح واقعاً، وكان العلويون قد اتخذوا من مكة والمدينة مقراً للانطلاق والثوب إلى الخلافة، وكان البعض قد أشار على محمد النفس الزكية باللجوء إلى مصر واتخاذها مقراً له، واستعمال جندها وخراجها لتدعيم حركته، ولكنه تباطأ في ذلك، في حين أسرع أبو جعفر في مهاجمة جند محمد النفس الزكية في المدينة ومكة، والانقضاض على جيش إبراهيم في البصرة والانتصار عليه وقتله.

كان ظهور محمد بالحجاز ينم عن عدم خبرة؛ حيث يمكن محاصرته، وقد أثبت التاريخ أن أي فتنة ظهرت بالحجاز انتهت بالفشل، وأشهرها فتنة ابن الزبير، حتى قيل أن "النفس الزكية" احتمى بالسراب، فلا مال ولا رجال ولا سلاح، ويكفي أن يقطع

عنه الميرة حتى يموت بمكانه.

وكان أبو جعفر من الدهاء، بحيث ضيق عليه الخناق حتى ظهر
فسهّل اصطياده والقضاء عليه، غير أنه كانت لهذه الفتنة العلوية
ذبول.

قتيل باخمرا

كان مقتل محمد النفس الزكية في رمضان عام ١٤٥ هـ في خلافة
أبي جعفر المنصور، فقام إبراهيم بن عبد الله أخو محمد بالاستيلاء،
على البصرة واستنصر بأهلها، ونسي إبراهيم مواقف أهل العراق
المخذلة مع العلويين منذ أيام علي بن أبي طالب وابنه الحسين رضي
الله عنهما.

تمكن أبو جعفر المنصور من محاصرة البصرة وأرسل عيسى بن
موسى والذي كان يمينا نفسه بولاية العهد فتمكن من إخراجه من
البصرة إلى بلدة تدعى باخمرا وقضى عليه، وكان ذلك في ذي الحجة
عام ١٤٥ هـ^(١)، وهكذا ارتفع شأن أبي جعفر الذي لقب بالمنصور
وزوى العلويين مرة أخرى.

موقعة فخ:

قيل: لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من مصيبة "فخ"،
فقد أدت النكبات والملاحقات للعلويين إلى أن اتخذ زعمائهم
أساليب خفية، ولم يخبُ اقتناع الزيديين بأن الإمامة والخلافة لعلي
بن أبي طالب ونسله، ووجدوا غايتهم في الحسين بن علي أحد
أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب، وانتهز الزيدون الفرصة التي
أتيحت لهم في عهد المهدي الذي ولي يعقوب بن داود^(٢) وهو من

١ - الطبري.

٢ - الطبري، الفخري.

الزيدية أمر الوزارة وزاد نفوذه.

في موسم الحج وفي شهر ذي الحجة لعام ١٦٩ هـ خرج الحسين بن علي على رأس جماعة من أهل بيته وقصد دار الإمارة في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهاجم العمري والي العباسيين الذي هرب من المدينة، وقام الحسين وأتباعه بهدم السجون وأخرجوا من بها.

دخل الحسين المسجد النبوي وأمر أن يؤذن فيه بأذان الشيعة "حي على خير العمل"، بدلا من الأذان السنني "حي على الفلاح"، وجلس الحسين بالمسجد يأخذ البيعة^(١).

لم يكن أهل المدينة على قلب رجل واحد مع الحسين، وقد حذره من ذلك موسى الكاظم، غير أن الحسين لم يأخذ هذا التحذير على محمل الجد، غير أن الهادي أمر فحُوصِرَت المدينة ومنع عنها الميرة (المداد) الذي كان يصلها من مصر واليمن، فضج أهل المدينة ولم يجد الحسين إلا الهروب إلى مكة.

أرسل المهدي جيشا بقيادة عمه والذي كان يُمنّي نفسه بولاية العهد "العباس بن محمد"، فلحق بالحسين ومن فر معه بوادٍ اسمه "وادي فنج" بالقرب من مكة^(٢)، وأرسل العباس إلى الحسين بخطاب أمان على حياته ومن معه، إلا أن الحسين كمثل سلفه من أئمة العلويين أصر على القتال رغم قلة عدد أنصاره بالنسبة للجيش العباسي، وتواجه الجمعان في حرب غير متكافئة.

وانتهت معركة فنج بالقضاء على الحسين بن علي حفيد الحسن بن علي بن أبي طالب، وكعادة العرب أرسلت رأسه إلى الخليفة

١ - الطبري.

٢ - معجم البلدان.

ببغداد، الأمر الذي أدى إلى اتساع الهوة وزيادة العداء بين العباسيين والعلويين وبالقضاء على ثورة محمد النفس الزكية.

وبالقضاء على ثورة محمد النفس الزكية ومن قبله أبي مسلم الخراساني أمنت الدولة العباسية شرور الفتن الداخلية، وإن تحولت هذه الحركات إلى حركات سرية تعمل بالخفاء، ولكن الهادي العباسي ترك الدولة العباسية موطدة الأركان، فاستطاعت في عهد الخليفة هارون الرشيد أن تستأنف الجهاد ضد الروم على نطاق واسع.

هارون الرشيد

أمير الخلفاء وسيد بني العباس

عرفت الدولة العباسية بأنها أكثر الدول حكاماً في تاريخ العالم الإسلامي، وأطولها عمراً، وأعظمها ثراءً ورخاءً، وأشدّها صراعاً من أجل البقاء، وقد آلت الخلافة إلى بني العباس سنة ١٣٢ هـ، وظلوا يتعاقبون على عرش الخلافة حتى سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م، وبلغ عدد خلفاء بني العباس سبعة وثلاثين خليفة، وقد تميزت هذه الدولة بأن مزجت بين الدين وشعائره والدنيا وشؤونها على عكس ملك بني أمية الذي كان دنيوياً فقط.

وانقسمت الدولة العباسية إلى عصرين؛ العصر العباسي الأول والعصر العباسي الثاني، ولكل منهما صفات تميزه وأحداث تؤرخ له، ويعتبر العصر العباسي الأول هو العصر الذهبي للدولة العباسية، ويكاد يكون العصر الذهبي للحضارة الإسلامية، حيث توفرت له كل عوامل البقاء والاستقرار والقوة والرخاء، منها المال الذي هو عصب الملك في البناء والتعمير، والرجال الذين هم قوام الحضارة، وحرية الفكر، وتوفر العلماء من أهل الدين والعلم، وتوفير المناخ المناسب للتطور والتقدم في كل فروع المعرفة بما لا يتعارض مع الدين والعقيدة، وقد جعلوا الدين الإسلامي ركيزة للتقدم الحضاري، فتفتحت العقول واستنارت القلوب، فتوافق العالم الإسلامي مع ما سبق من حضارات، فلم يحاربها، بل أقبل على حضارات اليونان التي وجدوها في الشام ومصر والعراق، والحضارة الفارسية ذات

الصلة بالحضارة الهندية، فتناولوا ما بها من تراث إنساني رفيع ووضعه في بوتقة اللغة العربية، واستخلصوا منه كل عظيم ونافع وقدموه إلى الإنسانية ليصبح تراثاً إنسانياً جديداً بعد أن نقحوه وهذبوه وأضافوا عليه من علومهم فنهلوا ورووا.

عهد الرشيد ١٧٠ / ١٩٣ هـ

هو الخليفة الخامس في سلسلة الخلافة العباسية، ويعتبر عصره أزهى عصور الدولة العباسية، العصر الذي فيه اكتملت للدولة كل مظاهر العظمة والقوة والمجد والهيبة والاستقرار، ويقول السيوطي: "إن أيام الرشيد كانت كلها أيام خير، وكانت في حسنها أعراس"^(١).

ولد الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب في الراي سنة ١٤٥ هـ، وأمه الخيزران التي أحسنت تربيته وتنشئته، فكبر وكبرت معه علامات الإمارة والملك، وألقى به والده في خضم الأحداث وهو ابن الثامنة عشر لما عرف فيه من قوة عزيمة وصلابة، فعينه أميراً للصائفة سنة ١٦٣ هـ، وفي سنة ١٦٤ هـ ولاه المغرب كله من الأنبار حتى أطراف أفريقيا، وفي سنة ١٦٦ هـ عينه أبوه ولياً للعهد بعد الهادي، وعندما مات الهادي تولى الرشيد الخلافة عام ١٧٠ هـ.

ملامح عن شخصية الرشيد

كان الرشيد من أنجب الأمراء وأفضل الخلفاء، غزير العلم جيد العطاء، شديد الإيمان، يحج عاماً ويغزو عاماً إلا لعذر أو ملامة، حج ماشياً ولم يفعلها غيره من الخلفاء، يُجِلُّ العلماء والفقهاء، ويحب الشعر والشعراء، ويميل إلى أهل الأدب والمفكرين، وكان شديد التأثر، فيكون حيناً كالريح العاصف، وحيناً كالنسيم، وكان يدني الفارس

(١) تاريخ الخلفاء.

المغوار ويقرب اللطيف المهزار، وكما كان شديد التأثر سريع البكاء
كان يحب الفكاهة والضحك.

نشأة الرشيد وقصر الخلافة

سبق وأن أسلفنا أن أول خليفة عباسي هو أبو العباس عبد الله
السفاح وقبل وفاته عقد لأخيه أبي جعفر المنصور ولاية العهد،
وجعل من بعده ابن أخيه عيسى بن موسى، ولما آلت الخلافة إلى
المنصور عقد لابنه المهدي الخلافة بعد عيسى بن موسى، وبعد أن
استتب الأمر للمنصور طلب من عيسى بن موسى أن يجعل ولاية
العهد من بعده لابنه المهدي، فرفض عيسى هذا الطلب، فتغير
المنصور، وأخذ يباعده عن مجالسه وقدم عليه المهدي في المجالس،
وأخذ يستعمل أساليب القهر حتى بايع عيسى بن موسى المهدي
وليّاً لعهد المنصور، وفي عام ١٥٨ هـ مات المنصور وهو في رحلة
الحج، وآلت الخلافة إلى المهدي، وكانت الدولة العباسية قد استقر
ملكها بفضل شدة وبأس السفاح والمنصور، وجاء عهد المهدي يحمل
اليسر والرخاء والإصلاحات الداخلية وإنشاء الطرق وشق الترع
وحفر الآبار وانتشار التكايا للفقراء، وهنا تذكر كتب التاريخ واقعة
سياسية هامة في عالم توريث الحكم، وهي أن المنصور قد صادر بعضاً
من أموال الناس وحفظها في مكان، وجعل على كل سرقة مال اسم
صاحبها، وأوصى ابنه المهدي أنه عند يصبح خليفة للمسلمين يرد
على أولئك الناس أموالهم، فيكسب ودهم ومساندتهم، ويشيعوا عدل
الخليفة وكرمه وحسن تدبيره، وكذلك خفض الضرائب والمؤن
والكسور، وعندما تقلد المهدي أمور الحكم عمل بوصية أبيه وزاد
عليها، فرد الأموال وجعل بيت المال يتحمل قيمة المؤن وهي نفقات
جباة الأموال، وأما الكسور فهي قيمة الخراج، وقد أمر كاتبه أن

يكتب لجميع عماله على الأمصار برفع العذاب عن أهل الخراج ومطالبتهم باللين والعفو عند المقدرة^(١)، وحكم المهدي خليفة للمسلمين، وفي عام ١٦٠ هـ عين المهدي ابنه الهادي ولياً للعهد، وفي عام ١٦٦ هـ عين الرشيد ولياً للعهد بعد الهادي الذي مات عام ١٧٠ هـ، وكان الهادي عند موت أبيه بجرجان يقود جيوش الخلافة، وكان هارون الرشيد بالعاصمة، فأخذ البيعة لأخيه الهادي.

كان الهادي فظاً غليظ القلب شديد البطش صعب المراس، سيء الظن بأقرب الناس إليه، إلى جانب هذا كان فصيح اللسان صاحب رأي، شديد الذكاء، يعرف اللهو ولكن لا ينشغل به عن أمور الخلافة.

الرشيد وولاية العهد

عندما مات المهدي عام ١٦٩ هـ آلت الخلافة إلى ابنه الهادي تنفيذاً لوصية أبيه، وقد ارتضى بذلك هارون وهو الأخ الأصغر على أن تكون الخلافة له بعد أخيه، ولكن الهادي سعى لأن يجعل الخلافة في ابنه جعفر وهو طفل صغير، وعمل على خلع هارون وأبدله بالخلافة مقاطعتي (الهنّيّ والمريّ) من أعمال الرقة، وهَمَّ هارون أن يقبل هذا الرأي، إلا أن يحيى بن خالد نصحه بعدم القبول، ولم يزل به حتى عدل، فعلم الهادي بما حدث من امتناع الرشيد وموقف يحيى، فأحضر يحيى وسأله لِمَ تتدخل بيني وبين أخي وتفسده علي؟ فقال يحيى: من أنا حتى أدخل بينكما، ودارت بينهما مناظرة شيقة بليغة.

بدأ الهادي يناظر يحيى في خلع الرشيد، فقال يحيى: إن حملت الناس على نكث الأيمان (التي قطعها والده المهدي عليه بخلافة الرشيد) هانت عليهم أيمانهم وجرأتهم على حل العقود التي تعقد

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي.

عليهم، ولو تركت الأمر في بيعة أخيك لحاله، ويبيع لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته. فقال الهادي: صدقت ونصحت، وبعد فترة لم يطب له هذا الرأي، فأرسل في طلب يحيى وحبسه، وأوعز إلى رجاله أن يحقروا شأن الرشيد وإثارة عيوبه وانتقاصه في مجلس الجماعة.

أرسل يحيى يطلب مقابلة الهادي، وأن يخلو به لأمر جليل، فأجابه الهادي وقابله، فقال يحيى: إن لم يكن قد راق لك ما سبق فأسرع يا أمير المؤمنين، أرأيت إن كان ما نعوذ بالله منه (الموت) قبل بلوغ جعفر، وقد خلعت هارون، فهل تقسم الخلافة لمن لم يبلغ الحلم؟ فقال: لا، قال يحيى: فدع الأمر حتى يبلغ جعفر، فإذا بلغنا الله ذلك فعلي أن آخذ بيده حتى يبايعه هارون، واذكر يا أمير المؤمنين أنك لو بايعت لجعفر قبل بلوغه وجدت ما نعوذ بالله منه، وثب على هذا الأمر أكابر أهلك، وخرج الأمر عن ولد أبيك، ووالله لو لم يعقد المهدي لهارون لوجب أن تعقد له أنت ليكون من بني أبيك... فشكر الهادي له قوله وأطلقه^(١).

ولكنها وساوس الشيطان التي لا تنتهي ومفاتن الناس في حب المال والعيال، فعاد الهادي وسعى لخلع هارون وجعل الخلافة في ولده جعفر، ولكن أجله نفذ قبل أن يتمكن من ذلك، ومات قبل أن يحقق أمله ويصل إلى هدفه^(٢).

كان الخليفة المهدي والد الهادي وهارون على قوته وبطشه سمحاً ليناً صفي النفس ضاحك السن قليل الأذى والبذاء^(٣)، وكانت زوجته الخيزران امرأة قوية تحب النفوذ وتهوى السلطان، وقد وجدت

(١) الجهنسباري وابن الأثير.

(٢) المسعودي: مروح الذهب.

(٣) الجاحظ: التاج.

في المهدي اللين الرزين ما يشجعها على التمادي، فكانت تأمر وتنهاي وتتشفع عند الخليفة وتبرم وتنقض، وترك لها المهدي أموراً كثيرة، فكانت لها السيادة على من في البلاط، وازدحم قصرها بالرواد من الأمراء والعظماء وطلاب الحاجات والطامعين في المناصب.

وعندما مات المهدي وآلت الخلافة إلى الهادي ظنت الخيزران أن سلطانها سيزيد وشأنها سيرتفع ونفوذها سيقوى، وأن ابنها سيكون طوع أمرها، وتطويره تحت جناحها، وستسير السلطانة، غير أن الهادي ذلك الشاب العنيد المشاكس صلب الرأي غليظ القلب صعب المراس والانطواء سيء الظن يعلم في أمه طبعها واستعد لهذه المواجهة التي ستكون شرسة.

وخلال عدة شهور من تولي الهادي الخلافة ظلت الخيزران على حالها، وظل قصرها عامراً بالزائرين، والمواكب تغدو وتروح على القصر والهادي صابر على مضض ويتحين الفرصة لمواجهتها، ولكنها تبادت، وظلت تحمل وتعتقد وتأمر وتنهاي حتى كادت أن تنكر وجوده، وما كان عليه خلال هذه الفترة إلا أن يوقع ويختم ما أبرمت وعقدت.

استشعر الخليفة خطر أمه عليه وعلى ولايته، وبدأ يفكر كيف يوقف هذه التصرفات، وكيف يقاوم هذا التسلط، وبدأ يؤجل ما تطلبه ولا يلبي طلباتها ويماطل فيها، وانتقلت المواجهة إلى مرحلة أخرى، وذلك حين استشعر الخليفة أن طلبات ورغبات والدته أصبحت أوامر عليه أن يطيعها فيها، فتحركت فيه النخوة، وأصر أن يسيطر على زمام الأمور وحده دون شريك ولو كانت أمه.

تأزمت الأمور بين الخليفة وأمّه، فأصبح لا يطاوعها في أمر ولا يشاورها في رأي، ولما تفاقم الأمر قال لها: لئن بلغني أنه وقف ببابك

أحد من قوادبي وخاصتي لأضربن عنقه ولأقبضن ماله، ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك؟ أما لك مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك؟ أو بيت يصونك؟ إياك وإياك، لا تفتحي بابك لمسلم ولا ذمي.

فانصرفت دون أن تنطق بحلو أو مرٍّ، ثم قال لأصحابه: أيها خير، أنا وأمي، أم أنتم وأمهااتكم؟ قالوا: بل أنت وأمك، قال: فأيكم يحب أن يتحدث الرجل بخبر أمه، فيقال: فعلت أم فلان، وقالت أم فلان؟ قالوا: لا نحب ذلك، فقال: فما بالكم تأتون أمني فتحدثون بحديثها؟ فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها^(١).

تفاقم الخلاف واشتد النفور وصارت الخيزران في عزلة، بل زادت الأمور سوءاً حين أراد الهادي خلع الرشيد وإتمام البيعة إلى ابنه جعفر، وكان الرشيد هو الابن المتبقي للخيزران لتستعيد سلطانها ومكانتها، وكانت تعرف في الرشيد أنه الابن البار الوديع وهو القريب من صورة أبيه المهدي.

في ظل هذه الأحداث انتشرت العيون والجواسيس بقصر الخلافة، وكل منها يتربص بالآخر، وخشيت هي أن يغدر الخليفة بها وبأخيه الرشيد، وهو يعرف أن أمه تؤلب عليه الرشيد وتحثه على الاحتفاظ بحقه في الخلافة، بل ويحارب من أجل ذلك، وتحكي بعض المصادر أن الخليفة قد سعى للخلاص منها بدس السم لها، ولكنها نجت من هذه المؤامرة ومصادر أخرى تقول: إن الخيزران أوعزت إلى بعض الجواري فقتلته بالجلوس على وجهه وهو مريض، وكان ذلك في ربيع الأول عام ١٧٠ هـ^(٢).

(١) المسعودي: مروج الذهب، وابن الأثير.

(٢) المراجع السابقة وابن خلدون والفخري.

تلك هي البيئة التي نشأ فيها هارون الرشيد والوسط المحيط به، الأمر الذي يؤثر في تكوين أي إنسان.

خلافة الرشيد

كان الوقت ليلاً عندما مات الهادي وقضى نحبه، وشاع الخبر، وأسرع يحيى بن خالد بن برمك إلى الرشيد فوجده نائماً، فصاح به يوقظه، فقال له: قم يا أمير المؤمنين، فقال الرشيد: كم ترورعني! لو سمعتك الرجل تدعوني بأمر المؤمنين لكان ذلك عنده أكبر ذنوبي. فقال يحيى: لقد مات الرجل. جلس هارون يستجمع أمره ويتدبر حاله، فقال ليحيى: أشر علي في الولايات، فجلس الرجل يشير عليه، ويذكر له ولايات الأقاليم، ويرشح له الأسماء، والخليفة الجديد يولي الولاية والحكام.

ولد للرشيد في هذه الليلة ابنه عبد الله الذي لقب بالمأمون، وفي الصباح تم دفن الهادي.

وسبحان من بيده الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، فقد بويع الرشيد وهو في الثانية والعشرين من عمره في ليلة النصف من ربيع الأول عام ١٧٠ هـ، وهي الليلة التي عزم فيها الهادي على قتله وقتل يحيى بن خالد بن برمك، ولكن القدر لم يمهلهم فمات هو وأصبح هارون الرشيد خليفة للمسلمين وأمير المؤمنين، وقد حلف ألا يصلي الظهر إلا ببغداد.

استهل هارون ولايته وحكمه بأن أمر بضرب عنق أبي عصمة القائد لما بدر منه عندما كان يمر بإحدى الجسور برفقة جعفر بن الهادي فزاحموا الرشيد على الجسر، وقدم أبو عصمة جعفر على هارون في المرور عليه، وأمره بالوقوف حتى يمر الأمير، فقال: السمع والطاعة للأمير، وأسرّها في نفسه التي انكسرت بهذه الفعلة، وعندما

ولي الأمر أمر بضرب عنقه، ثم سار إلى بغداد.

عندما وصل الرشيد إلى جسر بغداد وقف على الجسر وأمر فاستدعى الغواصين وقال لهم: سقط مني ههنا خاتم اشتراه لي والدي المهدي بمائة ألف، فلما كانت أيام الهادي طلبه مني فألقيته إلى الرسول فسقط ههنا، فغاص الغواصون وأخرجوه وسُرَّ به الرشيد.

ولي الرشيد الخلافة وعين يحيى بن خالد في منصب الوزير، قال له: قد فوضتكم أمر الرعية، وخلعت ذلك من عنقي وجعلته في عنقك، فولَّ من رأيت واعزل من رأيت، لقد أجلسني هذا المجلس ببركتك وحسن تدبيرك، وقد قلدتك الأمر. وجعله وزيره وحامل أختام الخلافة.

وعين الرشيد يوسف بن القاسم كاتباً له، وأمره بأن يكتب إلى ولاة العالم الإسلامي، فكتب يقول: بعد حمد الله عز وجل، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم:

"إن الله بمنه ولطفه مَنْ عليكم معشر أهل بيت نبيه بيت الخلافة ومعدن الرسالة، وآتاكم أهل الطاعة من أنصار الدولة وأعوان الدعوة، من نعمه التي لا تحصى بالعدد، ولا تنقص مدى الأبد، وأياديه التامة، إذ جمع ألفتكم وأعلى أمركم وشد عضدكم، وأوهن عدوكم، وأظهر كلمة الحق، وكنتم أولى بها وأهلها، فأعزكم الله، وكان الله قوياً عزيزاً، فكنتم أنصار دين الله المرتضى، والدائنين بسيفه المنتضى عن أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم، وبكم استنقذهم من أيدي الظلمة أئمة الجور، والناقضين عهد الله، والسافكين الدم الحرام، والآكلين الفيء، والمستأثرين به، فاذكروا ما أعطاكم الله من هذه النعمة، واحذروا أن تغيروا فيغير بكم، وإن الله عز وجل استأثر بخليفته موسى الهادي الإمام فقبضه إليه، وولى بعده رشيداً مرضياً

أمير المؤمنين بكم رءوف رحيم، من محسنكم قبول، وعلى مسيئكم بالعفو عطف، وهو - أمتعته الله بالنعمة، وحفظ له ما استرعاه إياه من أمر الأمة، وتولاه بما تولى به أوليائه وأهل طاعته - يعدكم من نفسه الرأفة بكم والرحمة لكم، وقسم أعطيتكم فيكم عند استحقاقكم، وببذل لكم من الجائزة مما أفاء الله على الخلفاء^١ مما في بيوت الأموال ما ينوب عن رزقه كذا وكذا شهر غير مقاص^٢ لكم بذلك فيما تستقبلون من أعطياتكم، وحاملاً باقي ذلك للدفع عن حريمكم، وما لعله يحدث في النواحي والأقطار من العصاة المارقين إلى بيوت الأموال، حتى تعود الأموال إلى جماعها وكثرتها والحال التي كانت عليها، فاحمدوا الله ووجدوا شكراً يوجب لكم المزيد من إحسانه إليكم بما جدد لكم من رأي أمير المؤمنين وتفضل به عليكم أيده الله بطاعته، وارغبوا إلى الله له في البقاء، ولكم به في إدامة النعماء لعلكم ترحمون، وأعطوه صفقة أيمانكم وقوموا إلى بيعتكم، حاطكم الله وحاط عليكم وأصلح بكم وعلى أيديكم، وتولاكم ولاية عباده الصالحين:

وقد أنشد إبراهيم الموصلي فقال:

أَلَمْ تُرَ أَنْ السَّمْسَ كَانَتْ سَقِيمَةً فَلَمَّا وَلَّى هَارُونَ أَشْرَقَ نُورُهَا
بَيْنَ أَمِينِ اللَّهِ هَارُونَ مِنْ ذِي النُّدَى فَهَارُونَ وَالْيَهَا وَيَخِي وَزِيرُهَا^(٢)

وأمر هارون وزيره يحيى أن لا يقطع أمراً إلا بمشاورة أمه الخيزران، فكانت هي المشاورة في الأمور كلها، تبرم وتحمل وتمضي وتحكم، وكان وهو ابن الثانية والعشرين يعتبر ذلك من باب البر بوالدته.

١ - مقاص: مُقَلَّل.

(٢) الطبري والمسعودي: مروج الذهب والبداية والنهاية.

في سنته الأولى من الخلافة أمر بسهم ذوي القربى أن يقسم بين بني هاشم على السواء، وفيها قضى على كثير من الزنادقة والمارقين، وأكمل بناء مدينة طرطوس ونزلها الناس، وفيها حج بالناس وأجزل العطاء لأهل الحرمين، وفيها غزا وفتح.

وقال داود بن رزين الواسطي:

بَهَارُونَ لِحَاحِ الثُّورِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ وَقَامَ بِهِ فِي عَدَلِ سِيرَتِهِ التَّهْنُجُ
 إِمَامَ بَدَاتِ اللَّهِ اصْبَحَ شَقْلُهُ وَأَثْرُ مَا يُغْنِي بِهِ الْغَزْوُ وَالْحَجُّ
 تَضِيْقُ عَيْنُ النَّاسِ عَنِ ثُورِ وَجْهِهِ إِذَا مَا بَدَا لِلنَّاسِ مَنْظَرُهُ الْبَلْجُ
 وَأَنْ أَمِينَ اللَّهِ هَارُونَ ذَا النُّدَى يُنِيلُ الَّذِي يَرْجُوهُ اضْعَافَ مَا يَرْجُو^(١)

آل بيت الرشيد

مات أبوه المهدي العباسي عام ١٦٩هـ وهو ابن الحادية والعشرين، وأمه الخيزران وهي يمنية الأصل كانت في جوارى المهدي، أعتقها وتزوجها، وصارت أما لابنيه الهادي وهارون، وقد أسلفنا بعضاً من قصة الهادي وأمه الخيزران وهارون الرشيد إلى أن توفي الهادي وآلت الخلافة إلى هارون، وقد توفيت أمه الخيزران سنة ١٧٣هـ في بغداد، وقد حزن عليها حزناً شديداً.

زوجاته

زيدة بنت جعفر بن المنصور

الهاشمية أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس - عم رسول الله صلى الله عليه وسلم - بن عبد المطلب بن هاشم، تزوجها الرشيد عام ١٦٥هـ في خلافة والده المهدي ببغداد، وهي أم محمد الأمين والتي كانت تعده

(١) الطبري والبداية والنهاية لابن كثير.

ليكون الخليفة، وقد سعت لذلك جاهدة، وكانت سيدة جليلة عظيمة الشأن سخية العطاء ومن ذوات الرأي والفصاحة، وكان الرشيد يؤثرها على غيرها؛ فهي ابنة عمه وهاشمية العرق.

قال الرشيد لزبيدة يوماً: أتزوج عليك؟
قالت زبيدة: لا يحل لك أن تتزوج علي.
قال: بلى.

قالت: بيني وبينك من شئت.

قال: ترضين بسفيان الثوري؟

قالت: نعم.

وحضر الثوري مجلس الرشيد، فقال له: إن زبيدة تزعم أنه لا يحل لي أن أتزوج عليها، وقد قال الله تعالى: {فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ} ^(١). ثم سكت، فقال سفيان: تمم الآية؛ يريد أن يقرأ: {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً} ^(٢)، وأنت لا تعدل، فأمر لسفيان بعشرة آلاف درهم، فأبى سفيان أن يقبلها.

وفي واقعة أخرى: قال لها الرشيد في عرض الكلام: أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة، فكان يميناً غربياً، فمن يأمن مكر الله ولو كانت إحدى قدميه داخلها، هكذا قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه.

ندم الرشيد على هذا اليمين ولم يجد له مخرجاً، فجمع الفقهاء والعلماء من جميع الأمصار، وحرار الجميع، وتكلم الجميع ما بين محلل ومحرم إلا الليث بن سعد، فقربه الرشيد منه ليسأله، فطلب

(١) النساء: ٣.

(٢) النساء: ٣.

الليث من الرشيد أن يحضر مصحفاً جامعاً فأحضره، فطلب الليث من الرشيد أن يقرأ سورة الرحمن، فقرأ، فلما بلغ: {وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ}، قال الليث: قف ههنا يا أمير المؤمنين، فوقف، فقال الليث: على هذا وقع الشرط، فنكس أمير المؤمنين رأسه، فقال الليث: يا أمير المؤمنين، تخاف مقام الله؟ قال الرشيد: إني أخاف مقام الله. فقال: يا أمير المؤمنين، إذا كنت تخاف الله فهي جنتان وليست بجنة واحدة، كما ذكر الله في كتابه، ففرح الرشيد وانشرح صدر زبيدة التي كانت مستترة قريبة من المجلس تستمع، وأمر الرشيد بالهدايا والخلع على الليث، وأمرت زبيدة بضعف ما أهدها الرشيد.

تلك هي زبيدة زوجة هارون واسمها الحقيقي (أمة العزيز)، وقد غلب عليها اسم زبيدة لما كان يدعوها جدها المنصور لكونها فتاة بضرة ناضرة، وقد وصفها ابن تغري: بأنها أعظم نساء عصرها أصلاً وحسباً وحُسناً وجمالاً، وكانت أما رءوفاً، وزوجة وفيّة، ورعة تقيّة، وقد ماتت ببغداد سنة ٢١٦هـ.

ومن زوجات الرشيد أم ولد موسى التي أنجبت له عليّاً، وتزوج أم محمد ابنة صالح المسكين، وتزوج العباسة ابنة سليمان بن أبي جعفر سنة ١٨٧هـ، وتزوج الجرشية العثمانية التي ينتهي نسبها إلى عثمان بن عفان، أولئك هن المهائر اللاتي مات الرشيد وهن في عصمته وعددهم أربعة.

أولاد الرشيد

وعدهم أحد عشر من الذكور وأربعة عشر من الإناث، أما الذكور فهم الأكبر محمد الأمين وأمّه زبيدة، وعبد الله المأمون وأمّه مراجل، والقاسم المؤمن وأمّه قصف، ومحمد المعتصم وأمّه ماردة، وعلي وأمّه

١ - الرحمن: ٤٦.

أمة العزيز، وصالح وأمه رثم، ومحمد أبو عيسى وأمه عرابة، ومحمد أبو يعقوب وأمه شذرة، ومحمد أبو العباس وأمه ضُبَيْث، ومحمد أبو سليمان وأمه زواج، ومحمد أبو علي وأمه دواج، ومحمد أبو أحمد وأمه كتمان.

أما الإناث فهن: سكينه ابنة قصف وأخت القاسم، وأم حبيب ابنة ماردة وأخت أبي إسحاق المعتصم، وأروى ابنة حلوب، وأم الحسن وأمها عرابة، وأم محمد حمدونة، وفاطمة وأمها غصص، وأم أبيها ابنة سكر، وأم سلمة وأمها رحيق، وخديجة ابنة شجر، وأم قاسم وأمها خزق، ورملة أم جعفر ابنة حُلَى، وأم على وأمها أنيق، وأم الغالية ابنة سمندل، وربطة وأمها زينة.

تلك هي عائلة هارون من حيث الأب والأم والزوجات والأبناء ذكور وإناث، وكان هذا العصر -العصر الأموي والعباسي- ما زال يزخر بالجواري والسبايا، وكانت هذه البيئة المترفة الغنية صاحبة الثراء تدفع إلى تعدد الزوجات بما أحل الله وكثرة الإنجاب، والدليل على ذلك أنه عندما مات الرشيد كان في بيته أربع مهائر (حليلات).

قطوف من شخصية الرشيد

أولاً: في الأدب والثقافة

كان الهادي الأخ الأكبر لهارون الرشيد قد عهد له أبوه بالولاية والخلافة خلفاً له، الأمر الذي حدا بالهادي أن يصحب أباه في غزواته، وكان به كثير من صفات أمه من حبه للسلطة والجرأة والحزم، وكان يميل إلى الثقافة العسكرية، وتملكته هذه الثقافة فكان ظلماً لأبيه، في حين كان هارون حديث السن مرهف الحس على غير طبيعة أمه وأخيه، الأمر الذي جعله وهو غض يميل إلى الجانب الهادي الرزين من الثقافة العربية، واعتنت أمه بنشأته، فحاولت أن تبث فيه قوة الشخصية بجانب سماحة النفس وإعمال العقل، فكانت ثقافته عربية واسعة في الأدب وفروعه واللغة ومفرداتها، وحفظ القرآن على يد الشيخ حمزة الزيات، وعلمه الكسائي الفقه والنحو والبلاغة، وعلمه الشعر والأدب والبلاغة العلامة المفضل الضبي، وأحاط به المعلمون فنهل منهم اللغة والعلم والأدب، فبدأ رزيناً في صباه، وقوراً في شبابه، كيساً في خلافته، فرتل القرآن وقرض الشعر ونقده، وخطب في الناس، وقال الحديث، فجالس الفقهاء والأدباء وخالط المتفكرين والنجباء..

ومن ذلك:

مرّ الرشيد ومعه ولداه الأمين والمأمون بالمفضل الضبي، فسلم عليه وجالسه، فقال الرشيد: يا مفضل.

قال: لبيك يا أمير المؤمنين.

قال الرشيد: كم من الأسماء في كلمة "فسيكفيكمهم"؟

قال المفضل: ثلاثة أسماء يا أمير المؤمنين.

قال: وما هي؟

قال: فسيكفي الله عز وجل، والكاف الثانية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والهاء والميم والواو للكفار.

قال الرشيد: صدقت، كذا أفادنا الشيخ - يعني الكسائي - ثم التفت إلى الأمين فقال له: فهمت؟ قال: نعم، قال: أعد المسألة، فأعادها كما قال المفضل.

ثم عاد هارون وقال للمفضل: هل عندك مسألة؟

قال المفضل: نعم يا أمير المؤمنين، قول الفرزدق:

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ لَنَا قَمْرَاهَا وَالنُّجُومُ الطَّوَالِغُ

قال الرشيد: هيهات، قد أخذنا هذا قبلك، فقد أخبرنا الشيخ الكسائي أن "لَنَا قَمْرِيهَا" ويعني الشمس والقمر، كما قالوا: سنة العمرين، ويريدون بذلك أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، وذلك إذا اجتمع اسمان من جنس واحد، وكان أحدهما أخف على أفواه القائلين غلبوه، فسموا الأخير باسمه، فلما كانت أيام عمر أكثر وفتوحاته أكثر من أيام أبي بكر غلبوه، وسموا أبا بكر باسمه، وقد قال الله عز وجل: {بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَسَّسَ الْقَرِينِ} (١)، وهو المشرق والمغرب.

وكان الرشيد ممن يَشُدُّ الرِّحَالَ إِلَى الْعِلْمِ وَالِاسْتِنَارَةِ، فَقَدْ ذَكَرَ الْقَاضِي الْفَضْلُ: مَا أَعْلَمَ أَنَّ الْمَلِكَ رِحْلَةَ فِي طَلْبِ الْعِلْمِ إِلَّا الرَّشِيدَ،

(١) الزخرف: ٤٢.

فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رحمه الله، وكانت أصول الموطأ بسماع الرشيد في خزانة المصريين، ثم رحل لسماعه السلطان صلاح الدين بن أيوب إلى الإسكندرية، فسمعه على ابن طاهر بن عوف، ولا أعلم لهما ثالثاً^(١).

وكان الرشيد يهتم بتعليم أبنائه أصول الأدب والعلوم والفقه، فقد قال الأحمر النحوي: بعث إلي الرشيد لتأديب ولده محمد الأمين، فلما دخلت عليه قال: يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك بهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة، وطاعتك عليه واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن، وعرفه الآثار، وروّه الشعر، وعلمه السنن، وبصره مواقع الكلام وأبداه، وامنع الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القراء إذا حضروا مجلسه، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم منها فائدة تفيده إياها من غير أن تحرق به فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، وقدّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباه عليك بالشدة والغلظة^(٢).

هكذا كان الأمير يتلقى التربية على القيم والمبادئ، واحترام الكبير مهما كان، وحفظ القرآن وتعلم الفقه وأصول الدين، وعدم إضاعة الوقت في اللهو واللعب، والملاطفة والملاينة، وإلا الشدة والعقاب، تلك هي أصول التربية والنشأة، وإذا كان هذا حال الخليفة في تربية أبنائه ومصاحبته لهم وملازمتهم إياه، فمتى يكون منه الفجور والإثم وارتكاب المعاصي وهو القدوة لأبنائه.

كان هارون يطرب إلى الشعر ويتقرب إلى الشعراء؛ لما في الشعر من

(١) تاريخ الخلفاء.

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر.

قدرة على سمو المشاعر وإرهاف الحس.

وقال الأصمعي: دخل العباس بن الأحنف على هارون الرشيد، فقال الرشيد: أنشدني أرقى بيت قالته العرب، فقال: قد أكثر الناس في بيت جميل حين يقول:

أَلَا لَيْتَنِي أَغَى اصَّمُ ثَقُودُنِي بُثْنَةَ لَا يَخْضِي عَلَيَّ مَلَامُهَا

فقال هارون: أنت والله أرق منه حيث تقول:

طَافَ الْهَوَى فِي عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ حَتَّى إِذَا مَرَّ بِي مِنْ بَيْنِهِمْ وَقَفَا

قال العباس: أنت والله يا أمير المؤمنين أرق قولاً مني ومنه حيث تقول:

أَمَا يَكْفِيكَ أَنْكَ تَمْلِكُنِي وَإِنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِبْدِي

فأعجب هارون بقوله وضحك.^(١)

وقال ابن قتيبة^(٢): حبس الرشيد أبا العتاهية، فأرسل إليه من محبسه أبياتاً قال فيها:

تَقْدِيكَ نَفْسِي مِنْ كُلِّ مَا كَرِهْتَ نَفْسُكَ إِنْ كُنْتَ مُذْنِبًا فَاغْفِرْ
يَا لَيْتَ قَلْبِي مُصَوَّرٌ لَكَ مَا فِيهِ لِثَسْتَيْقِنَ الَّذِي أَضْمِرُ

فوقع الرشيد على رقعة، "لا بأس عليك"، فعاد أبو العتاهية وأرسل إليه رقعة أخرى:

كَأَنَّ الْخَلْقَ رُكِبَ فِيهِ رُوحٌ لَهُ جَسَدٌ وَأَنْتَ عَلَيْهِ رَأْسُ
يَمِينِ اللَّهِ إِنَّ الْخَبْسَ بَأْسٌ وَقَدْ وَقَعْتَ "لَيْسَ عَلَيْكَ بَأْسٌ"

فأمر الرشيد بإطلاق سراحه.

(١) تاريخ بغداد.

(٢) عيون الأخبار.

يقول ابن خلدون في مقدمته: "إن الأمة إذا تغلبت وملكتم ما بأيدي أهل الملك قبلها كثر رباشها ونعمتها، فتكثر عوائدهم ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته إلى نوافله ورقته وزينته، ويذهبون إلى اتباع من قبلهم في عوائدهم وأحوالهم، وينزعون مع ذلك إلى رفه الأحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية، ويتفاخرون في ذلك، ويفاخرون غيرهم من الأمم في أكل الطيب ولبس الأنيق، وركوب الفاره، وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك وترفهم فيه، إلى أن يبلغوا من ذلك الغاية التي للدولة أن تبلغها بحسب قوتها، وعوائد من قبلها، ولا يحصل الملك إلا بالمطالبة والمغالبة، فإذا حصلت الغاية انقضى السعي إليها، وقلت المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلب الملك، وآثر ذوو الراحة والسكون والدعة، ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمسكن والملابس، فيبنون القصور، ويمجرون المياه، ويغرسون الرياض، ويستمتعون بأحوال الدنيا^(١).

وهذا ما حدث عندما تغلب العباسيون على الأمويين وآلت لهم الخلافة، وفي عهد أبي العباس وأبي جعفر المنصور تمكنوا من الإمساك بزمام الأمور ووضع أسس الدولة العباسية، وعملوا للقضاء على كل الحركات المناوئة لهم، وفي عصر محمد المهدي وموسى الهادي استتب الأمر للعباسيين، وقد حصلت الغاية وانقضى السعي للخلافة، وقلت المتاعب، وكان زمن هارون الرشيد زمن تحصيل الثمرات وجني القطف والاستمتاع بأحوال الدنيا.

ولد هارون الرشيد في قصر أبيه وحوله الرجال الذين تولوا تنشئته على آداب الملوك وتسييس الرعية، ومهدوا له سبل العلم

١ - مقدمة ابن خلدون.

والثقافة، ويسروا له أسباب الترف والنعيم، وعندما بلغ أشده زج به أبوه إلى ميدان الوغى والقتال، فاشتد عوده وشحذ فكره، وعندما تولى الخلافة كانت دولة الإسلام قد وصلت إلى مرحلة الشباب والفتوة، وعندها استلقى هارون على ظهره، ينظر إلى السحابة المارة ويقول: اذهبي إلى حيث شئت فسيأتيني خراجك.

لذا كان عهد هارون الرشيد هو ذروة دولة العباسيين، وبلغت معه الدولة الإسلامية شأنًا عظيمًا، وصارت بغداد تاج هذه الخلافة، وكانت أقوى عواصم العالم قاطبة بعد أن أصبحت مركزًا تجاريًا وسوقًا رائجًا، وأضحت مدينة العلم والعلماء.

روى الخطيب البغدادي أن الرشيد كان يقول: إنا قوم عظمت رزيتهم، وحسنت بعثتهم، ورثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبقيت فينا خلافة الله^(١)، وقال عمرو بن بحر الجاحظ: اجتمع للرشيد من الجد والهزل ما لم يجتمع لغيره من بعده^(٢)، وكان الفضيل بن عياض يقول: ليس موت أحد أعز علينا من موت الرشيد، لما أتخوف بعده من حوادث، وإنني لأدعو الله أن يزيد في عمره من عمري.

ويقول ريتشارد كوك^(٣): "وحظي هارون الرشيد بصيت عريض قلَّ أن سجله التاريخ لغيره من الملوك والسلاطين، وعليه تدور أقاصيص ألف ليلة وليلة التي ترجمت إلى معظم اللغات، وانتشرت بذلك في جميع أقطار العالم، وتسربت إلى أغلب البيوت والمحافل، وعلى الرغم من نواحي الضعف في شخصية الرشيد، يعتبر بحق أحد

(١) البداية والنهاية.

(٢) المرجع السابق.

(٣) Baghdad: The City of peace oo.١٦_٦٤ abridged.

أعظم الملوك في التاريخ، وفي عهد الرشيد شمل الرخاء الإمبراطورية الإسلامية على نحو لم يتوفر من قبل، وكانت حكومة الرشيد مهيبة الجانب في الداخل والخارج، وشاعت العدالة بين الناس، واتصلت بغداد بتجارة واسعة مع بقاع العالم المختلفة التي كانت معروفة في ذلك العهد، ويمتاز هارون الرشيد بأنه بالإضافة إلى حماية رعيته وتأمينهم جلب لهم ألوان الحضارة والمدنية والفنون والآداب، وفي عهد هارون وصلت بغداد إلى قمة الأبهة والعظمة، واتسعت اتساعاً عظيماً في كل اتجاه، وتألقت الأبنية فيها، وشمل التجديد والزخرفة جميع الأبنية التي بنيت قبل عهد الرشيد حتى أصبحت تتمشى مع العهد الجديد، فأصبحت سمعة بغداد وجمالها والثقافة فيها، وألوان الملذات والسرور، وصنوف الترف والرخاء، أصبح كل ذلك مشهوراً في العالم كله، وما استطاع الرحالة أن يجدوا لبغداد في عهد الرشيد نظيراً^(١).

قال تعالى: {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} (٢).

لقد منَّ الله على الرشيد بفضله، وأوسع في رزقه، فكان جواداً سخياً، وفاض بخير الله على العباد، وكان من أحسن الناس سيرة وأكثرهم غزواً وحباً.

قال فيه أبو السعالي:

فَمَنْ يَطْلُبُ لِقَاءَكَ أَوْ يُرَدُّهُ فَبِالْحَرَمَيْنِ أَوْ أَقْصَى الثُّغُورِ
فَقِي أَرْضِ الْعَدُوِّ عَلَى طُمُورِ وَفِي أَرْضِ الثَّرْفِ فَوقَ كُورِ
وَمَا حَازَ الثُّغُورَ سِوَاكَ خَلْقٌ مِنْ الْمُتَخَلِّفِينَ عَلَى الْأُمُورِ
وقال الفضيل: استدعاني الرشيد يوماً وقد زخرف منازلهم وأكثر

(١) د/ أحمد شلبي موسوعة التاريخ الإسلامي.

٢ - الحديد: ٢١

الطعام والشراب واللذات فيها، ثم استدعى أبا العتاهية فقال له:
صف لنا ما نحن فيه من العيش والنعيم.

فقال:

عِشْ مَا بَدَا لَكَ سَالِمًا فِي ظِلِّ شَاهِقَةِ الْقُصُورِ
تُسَعَى إِلَيْكَ بِمَا اشْتَهَيْتَ سَتَ لَدَى الرِّوَّاحِ إِلَى البُكُورِ
فَإِذَا التُّفُوسُ تُقَفِّعَتُ عَنِ ضَيْقِ حَشْرَجَةِ الصُّدُورِ
فَهُنَاكَ تُغْلَمُ مَوْقِفًا مَا كُنْتَ إِلَّا فِي غُرُورِ

قال: فبكى الرشيد بكاء كثيراً شديداً، فقال له الفضل بن يحيى:
دعاك أمير المؤمنين تسري فأحزنته؟ فقال له الرشيد: دعه؛ فإنه رأنا
في عمى فكره أن يزيدنا عمى.

وقال بعضهم: دخلت على الرشيد وبين يديه رجل مضروب
العنق، والسياف يمسح سيفه في قفا الرجل المضروب، فقال الرشيد:
قتلته لأنه قال: القرآن مخلوق، فقتله على ذلك قربة إلى الله عز وجل.
وحدث أبو معاوية الرشيد: عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي
هريرة بحديث احتجاج آدم وموسى، فقال عم الرشيد: أين التقي يا
أبا معاوية؟ فغضب الرشيد من ذلك غضباً شديداً، وقال: أتعرض
على الحديث؟ علي بالنطع والسياف، فأحضر ذلك، فقام الناس إليه
يشفعون فيه، فقال الرشيد: هذه زندقة، ثم أمر بسجنه، وأقسم أن لا
يخرج حتى يخبرني من ألقى إليه هذا، فأقسم عمه بالأيمان المغلظة ما
قال هذا له أحد، وإنما كانت هذه الكلمة بادرة مني، وأنا أستغفر الله
وأتوب إليه منها. فأطلقه.

هذا هو هارون السخي التقي، مرهف الحس رقيق القلب، قوي
العزيمة، الذي يحب في الله ويغضب في الله، وأقام دولته على الحق
والعدل، فسما ملكه وذاع صيته، ودانت له الأرض.

الولايات وحكم الرشيد

قامت الخلافة العباسية وانتصرت على الدولة الأموية بتأييد الشعوب الغير عربية، وكانت إفراناً للحركة الشعبية، وأصبحت الدولة العباسية وكأنها دولة الموالي، وقد عمد أبو العباس وخلفه المنصور إلى توطيد أركان الخلافة، ولكنهم لم يستطيعوا الإمساك على ما كان بيد الأمويين، فانتفى سلطانهم على الأندلس التي انفصلت عن الدولة العباسية، ولم يستطيعوا أن يطوعوا لهم أهل الشام، وكذلك كان حال المهدي والهادي، وعمد أبو العباس والمنصور إلى محاربة الخوارج لتوطيد أركان الخلافة والقضاء عليهم.

الخوارج:

آلت الخلافة إلى هارون الرشيد وهو ابن تسعة عشر عاماً وبضعة شهور، وعندها تسلطت أمه الخيزران على الحكم، وعندما ماتت كان البرامكة قد أحكموا حصاره، وفرضوا على الدولة الإسلامية أسلوب حياتهم، وكاد عقد الدولة أن ينفرط.

وكانت بعض الولايات منذ بداية عهده قد أخذت في الانسلاخ عن الدولة، فما كان من هارون إلا أن قبل مبدأ الانفصال الإقليمي، وذلك للحفاظ على سلطة الخلافة (بمفهوم الحكم الذاتي لكل ولاية)، على أن تكون الولاية تابعة ولو اسمياً للخلافة العباسية تآمر بأمرها وترعى دينها وتؤدي الخراج.

كانت بلاد الشام معقل الأمويين وبها دار الخلافة، وعند قيام

الدولة العباسية تم إخضاع الشام بالقوة، ولكنها لم تعد دار الجند، وأزيلت عنها الصبغة الحربية^(١)، ولكن هارون عندما انقلب على البرامكة سعى لإيجاد توازن بين القومية العربية المتمثلة في عرب الشام والجزيرة العربية وبغداد وبين موالي فارس وخراسان.

كان هناك صراع تقليدي بين عرب الشام وبين اليمانية والقيسية^(٢) وهو صراع سبق ظهور الإسلام، وقد تمكن الأمويون من إخماد جذوة هذه العداوة، غير أنها ظهرت مرة أخرى في العصر العباسي.

وفي عصر هارون الرشيد وفي عام ١٨٠ هـ هاجت هذه العصبية القبلية في الشام هياجاً عظيماً، وصارت حرباً قتل فيها الكثير^(٣)، فأرسل هارون الرشيد جعفر بن يحيى البرمكي إلى الشام ليطفئ نار هذه الفتنة، حيث تمكن من التوفيق بين الفريقين، وعمل يحيى البرمكي على نزع سلاح أهل الشام، ولعله كان يريد من ذلك عدم وجود أي قوة تناوئ الدولة العباسية، والتي يتحكم فيها العجم وهو منهم، ويقول الطبري: "بأنه -أي يحيى البرمكي- رمح ولا فرس، فقد كان لا بد أن يكون الشام منزوع السلاح، حتى لا يهدد بأي حال الخلافة العباسية".

وفي مصر لم يكن الحال أفضل من الشام، وكان بعض عرب قيس في خلافة هشام الأموي قد انتقلوا إلى مصر، وبلغ عددهم ثلاثة آلاف، انتشروا في الأحواف الصحراوية الشرقية والغربية من دمياط والشرقية والغربية من بلييس، وقد أطلق عليهم أهل الأحواف^(٤)

(١) الطبري والبلاذري.

(٢) المقرئزي - موسوعة التاريخ الإسلامي.

(٣) الطبري.

(٤) الطبري ومعجم البلدان.

وتوالدوا وكثر عددهم وكونوا قرى وبلدانا.

ويذكر أن عرب مصر انضموا إلى الدعوة العباسية، وذهب وفد منهم مع مروان لمبايعة ابن العباس، وكان هذا سبباً في أن اتخذ العباسيون من مصر جنداً كثيفاً كما كانوا أيام الأمويين، وعلى عكس عرب الشام والعراق والجزيرة، لم يقاوم المصريون قيام الدولة العباسية.

وعلى الجانب الآخر لم يسع العباسيون لاستفزاز عرب مصر، بل سعوا لاسترضائهم، وذلك لوفرة الخراج الذي كان يرسل منها إلى العراق وشمال أفريقيا والحجاز، وقد ظهرت أهمية هذا الخراج عندما قام محمد النفس الزكية بالخروج على الخلافة العباسية، أرسل أبو جعفر المنصور^(١) إلى والي مصر أن يقطع الميرة عن مكة، ليفقد النفس الزكية أهم موارده من الغذاء، وكان العباسيون يهتمون باختيار واليهم على مصر، وكان عاملهم على مصر يجمع بين الولاية والإمامة، ثم فصلوا بين الوظيفتين، وعينوا موظفاً لشئون المال، وكان من ضمن خراج مصر غير القمح: الخيل والثياب، والحريز والعسل البنهاوي، والشراب الإسكندراني، وكذلك البغال والحمير، وكثير من صنوف المنتجات التي لا توجد إلا في مصر، وكان الولاة يصحبون هذا الخراج الكبير بأنفسهم ليقدموه للخليفة.

لذا كان عرب مصر من الأهمية بمكان، ولهم رؤساء عشائر لهم مكانة وكلمة في اختيار القضاة^(٢) وسياسة الولاة، ومنذ عهد الرشيد وظهر لقب قاضي القضاة، فأصبح الاختيار ضرورة لما كان للقاضي من سلطان على الولاية، وكانوا يصممون على تعيينه بمعرفتهم.

(١) الطبري.

(٢) الكندي: القضاة.

بدأ ولاية العباسيين قبول الرشوة وزيادة الخراج على الأراضي، ويستحدثون أنواعاً من مصادر الخراج والتي لم تكن موجودة من قبل، وفرض ضرائب ومكوس على المحال والدكاكين، الأمر الذي أوجد صراعاً بين الولاة والعرب، وأثار بعضاً من الشغب والنفور من الحكم العباسي، وتجراًوا عليهم.

ويذكر أن في عهد المهدي قام أحد عرب مصر بمحاولة الانفصال عن الدولة العباسية وكان يدعي دحية^(١)، وقتل الوالي العباسي موسى بن مصعب، وكان ذلك عام ١٦٧ هـ، واستمرت هذه الفتنة حتى عام ١٦٩ هـ إلى أن تمكن الفضل بن صالح من القضاء على هذه الفتنة وعادت مصر إلى سلطان الدولة العباسية.

عادت الفتنة تشتعل في عهد هارون الرشيد ولم تهدأ إلا قليلاً، وفي عدة سنوات لم يتمكن هارون من استجلاب الخراج من مصر إلا بالقوة، ومما يذكر أن هارون الرشيد كان قد طلب من جعفر البرمكي والذي تمكن من وأد الفتنة في الشام أن يتولى ولاية مصر، غير أن جعفرأ رفض وأرسل هرثمة بن أعين^(٢) وذلك عام ١٧٨ هـ، ولكنه لم يتمكن من إخماد ثورات العرب (قيسية ويمينية)، الأمر الذي دفع هارون لفرض ما يشبه نظام (الالتزام) أي المزايدة على خراج مصر، وتولية من يقدر على جمعه وجبايته، وقد عبر المقرئزي عن ذلك بقوله: بغير سوط، أو عصا، فلعل هذا يمكنه من جباية خراجها.

أما ولاية شمال أفريقيا وهي الجزء الشرقي من بلاد البربر، قبالة جزيرة صقلية، فكان هناك عدد من المهاجرين العرب، وزدات قلاقلهم في عهد هارون الرشيد، وكان وليها يزيد بن حاتم^(٣) تقلد

(١) ولاية الخطط / النجوم.

(٢) الطبري والخطط والولاة والنجوم.

(٣) وفيات الأعيان.

أمور الولاية منذ عصر المنصور عام ١٥٤ هـ - ٧٧١ م إلى عام ١٧٠ هـ - ٧٨٦ م كان خلالها العرب كثيري الفتن، ثم جاء هارون وولي الخلافة داود بن يزيد بن حاتم، وأتبعه بأربعة آخرين لم تطل ولاية أحدهم^(١)، ويذكر أن أحد ولاتها واسمه ابن الجارود تمكن من الاستقلال بها عام ١٧٨ هـ - ٧٩٤ م^(٢)، فأرسل إليه هرثمة بن أعين^(٣)، فتمكن من اعتقاله وإرساله إلى بغداد، وظل عليها والياً حتى عام ١٧٩ هـ، وأمام كثرة التمرد طلب هرثمة من هارون أن يعفيه من ولايته.

وفي ذات الوقت تقدم أحد الأعراب ويدعى إبراهيم بن الأغلب اليميني (دولة الأغلبة)، وكان له نفوذ وثراء، وعرض على الرشيد أن يتولى أمر الولاية للشمال الأفريقي^(٤) على أن تبقى وراثية في أسرته، ويتعهد بأن يرسل إلى بيت المال في بغداد كل عام أربعين ألف درهم^(٥) بالإضافة إلى عدم إرسال المساعدات التي كانت ترسلها دار الخلافة سنوياً إلى ولاية أفريقيا، وقدرها مائة ألف، فكتب له هارون عهداً بذلك.

كانت الأموال في عهد هارون الرشيد متوفرة والخراج كثيراً، ولكن الأحوال السياسية وكثرة الاضطرابات والقتال جعلت هارون يقبل انسلاخ بعض الولايات على أن تظل تحت راية الخلافة العباسية، ولذلك قام الفقيه أبو يوسف صاحب كتاب الخراج بوضع تعريفه لدول أهل العهد الذين تمكنوا من الحصول على عهد بالحكم الذاتي^(٦)، وعرف وليها بالأمير المسئول، وله حق سك العملة وإدارة

(١) وفيات، معجم البلدان، الكامل.

(٢) قائمة الجهشياري.

(٣) العيون.

(٤) الطبري.

(٥) الجهشياري.

(٦) كتاب الأحكام.

شئون البلاد على عكس الأمير المستكفي الذي ليس له حق سك العملة ويمكن للخليفة عزله وقتما يشاء.

لم يكن قيام دولة الأغالبة في الشمال الشرقي الإفريقي في بادئ أمرها يعني الانفصال التام عن الخلافة العباسية، فقد ظل إبراهيم بن الأغلب يستشير هارون في كل ما يتصل بإمارته، فقد طلب من الخليفة المدد من مصر عندما قامت قلاقل من جند طرابلس (الغرب) التي كان الخليفة قد ضمها إلى إمارته، ويذكر أن إبراهيم التغلبي نقل دار الإمارة إلى مكان جنوب القيروان وأطلق عليه اسم العباسية، وذلك تقريباً من الخليفة العباسي، وأقام فيها قصرًا أطلق عليه (الرصافة) ^(١) يشابه قصر الرصافة ببغداد، وظل إبراهيم مبقياً على أن يكون عضد جيشه من العرب، وقام بشراء العبيد السود، وجعل منهم الحرس، ولم يكن يعتمد على الخراسانيين.

كان هناك صراع بين المشرق الذي كان يغلب عليه العنصر الفارسي والمغرب الذي يغلب عليه العنصر العربي والأفريقي، وقد تكفل إبراهيم بن الأغلب وخلفه للخلافة العباسية بأعدادها في هذه الجهة من أفريقيا، وقد كان البربر في المغرب العربي حاولوا إقامة دولة تخصهم، فقاموا بعدة حركات انفصالية منها الرسمية في تاهرت ^(٢) في سهل صحراوي وسط بلاد البربر على يد عبد الرحمن بن رستم، وأخرى في سجلماسة على أطراف بلاد السوس عند جبال درن (أطلس)، وأخرى في تلمسان، فكانت دولة الأغالبة تقف لهذه الحركات -والتي كانت تشبه حركات الخوارج في الشرق- بالمرصاد. كما ظهرت دولة علوية في المغرب الأقصى، وكان إدريس بن عبد

(١) فتوح البلدان.

(٢) معجم البلدان.

الله أخو النفس الزكية قد وفد على هذه البلاد قادماً من مصر بمساعدة عامل البريد ويدعى "واضح"، وكان يميل للعلويين، وفي بلاد المغرب العربي اعترف بإمامته إسحاق بن محمد زعيم قبيلة أوربة البربرية وانضمت إليه قبائل زناتة وزغاوة ولواتة^(١).

وبذلك نشأت دولة علوية في المغرب الأقصى وذلك في عام ١٧٢هـ - ٧٨٩م، وقام الرشيد بالقبض على واضح وضرب عنقه، وأسند إلى دولة الأغالبة أمر القضاء على هذه الدولة الوليدة والمناوئة للخلافة العباسية، غير أن هذه الدولة ظلت قائمة إلى أن قضى عليها الفاطميون.

الأندلس:

عندما سقطت الخلافة الأموية على يد العباسيين انتقل فرع من الأسرة الأموية إلى بلاد الأندلس بقيادة عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، الذي أفلت من العباسيين، وكان في رحلة صيد بعيداً عن دمشق، وتمكن من الفرار إلى مصر، ومنها إلى شمال شرق المغرب، ثم إلى المغرب، وأمام ملاحقة العباسيين لمن تبقى من الأمويين، وعدم معاونة البربر له بسبب عدائهم للأمويين، الأمر الذي دفعه للانتقال إلى الأندلس عبر البحر.

كان عرب مضر يحكمون الأندلس، فاستغل عبد الرحمن النزاع القبلي بين اليمانية والمضرية من جهة، والنزاع بين العرب والبربر من جهة أخرى، وتمكن عبد الرحمن "الداخل" بمساعدة القبائل اليمانية وقبيلة "كلب" من الانتصار على مضر، ودخل قرطبة عاصمة الأندلس، وكان ذلك عام ١٣٨ هـ - ٧٥٦م، واكتفى بلقب الأمير دون أن ينصب نفسه أمير المؤمنين^(٢)؛ حيث إن العقيدة

(١) الطبري ومعجم البلدان.

(٢) الكامل، مقدمة ابن خلدون.

الإسلامية لم تكن تقبل تعدد الخلافة والتي اقتضت على الخلافة العباسية بعد الخلافة الأموية.

ومنذ أن قامت الخلافة العباسية وهي تسعى لفرض سيطرتها على بلاد الأندلس، وعندما تمكن عبد الرحمن الداخل من السيطرة على أمور الحكم عمل أبو جعفر المنصور على التحريض ضده، واستغل في ذلك رجلاً من اليمانية يدعى العلاء بن مغيث الجهمي، والذي تمكن من إثارة اليمانية والمضرية والحاقدين على الأمويين، ومن ثم تمكن العلاء من محاصرة عبد الرحمن الداخل في باجة^(١) إحدى مدن الأندلس، ولكن عبد الرحمن تمكن من التخلص من الحصار والقضاء على العلاء، وقطع رأسه ولفها في السواد شعار العباسيين والعهد والتفويض وأرسلهم إلى أبي جعفر المنصور، وكان يحج في مكة، وعندما وصله ذلك قال: "الحمد لله الذي جعل بيننا وبين مثل هذا من عدونا بحرراً"، وأطلق عليه اسم صقر قریش.

وعندما ولي المهدي خلفاً للمنصور سعى للتحريض عليه، فجهز دعاء عبد الرحمن بن حبيب المعروف بالصقلبي الذي عبر بأسطوله إلى الأندلس، وكان ذلك عام ١٦١هـ - ٧٧٨م، وأرسل المهدي إلى عامل برشلونة الذي كان يحقد على الداخل ويرى أنه أحق بالإمارة منه ويدعى سليمان بن يقظان، وانضم إليهم والي سرقسطة حسين بن يحيى، وكان شارلمان ملك الفرنجة يحشد جنوده لمهاجمة سرقسطة.

قام عبد الرحمن الداخل بإعداد جيش عظيم، وتمكن من القضاء على عبد الرحمن الصقلبي، فهاجم (بلنسية) وهي إحدى موانئ قرطبة^(٢) فأحرق السفن، ثم توجه إلى شمال الأندلس وتمكن من

(١) معجم البلدان.

(٢) معجم البلدان.

الاستيلاء. على سرقسطة وقتل واليهما حسين بن يحيى، وعندها استتب الأمر لعبد الرحمن الداخل، وأرسل إلى المهدي يخبره بما حدث ومثالب بني العباس^(١)، فأرسل إليه المهدي يذكر فيها مثالب^(٢) بني أمية.

تولى هارون الخلافة في عام ١٧٠ هـ، ونجده على عكس سابقه الذين لم يتعاونوا مع الفرنجة، فقد سعى هارون لتوطيد علاقته بشارلمان ملك الفرنجة، فاستقبل هارون بعثة من قبل شارلمان عام ١٨٣ هـ - ٧٩٩ م، ورد عليه ببعثة في عام ١٨٦ هـ - ٨٠٣ م، وبعد ذلك تبادل هارون وشارلمان البعثات والهدايا.

ويذكر بعض المؤرخين الأوربيين أن شارلمان هو الذي سعى إلى خطب ود هارون، وتوالى في إرسال البعثات، وذلك حتى ييسر على المسيحيين الحج وزيارة كنيسة القيامة بالقدس وحمائتهم، وكان هارون بذلك يروم كسر شوكة الأمويين بالأندلس.

أما المصادر العربية فتؤكد أنه عندما تعرض المسلمون بالأندلس إلى إغارة الفرنجة منذ قام هارون بإرسال جند من مصر إلى هشام بن عبد الرحمن الداخل بقيادة داود بن يزيد، وذلك لحسم خلاف وقع بينه وبين أخويه، حتى لا تضيع الأندلس، ولوقف أطماع الفرنجة.

ولايات المشرق:

خراسان:

قامت الدولة العباسية كما ذكرنا على أكتاف موالي فارس وبمساندهم، وعندما استتب لهم الأمر نقلوا دار الخلافة إلى العراق،

(١) القرطبي.

(٢) مثالب: الخصال السيئة.

وانصرفوا إلى بناء المدن، وأغدقوا عليها حتى صارت بغداد أغنى وأشهر بلاد المعمورة على الأرض في غناها وثرائها وترفها، وتركوا الولايات الأخرى ورعاياها في حالة من البؤس، وقد أساء معظم ولاة العباسيين معاملة الرعايا، واستخفوا بالكبار منهم، وراحوا يجمعون الأموال بحق وبدون حق، الأمر الذي جعل الكثيرين منهم يتمسكون بعقيدتهم الوثنية ودينهم المجوسي، وقد أدى ذلك إلى ظهور الطائفية والشعبوية، وحتى العرب الذين ظلوا في هذه الأنحاء كجنود وموظفين لا قوا الإهمال والعنت وعدم الاهتمام بهم، مما جعلهم ينضمون إلى الحاقدين على الخلافة العباسية.

ففي عهد المنصور ظهرت بوادر هذه الفتن عندما ناصر أهل خراسان أبا مسلم الخراساني ضد المنصور، وكان أبو مسلم يمثل القومية الفارسية، وقد امتدت هذه الفتن من خراسان إلى الري ونيسابور ومناطق الجبال، ويذكر أن كثيراً من أهل هذه البلاد قد ارتدوا عن الإسلام^(١) بسبب مقتل أبي مسلم الخراساني، وفي عام ١٣٨ هـ - ٧٥٥ م خرج جهور بن مراد على الخليفة، وقام بالاستيلاء على الخزائن، وخرج عن طاعة الخليفة^(٢)، فأرسل إليه المنصور محمد بن الأشعث الخزاعي الذي تمكن من القضاء على فتنه وقتله.

وفي عام ١٤٠ هـ - ٧٥٧ م قام بعض الجند من خراسان بالتمرد والعصيان، ونادوا بالدولة العلوية فأرسل إليهم المنصور ابنه الهادي ليقم بينهم بصفة دائمة حتى يتمكن من وأد الفتنة في مهدها، فقام الهادي بتشتيت شملهم، وأرسل جزءاً كبيراً منهم إلى الشام لمحاربة الروم هناك.

(١) العبر.

(٢) الطبري.

وكان أن أوصى الهادي ابنه المهدي بأن يعامل أهل خراسان معاملة خاصة، فقال له: إنهم أنصارك وشيعتك، والذين بذلوا أموالهم ودماءهم في دولتك، فلا تخرج محبتك من قلوبهم، وأن تحسن إليهم، وتتجاوز عن مسيئتهم، وتكافئهم عما كان منهم، ومع ذلك عندما قام أحد ولاة خراسان بالخروج عن طاعة الخليفة قام المهدي بالقبض عليه وقتله.

كانت خراسان أكبر الولايات الشرقية اتساعاً ونشاطاً ونفوذاً في زمن العباسيين، وكان ولايتها يسيطرون على جميع أقاليم المشرق، الأمر الذي جعلها محط أنظار الخلفاء العباسيين، وفي عصر هارون الرشيد تولى الولاية عليها "علي بن عيسى بن ماهان"^(١) وكان منذ صغره من أكبر الدعاة المؤيدين للدولة العباسية، ورغم أنه من موالي العجم إلا أنه كان يميل للعنصر العربي، فكان يعيب على أبي مسلم وبعض القادة الخراسانيين ازدراءهم للجنس العربي، مما جعل الخراسانيين يكرهونه وخاصة "الحسين بن مصعب" الذي أخذ يؤلب العجم عليه وعلى ولايته.

لم يكن علي بن عيسى يولي الموالي العجم اهتمامه، وأعمل فيهم السيف بحجة حماية الخلافة العباسية، وأخذ يجبي الأموال ويستجلب الهدايا، فقام الخراسانيون بإرسال شكاوى كثيرة لهارون الرشيد.

أرسل هارون الرشيد إلى علي بن عيسى يعيب عليه سوء إدارته وظلمه للرعية، حتى أن الرشيد همَّ بالذهاب إلى الري لعقابه، ولكن علي بن عيسى أسرع وأرسل إلى هارون بأنه سوف يعدل من سياسته، وأنه إنما فعل ما فعل للحفاظ على راية العباسيين مرفوعة

(١) المرجع السابق.

وكسر شوكة الخراسانيين، وبعد فترة عاد علي بن عيسى سيرته فأرسل هارون الرشيد هرثمة بن أعين وكتب له عهداً بولاية خراسان، وعندما وصل هرثمة إلى مرو عاصمة خراسان قبض على علي بن عيسى، وصادر أمواله التي كانت تفوق الحصر، وأرسل علي بن عيسى إلى الرشيد مقيداً.

وقد أدى ذلك إلى هدوء خراسان، وخرج أهلها يهللون ويكبرون ويدعون للرشيد.

بلاد ما وراء النهر:

كان علي بن عيسى أثناء ولايته على خراسان عيناً على بلاد ما وراء النهر وهي البلاد الواسعة المجاورة لخراسان خلف نهر جيحون، وكانت هذه البلاد فتحت في أيام الخلافة الأموية، "ولى علي بن عيسى العربي رافع بن الليث بن سيار"^(١) حفيد نصر بن سيار القائد الأموي، وكان ذلك عام ١٨٩هـ - ٨٠٥م.

علم هارون بهذا التعيين فتوجس خيفة من عودة سلطان الأمويين، فكان إرسال هرثمة مقدمة لحملة أعدها هارون لعزل رافع بن الليث عن هذه الولاية^(٢).

أسرع رافع واستنصر بالترك القريبين من هذه البلاد بعد أن كانوا قد ركنوا للهدوء أيام المهدي بعد أن دخلوا في الإسلام^(٣)، فقام رافع بقتل عامل هارون على سمرقند عام ١٩٠هـ واستولى على عدة مدن، وأصبح السيد المطلق والأمير على بلاد ما وراء النهر.

تمرد الترك على رافع وتركوا ساحة القتال، وتمكن هرثمة من فتح

(١) الطبري.

(٢) اليعقوبي.

(٣) الطبري.

بخارى وأسرَ أخًا لرافع، وكان ذلك عام ١٩٣هـ وسيرَه إلى طوس حيث لاقى هارون وكان في أواخر أيامه ويعاني من المرض، فأمر بقتله، وكان يهم بمتابعة السير خلف رافع إلا أن المنية وافته ومات هارون عام ١٩٣هـ - ٨٠٩م.

الديلم:

كانت موقعة فخ والتي تم فيها القضاء على النفس الزكية ومعظم العلويين قد فرّ منها إدريس، وذهب إلى المغرب الأقصى كما أسلفنا، وهرب "يحيى بن عبد الله" إلى بلاد الديلم، وهي البلاد المجاورة لطبرستان، وقام مسلمو الديلم بالالتفاف حول يحيى بن عبد الله وابعوه^(١) وأطلقوا عليه "المهدي"، وعندما ارتفعت رايته وقويت شوكته التفت حوله الشيعة من البلاد القريبة.

قام هارون بتكليف الفضل بن يحيى البرمكي في عام ١٧٦هـ - ٧٩٢م وأمده بخمسين ألفاً من الجنود الخراسانيين، وذلك للقضاء على يحيى بن عبد الله، وكتب له عهداً بولاية جرجان وطبرستان ليتمكن من مواجهة يحيى والديلم، وقبل أن يتحرك جيش الفضل كتب هارون لصاحب الديلم يطلب منه أن يُخرجَ يحيى من بلاده.

علم يحيى بهذه التحركات وخشي الموقف فقام بالكتابة إلى هارون بأنه يوافق على الخروج من بلاد الديلم والمثل بين يديه إذا ما أرسل إليه هارون بكتاب أمان، فأرسل هارون ليحيى بكتاب أمان وأرسل له الهدايا والنفائس، فقدم يحيى على هارون ببغداد، فلقيه ورحب به وأمده بالمال ووفر له مكاناً للإقامة آمناً.

وصل إلى هارون بأن بعض الخوارج والشيعة والديلم عادوا

(١) الطبري والفخري والعيون والنجوم.

للمناداة بإمامة يحيى بن عبد الله، فخشي هارون من ظهور الدعوة العلوية وعودتها، فأمر بحبس يحيى ووضعه في السجن مكبلاً في الحديد، ولكن جعفرًا البرمكي أطلق سراحه؛ الأمر الذي أغضب هارون، وكان ذلك أحد أهم أسباب انقلاب هارون الرشيد على البرامكة وهذا ما سنوضحه عندما نتكلم عن نكبة البرامكة.

عصيان أهل السند والترک

كان على أطراف فارس الشرقية وفي بلاد السند هناك ممالك مستقلة تعرف بمملكة "زابلستان" أو كابل^(١)، ولم يكن أهلها من العجم، بل من الترك والخلنج بالقرب من غزنه^(٢) وهم من المغول، وكان يحكم هذه البلاد الملك "رتبيل" والذي كان له صولات وجولات مع الدولة الأموية وقائدهم الحجاج بن يوسف الثقفي.

انتقل عداء ملوك كابل من الأمويين إلى العباسيين وذلك رغم دخول الكثير من أهل هذه البلدان في الإسلام، وكانت هذه البلاد على حدود سجستان وخراسان، وظلت الحروب دائرة بينهم، فتارة يخضعونهم، وتارة أخرى ينفلتون من تحت راية الدولة، وكان المنصور قد حاول إعادة فتح كابل عام ١٥٢هـ، وأثناء عصيان وفتنة النفس الزكية تمكن خلفاء رتبيل من الاستيلاء على سجستان.

وفي عهد هارون الرشيد تمكن الفضل بن يحيى البرمكي من فتح كابل والاستيلاء عليها وذلك عام ١٧٨هـ - ٧٩٤م، وبذلك تم القضاء على هذه المملكة، وقد مهد ذلك إلى عودة السيطرة العربية على بلاد السند.

(١) فتوح البلدان.

(٢) معجم البلدان.

عصيان الخرز:

كانت ولاية أرمينية من الولايات العباسية المرتدة من الجزيرة إلى جبال "القبق" ^(١) (القوقاز) والبحر والأسود وقزوین، وكان شعب الخرز يسكن شمال أرمينية، وحول بحر قزوین، وكان هذا الشعب ينحدر من الأصول البلغارية على نهر الفولجا، وقد هاجر إلى البلقان، ولهم لغة خاصة، لا هي بالفارسية أو التركية، وكان ملكهم يدعي "الخاقان" كملوك الترك.

كانت العداوة قائمة بين الخرز وبلاد أرمينية والتي كانت تتبع فارس قبل دخول الإسلام هذه المناطق، وعندما فتح العرب بلاد فارس وأرمينية حاولوا فتح بلاد الخرز، ووصلوا إلى عاصمتهم "بلنجر" ^(٢)، وفي عهد الدولة الأموية تزوج ملك الخرز بنت ملك الروم ^(٣)، واتحدا وتمكن الخرز من إعادة ملكهم، بل وصلت جيوشهم إلى الموصل في عهد هشام بن عبد الملك، وتمكن الأمويون من صدّهم وإعادتهم إلى حدود أرمينية، ولكنهم لم يتمكنوا من القضاء عليهم.

عاد الخرز لمعاودة غزو الأراضي الأرمينية في عهد الدولة العباسية، وذلك حين استغلوا انشغال العباسيين في القضاء على فتنة النفس الزكية عام ١٤٥هـ، ووصلوا إلى مدينة "تفليس" شمال أرمينية، وفي عام ١٤٧هـ أعادوا الكرّة وهاجموا أرمينية، وقتلوا الكثير من المسلمين، فأرسل المنصور حميد بن قوطبة عام ١٤٨هـ، وأمام هذه الحشود انسحب الخرز من تفليس ^(٤).

(١) معجم البلدان.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الكامل.

(٤) الطبري.

وفي عهد هارون الرشيد وفي عام ١٨١هـ وكان ملك الخرز قد تحول إلى الديانة اليهودية، وقد حمل شعبه على الدخول في الديانة اليهودية^(١)، وقد شكل هذا الأمر خطراً كبيراً على الدولة العباسية، غير أنه قامت حروب أخرى بين الخرز والبلغار الذين دخلوا في الإسلام، وحمل الترك على الخرز، وذاب شعب الخرز وانتشروا في روسيا، ولم يعد لهم ذكر بعد ذلك.

ظهرت بعض حركات العصيان في عهد هارون الرشيد ومنها الخارج "الوليد بن طريف الشاري الشيباني في نواحي نصيبين شمال الجزيرة" وذلك في عام ١٧٨هـ، وقضى عليه يزيد بن مزيد الشيباني.

وفي عام ١٨٠هـ ظهر بالموصل "العطاف بن سفيان الأزدي" فخرج إليه الرشيد، فأسرع العطاف بالخروج من الموصل في أربعة آلاف واتجه إلى أرمينية، وعندما وصل الرشيد إلى الموصل همّ أن يبطش بالموالين للعطاف، فتوسط العباس بن الفضل إلى أبي يوسف القاضي الذي أشار على الرشيد بأن فيهم أهل صلاح وقراء القرآن وأهل علم وفقه، فاكتفى هارون بهدم سور المدينة، وأمر المنادي فنادى في البلد أمن الأسود والأبيض إلا العطاف بن سفيان الأزدي، وعبد العزيز بن معاوية، والمعافى بن شريح وبردويه الرحبي، ويعلى الثقفي، وكانوا رءوس الفتنة^(٢).

ونرى من جملة هذه الأحداث التي وقعت في عهد هارون الرشيد، ومنها ما هو ممتد من الخلافة الأموية، أن هارون حاول جهده الحفاظ على سيطرة الخلافة العباسية على الولايات، ولجأ في ذلك إلى مختلف الأساليب، وأنه ما ببطش إلا بالمارقين ورءوس الفتن، فلم يهدر دم مسلم إلا بحق بعد تحقيق وثبوت الإدانة.

(١) صبح الأعشى ومعجم البلدان.

(٢) تاريخ المحصل، والأخبار الطوال.

تقوى الرشيد وإيمانه

كان الرشيد مرهف الحس شديد التأثر بكذا، روى الحديث عن أبيه وجده^(١)، وحدث عن المبارك بن فضالة، عن الحسن، عن أنس بن مالك، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ"^٢.

وكان يحج عاماً ويغزو عاماً، وقد استدعى إليه أبا معاوية الضرير ليسمع منه الحديث، فقال أبو معاوية: ما ذكرنا عنده حديثاً إلا: قال صلى الله عليه وسلم على سيدي، وإذا سمع فيه موعظة بكى حتى يبيل الثرى، وحدثه أبو معاوية يوماً عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة بحديث احتجاج آدم وموسى، فقال عم الرشيد: أين التقياً يا أبا معاوية؟ فغضب الرشيد من ذلك غضباً شديداً، وقال: أتعرض على الحديث؟ عليّ بالنطع والسيف، فأحضر ذلك، فقام الناس يشفعون فيه، فقال الرشيد: هذه زندقة، ثم أمر بسجنه، وأقسم أن لا يخرج حتى يخبرني من ألقى إليه هذا، فأقسم عمه بالأيمان المغلظة ما قال هذا له أحد، وإنما كانت هذه الكلمات بادرة مني، وأنا استغفر الله وأتوب إليه منها. فأطلقه.

وإذا كانت الغيرة على الدين والعقيدة من شيم الإنسان المؤمن الحق فإن غيرة الرشيد على الإسلام من شيم المسلم التقي الحق، وقد قال بعضهم: دخلت على الرشيد وبين يديه رجل مضروب العنق

(١) البداية والنهاية.

٢ - البخاري ومسلم.

حكم عليه بالموت، والسياف يمسح سيفه في قفا هذا الرجل، وعندما سئل الرشيد قال: قتلته لأنه قال: القرآن مخلوق، فقتله على ذلك قربة إلى الله عز وجل، وقال بعض أهل العلم: يا أمير المؤمنين، انظر هؤلاء الذين يحبون أبا بكر وعمر ويقدمونهما فأكرمهم يعز سلطانك، فقال الرشيد: أولست كذلك؟ أنا والله كذلك أحبهما وأحب من يحبهما، وأعاقب من يبغضهما، وقال له ابن السماك^(١): إن الله لم يجعل أحداً فوقك، فاجتهد أن لا يكون فيهم أحد أطوع إلى الله منك، فقال الرشيد: لئن كنت أقصرت في الكلام، لقد أبلغت في الموعدة^(٢).

دخل ابن السماك على هارون في مجلسه، فلما استوى طلب هارون السقاية فأتي له بقلعة فيها ماء مبرد، فقال لابن السماك: عِظْنِي. وكان هارون دائم الطلب للموعظة، قال ابن السماك: يا أمير المؤمنين، بكم كنت مشترياً هذه الشربة لو منعتهما؟ فقال: بنصف ملكي، فقال: اشرب هنيئاً، فلما شرب قال: أرأيت لو منعت خروجها من بدنك، بكم كنت تشتري ذلك؟ قال: بنصف ملكي الآخر. فقال: إن ملكاً قيمة نصفه شربة ماء وقيمة نصفه الآخر بولة لخليق أن لا يتنافس فيه. فبكى هارون.

وكان ابن السماك من الندامي والنصحاء المخلصين والزهاد الواعظين، قال يوماً للرشيد: إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتبعث منه وحدك، فاحذر المقام بين يدي الله عز وجل، والوقوف بين الجنة والنار، حين يؤخذ بالكظم وتنزل القدم، ويقع الندم، فلا

١ - ابن السماك: هو محمد بن صبيح أبو العباس الواعظ الفقيه. (النجوم الزاهرة).

٢ - البداية والنهاية.

توبة تُقْبَلُ ولا عثرة تُقَال، ولا يُقْبَلُ فداء بمال، فجعل الرشيد يبكي حتى علا صوته، فقال يحيى بن خالد له: يا ابن السماك، لقد شققت على أمير المؤمنين، فقام وخرج من عنده وتركه يبكي.

كتب ابن السماك إلى الرشيد يعزبه بابن له: أما بعد، فإن استعظمت أن يكون شكرك لله حين قبضه أكثر من شكرك له حين وهبه فإنه حين قبضه أحرز لك هبته، ولو سلم لم تسلم من فتنته، أرايت حزنك على ذهابه وتلهفك لغرامه، أرضيت الدار لنفسك فترضاها لابنك؟ أما هو فقد خلص من الكدر، وبقيت أنت معلقاً بالخطر، وأعلم أن المصيبة مصيبتان إن جزعت، وإنما هي واحدة إن صبرت، فلا تجمع الأمرين على نفسك^(١) وداوم مصاحبة أولي الفضل والسماع لهم، فالمدائمة على الاتصال بهم من صفات المؤمنين.

وكان الرشيد قد حافظ على الصلة بينه وبين أولئك النفر الذين شهد لهم بالورع والتقوى ومنهم: الفضيل بن عياض العالم الجليل والناصح الأمين، وكان اللقاء الأول بينهما بأمر القرى "مكة المكرمة"، وحينها عرض عليه الرشيد ورفض، ومنذ ذلك الحين زادت أواصر الصلة بينهما.

قال الفضيل يوماً لهارون مذكراً واعظاً: يا صبيح الوجه، أنت مسئول عن هذه الأمة كلها، وقد قال الله تعالى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ} ^(٢)، ويقصد بذلك تذكير أمير المؤمنين وخليفة المسلمين بأنه مسئول عن رعاياه، وأنه القدوة والمثل، ويوم القيامة يوم يذهل كل امرئ بما أصبح عليه،

(١) عيون الأخبار.

(٢) البقرة: ١٦٦.

وكل إنسان يحاول التبرؤ من سابقه ولاحقه، ويتمنى أن لو كان له كرة، يومها بكى الرشيد حتى شهق^(١).

ومن أقوال الفضيل بن عياض للرشيد: حساب الخلق كلهم عليك، فبكى الرشيد وبكى الفضيل.

حدث الأصمعي عن شبيب بن شيبة قال: كنا في طريق مكة، فجاء أعرابي في يوم صائف شديد الحر ومعه جارية سوداء ومعه صحيفة، فقال: أفيكم كاتب؟ قلنا: نعم، وحضر غداؤنا، فقلنا: لو دخلت وأصبت من الطعام؟ قال: إني صائم، قلنا: في الحر وجفاء البادية! فقال: إن الدنيا كانت ولم أكن فيها، وستكون ولا أكون فيها، ولا أحب أن أغبن أيامي، ونبذ لنا الصحيفة وقال: اكتب ولا تزد على ما أقوله حرفاً:

هذا ما أعتق عبد الله بن عقيل الكلابي، أعتق جارية له سوداء يقال لها لؤلؤة ابتغاء وجه الله تعالى وجواز العقبة^(٢)، وإنه لا سبيل له عليها إلا سبيل الولا، المنة لله عليها وعليه وحده.

قال الأصمعي: فحدثت الرشيد فأمر أن يعتق عنه ألف نسمة أو مائة نسمة، ويكتب لهم هذا الكتاب^(٣).

وكان الرشيد يوقر آل البيت ويعظمهم ويجلهم لحبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، دخل على رجل من الأنصار يدعى نفيح، حضر باب الرشيد ومعه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وحضر موسى بن جعفر على حمار له، فتلقاه الحاجب بالبر والإكرام، فأعظمه من كان هناك وعجل له بالإذن، فقال نفيح لعبد العزيز: من

(١) البداية والنهاية، وتاريخ بغداد.

(٢) {فلا اقتحم العقبة، وما أدراك ما العقبة، فك رقبة} (البلد، ١١، ١٢، ١٣).

٣ - عيون الأخبار.

هذا الشيخ؟ قال: أوما تعرفه؟ قال: لا، قال: هذا شيخ آل أبي طالب، هذا موسى بن جعفر، قال نفيح - وهو غير نفيح بن مسروح الصحابي الجليل -: ما رأيت أعجب من هؤلاء القوم، يفعلون هذا برجل يَقْدِرُ أن يزيلهم عن السرير، أما لئن خرج لأسوءنه، فقال له عبد العزيز: لا تفعل؛ فإن هؤلاء أهل بيت قلما تَعَرَّضَ لهم أحد في خطاب إلا وسموه بالجواب سمة يبقى عارها عليه مدى الدهر. وتلك الحادثة دليل على إكرام الرشيد لآل البيت في شخص موسى بن جعفر.

قال الرياشي: قال الأصمعي: دخلت على الرشيد وهو ينظر في كتاب ودموعه تنحدر على خديه، فظللت قائماً حتى سكن، وكان منه التفاتة فقال: اجلس يا أصمعي، رأيت ما كان؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: أما والله لو كان لأمر الدنيا ما رأيت هذا، ورمى بقرطاس فإذا فيه شعر لأبي العتاهية بخط جليل فيه:

هَلْ أَنْتَ مُعْتَبِرٌ بِمَنْ خَلَيْتَ	مِنْهُ عَدَاةٌ مَضَى دَسَاكِرُهُ
وَبِمَنْ أَذَلَّ الْمَوْتُ مَصْرَعَهُ	فَتَبَرَّاتٌ مِنْهُ عَشَائِرُهُ
وَبِمَنْ خَلَّتْ مِنْهُ أَسْرَتُهُ	وَبِمَنْ خَلَّتْ مِنْهُ مَتَابِرُهُ
أَيْنَ الْمُلُوكِ وَأَيْنَ غَيْرُهُمْ	صَارُوا مَصِيرًا أَنْتَ صَائِرُهُ
يَا مُؤَثِّرَ الدُّنْيَا بِلذَاتِهِ	وَالْمُسْتَعِدَّ لِمَنْ يُقَاخِرُهُ
قُلْ مَا بَدَا لَكَ أَنْ تَنَالَ مِنَ الْ	دُنْيَا فَإِنَّ الْمَوْتَ أَخْرَهُ

ثم قال الرشيد: كأني والله أخاطبُ بذلك دون الناس، فلم يلبث بعدُ إلا يسيراً حتى مات.

وقال الصولي: حدثنا عبد الرحمن بن خلف، حدثني جدي الحصين بن سليمان الضبي، قال: سمعت الرشيد يخطب فقال في خطبته: حدثني مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن أنس بن مالك،

قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ"، وحدثني محمد بن علي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن علي بن أبي طالب قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "نَظَفُوا أَفْوَاهَكُمْ فَإِنَّهَا طَرِيقُ الْقُرْآنِ" (١).

أكدت معظم المصادر الموثوقة بأن هارون الرشيد لم يكن زاهداً في الدنيا لدرجة التنسك والتعبد والعزلة، وكذلك لم يكن فاجراً عربيداً، فقد كان يحج عاماً ويغزو عاماً، وفي السنة التي لا يحج فيها كان يتكفل بثلاثمائة حاج في النفقة والكسوة، وقد قام بالحج ماشياً، وتكبد عناء السفر وهو خليفة وأمير المؤمنين، ويقال أنه كان يصلي في اليوم مائة ركعة إلى أن فارق الحياة (٢).

ويروى أنه بينما كان الرشيد يطوف في البيت الحرام إذ عرض له رجل فقال: يا أمير المؤمنين، إنني أريد أن أكلمك بكلام فيه غلظة، فقال الرشيد: لا، ولا نعمت عيني، قد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني، فأمره أن يقول له قولاً ليناً (٣).

وعن شعيب بن حرب المدائني قال: بينما أنا في طريق مكة إذ رأيت هارون الرشيد فقلت في نفسي: قد وجب عليك الأمر والنهي، فقالت لي: لا تفعل فإن هذا الرجل جبار، ومتى أمرته ضرب عنقك، فقلت لنفسي: لا بد من ذلك، فلما دنا مني صحت:

يا هارون، قد أتعبت الأمة وأتعبت البهائم. فأمر الرشيد به، فقال: من الرجل؟ فقلت: رجل من المسلمين، فقال: ثكلتك أمك، من أنت؟ فقلت: من الأنبار غرب بغداد، فقال الرشيد: ما حملك على

(١) تاريخ الخلفاء..

(٢) البداية والنهاية، وتاريخ بغداد، وتاريخ الخلفاء..

(٣) البداية والنهاية.

أن دعوتني باسمي؟ قال شعيب: فورد على قلبي كلمة ما خطرت قط على بال، فقلت له: أنا أدعو الله باسمه فأقول: يا الله، يا رحمن، أفلا أدعوك باسمك، وما ينكر من دعائي باسمك، وقد رأيت الله تعالى سمي في كتابه أحب الخلق إليه: يا آدم، يا نوح، يا هود، يا صالح، يا إبراهيم، يا موسى، يا عيسى، يا محمد، وكنى أبغض الخلق إليه فقال: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ}، فقال له الرشيد: أخرجوه، أخرجوه. فَأُخْرِجَتْ^(٢).

كان الرشيد عائداً من الحج إلى بغداد وعرج على الكوفة فقابل "بهلولاً" وكان عقله يذهب ويعود، فحاول أن ينصح الرشيد وقد حاول الربيع إسكاته، فقال الرشيد: قل يا بهلول، فقال:

هَبْ إِنْ قَدْ مَلَكْتَ الْأَرْضَ طَرًّا وَدَانَ لَكَ الْعِبَادَ فَكُنْ مَاذَا
الْبَيْتِ عِذَا مَصِيرُكَ جَوْفَ قَبْرِ وَيَحْتَوِ عَلَيْنِكَ هَذَا ثُمَّ هَذَا

قال الرشيد: أجدت يا بهلول، أفغيره؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين، من رزقه الله مالاً وجمالاً، فعف في جماله وواسى في ماله، كتب في ديوان الله من الأبرار. فظن الرشيد أنه يريد شيئاً، فقال: إنا أمرنا بقضاء دينك. فقال: لا تفعل يا أمير المؤمنين، لا يقضى دينٌ بدين، اردد الحق إلى أهله، واقض دين نفسك من نفسك.

قال الرشيد: إنا أمرنا أن يجري عليك رزق تفتات به، قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإنه سبحانه لا يعطيك وينساني، وها أنا قد عشت عمراً لم تُجِرْ عليّ رزقاً، انصرف لا حاجة لي في جرايتك.

١ - المسند:١.

(٢) البداية والنهاية ووفيات الأعيان.

قال الرشيد: هذه ألف دينار خذها.

قال: ارددها على أصحابها فهو خير لك، وما أصنع أنا بها؟
انصرف عني فقد أذيتني.

فانصرف الرشيد وقد تصاغرت عنده الدنيا^(١).

حج الرشيد عام ١٨٨هـ وكانت آخر حجة له^(٢) وفيها لاقى
الفضيل، وعندها قال الفضيل بعد لقاء الرشيد: لو أن لي دعوة
مستجابة لجعلتها للإمام، لأن به صلاح الرعية، فإذا صلح أمنت
العباد والبلاد^(٣).

ظهر في خلافة بني العباس الكثير من الزنادقة، وكان هارون
الرشيد أكثر بني العباس محاربة لهم وشديد الوطأة عليهم، وقد أنشأ
ديواناً خاصاً لملاحقتهم واستئصال شأفتهم، وقد أوصى ولديه فقال:
من يصر إليه الأمر (الخلافة) فليتجرد لهذه العصابة - يعني أصحاب
ماني - فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش
والزهد في الدنيا والعمل للأخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس
الماء الطهور وترك قتل الهوام تخرجاً وتحويلاً، ثم تخرجها من هذا إلى
عبادة اثنين أحدهما النار والآخر الظلمة، ثم تبيح نكاح الأخوات
والبنات، والاعتسال بالبول، وسرقة الأطفال من الطرق لتنفذهم من
ضلال الظلمة إلى هداية النور، فارفعاً فيها الخشب وجرداً فيها
السيف، وتقرباً بأمرها إلى الله لا شريك له، فأني رأيت العباس في
المنام قلدني بسيفين، وأمر بقتل صاحب الاثنيين.

ذاك هو هارون الرشيد الذي كان يحج عامًا ويغزو عامًا، وكان

(١) البداية والنهاية.

(٢) مروج الذهب.

(٣) تاريخ بغداد.

يلاحق العلماء أينما كانوا يوقرهم ويخدمهم ويجلهم، ويجالسهم،
ويسمع منهم، ويغدق عليهم، يجلس آل بيت النبوة، وحارب الزنادقة
والملاحدين الذين برزوا يحاربون دولة الإسلام.

مظاهر الترف والثراء في عهد هارون الرشيد

قامت الدولة العباسية ونشأت قوية واسعة الأرجاء تمتد من نهر السند إلى المحيط الأطلنطي، وتشمل بلاد السند والشمال الغربي من الهند، وبلوخستان وأفغانستان والتركستان، وبلاد فارس (إيران) وأرض الجزيرة، وأرمينية، والشام، وفلسطين، وقبرص، وكريت، ومصر، وشمال أفريقية، وأسبانيا المسلمة والتي رفضت الخضوع لسلطة الخليفة العباسي.

وعندما آلت الخلافة في الدولة العباسية إلى منشئها أبي العباس وجد أن أرض الشام لم تعد صالحة لتكون دار الخلافة (دمشق)، ووجد أن الكوفة دائمة القلاقل وأرض الثورات والانقلابات، فاختر مدينة الأنبار الواقعة في شمال الكوفة ونقل إليها دار الخلافة.

وبعد أن انتهى أبو العباس (السفاح) من توطيد حكمه، وكانت الكثرة الغالبة ممن رفعوه إلى العرش من الفرس (العجم) أصبح بلاطه ممتزجاً ببعض التقاليد الفارسية، وقد سعى أولئك الموالي إلى دس هذه التقاليد الفارسية في الحياة الاجتماعية الإسلامية وخاصة داخل قصور الخلفاء، وجاء من بعده خلفاء استخدموا ثروات البلاد المتزايدة في مناصرة الفنون والآداب والعلوم والفلسفة، وقد أثمرت محاولتهم وأينع الثمار في عصر هارون الرشيد، وكان البرامكة خير مثال لهذه الثمار.

خلف أبو جعفر المنصور أبا العباس وكان أخوه من الأب، ولكن أمه كانت جارية من البربر، وكانت أمهات جميع الخلفاء العباسيين السبعة والثلاثين إلا ثلاثة منهم من الجواري، الأمر الذي جعل من عادة الخلفاء اتخاذ السراري، وكان أبو جعفر المنصور لا يُؤسّر بجمال النساء، ولم يكن يدمن الخمر، وكان يناصر الأدب والعلوم والثقافة، واهتم بتنظيم إدارات الدولة، وكان يشرف بنفسه على إدارة دولا الدولة، وتمكن من القضاء على مظاهر الفساد الحكومي من رشوة واستغلال نفوذ، مما ساعد على زيادة توطيد أركان الدولة.

دام حكم المنصور اثنين وعشرين عاماً، كان خلالها حاكماً عادلاً، ولكنه لم يتمكن من تقليص التقاليد الفارسية التي غزت الحياة الاجتماعية الإسلامية، وظهر ذلك جلياً عند اختيار مدينة بغداد لتكون عاصمة الخلافة، وقد حاول أن تكون بغداد رمزاً يؤكد قوة وسلطان العباسيين، فبنى قصر الخلافة الذي عرف بقصر الذهب، أو باب الذهب^(١)، حيث كان له باب مطعم بالذهب، أو قصر القبة الخضراء حيث كانت تعلوه قبة عظيمة خضراء وكانت من أهم معالم بغداد، وقد أنفق المنصور أموالاً طائلة في بناء مدينة بغداد، وتوالى عليها الخلفاء العباسيون إلى أن جاء عهد هارون الرشيد وقد صارت بغداد أعظم مدن العالم ثراء ورخاء.

المجتمع في عهد الرشيد

كان الأمويون أول من سكن القصور من العرب، وكان ذلك قبل دخولهم الإسلام، حيث كان بنو أمية لهم الضياع والقصور بأرض الشام، واستمروا على ذلك حين آلت إليهم الخلافة، ولذلك اختاروا دمشق عاصمة للخلافة الأموية، ولكنهم لم يغيروا من عاداتهم

(١) معجم البلدان.

كشيخ للعرب، وحرصوا على التقاليد العربية، ولم تكن للتقاليد الرومانية المتاحة لهم أي أثر على عاداتهم وتقاليدهم، وعندما قامت الدولة العباسية بعضد الموالي (الفرس) وعلى أكتافهم، وكما قلنا كانت لديهم الرغبة في دمج التقاليد الفارسية في الحياة الاجتماعية الإسلامية، فانقاد الخلفاء العباسيون لهم وتأثروا بهم.

ظهر الإسلام في بيئة بدوية خشنة، والعقيدة الإسلامية وسنة النبي صلى الله عليه وسلم لا تبيح من متع الحياة غير ما يبيحه الشرع، فكانت حياة المسلمين الأوائل بتمسكهم بروح الدين الإسلامي وتقاليد المجتمع العربي، وعندما اتسعت أرجاء الدولة الإسلامية اتصل العرب بالبيئات المغايرة لعاداتهم وتقاليدهم، الأمر الذي فرض عليهم التجانس مع هذه المجتمعات الحديثة، وكان الاستقرار النسبي للعرب وزيادة حركة التجارة والثروات المتدفقة على مراكز الخلافة، كل ذلك كان له أثر كبير في ظهور حياة اجتماعية زاهية عند المسلمين بوجه عام والخلفاء على وجه الخصوص.

كان الأمن والاستقرار والثراء سبباً في ظهور طبقة من الأثرياء الذين انصرفوا إلى حياة الأبهة والترف^(١)، وصار رجال الدولة القادرون والولاة وأصحاب النفوذ والأثرياء يتسابقون في إظهار ثرائهم في بناء القصور واقتناء النفائس، والتشبه بالحياة الاجتماعية للأمم المجاورة من الفرنجة والفرس، في الحياة الارستقراطية، وقد تميزت هذه الحياة بثلاث أمور:

أولاً: الحريم: وجمعها حرائم، وتعني كل ما يتحرم به ويُمنع منه ويدافع عنه، أو أهل صاحب البيت من نساء وأطفال ولو كانت امرأة واحدة، وقد انتقل هذا المفهوم إلى عموم المسلمين، وكان حريم البيت

(١) البغدادي: تاريخ بغداد.

من النساء هن الزوجات والإماء والجواري أو القيان (المغنيات والراقصات) والوصائف والمولدات والسراري، وكانت القصور متخمة بالنساء وكن متعددات الجنسية ومن أمم كثيرة، وزدن بحيث أصبح ثلث سكان بغداد من الأعجميات والكرديات والروميات والمغربيات والمصريات وحتى النصرانيات^(١).

ومما يذكر أن أبا العباس الخليفة الأول لم يكن له غير زوجة واحدة هي أم سلمة، والخليفة المنصور ظل متزوجاً من امرأة واحدة هي أم موسى الحميرية ولعشر سنوات حتى ماتت^(٢)، ثم تزوج وبدأ الاستكثار من الزوجات المهائز^(٣) وخاصة من الجواري، وكثرن بحيث أصبح لهن مشرفة تعرف باسم قيّمة الجواري.

ويجب الإشارة إلى أن تعدد الزوجات وما ملكه الرجال من الجواري مسموح به في الدين، وإن لم يكن قاعدة عامة؛ لأن الاحتفاظ بعدد كبير من النسوة لا يتفق وأذواق الناس ولا إمكاناتهم المادية؛ حيث إن المهر وتقديم الهدايا كان يثقل عامة الناس، ولكن كان هناك سبب شرعي آخر، حيث إن عدد النساء كان يفوق عدد الرجال، الأمر الذي يوجب وجود عائل لهن يحفظهن من البغاء والتشرد.

ثانياً: الخصيان أو الأخصياء أو الطواشى أو الخدم، ويعود استخدام هذه الفئة إلى معاوية^(٤) وقد نقلها عن الروم والبيزنطيين الذين كانوا يخصصون الرجال التي تعمل في أديرة النساء، وكان اليهود والنصرانيون يروجون لهذه التجارة، حيث إن الإسلام يحرم ذلك، وكان معظمهم

(١) الطبري - الإدريسي.

(٢) الطبري.

(٣) المهائز: هن الحرائر أصحاب المهور.

(٤) الطبري والجاحظ

من أصل صقلبي أو تركي أو فارسي أو هندي أو حبشي أو نوبي أو سوداني.^(١)

ثالثاً: الغلام وجمعها الغلمان، ومؤنثها الجارية، وهي أيضاً مأخوذة عن البلاط البيزنطي، ولم يكن الأمويون يتخذون الغلمان في خدمة القصور والبيوتات، ولكن في العصر العباسي زاد استخدامهم في قضاء المهام داخل القصر وخارجه، وكان يطلق عليهم الخدم، ولكن مع ظهور حركة الزندقة التي كانت تدعو إلى الفجور والفسوق والتحليل وارتكاب كل المعاصي وإتيان كل محرم، زاد استخدام الغلمان المرد حتى أن هارون رمى بالغلمان (اللواط)، وقد نفى عنه معظم المؤرخين^(٢) هذا، وترجع هذه الفرية إلى البرامكة وصنائعهم الذين أرادوا الانتقام من الرشيد، فقد كان الرشيد وابنه المأمون يقتدون بسنة الخلفاء الراشدين في الورع والتقوى والعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

رابعاً: الرسوم

الحفلات أو الاحتفالات وهي المناسبات الدينية والاجتماعية، وهي مظاهر ذات دلالات وعلامات تظهر الثراء والترف وقوة الدولة، ومنها العام والخاص.

كان الأمويون يحتفلون بالأعياد الدينية مثل ليلة رأس السنة الهجرية والمولد النبوي الشريف وليلة النصف من شعبان، وغرة رمضان وليالي العيد، وكانت احتفالات بسيطة وهادئة، أما في العصر العباسي وخاصة في عصر هارون الرشيد فقد اتخذت هذه الاحتفالات أشكالاً جديدة، وظهرت المواكب (موكب الخليفة) التي تشير إلى قوة

(١) الحيوان للجاحظ.

(٢) الطبري وابن خلدون.

الدولة وفرض سلطانها وما هي عليه من رخاء وثراء، وعمل الموالي من الفرس وغيرهم على الزج بالاحتفالات القومية والاحتفالات ذات الصبغة الدينية التي كانت تقام قبل الإسلام في مصر وفارس والعراق والسند، ومنها عيد الربيع وأول السنة الشمسية (النيروز) أي اليوم الجديد، وهي من أكبر الأعياد الفارسية، وكان يحتفل به في كثير من الأمصار التي دخلت الإسلام ومنها مصر وبابل، وفي زمن الدولة العباسية احتفل بعيد المهرجان في الشتاء^(١)، وقد شجع البرامكة على الاحتفال بالأعياد القومية والدينية الفارسية، وذلك للحفاظ على التراث الفارسي، وكان الفرس في هذه الأعياد يقومون بتقديم الهدايا للحكام والولاة.

مواكب الحج:

واهتم العباسيون بموكب الحجيج، وجعلوه يوم عيد، وخاصة إذا كان الخليفة سيقوم بالحج، وقد حافظ خلفاء العصر العباسي الأول على الحج فكان هارون الرشيد يحج عاماً بعد عام^(٢)، ويذكر أن بعد هارون لم يحج خلفاء من العباسيين ولا الفاطميين، ولا من خلفاء دولة الأندلس، وحتى بعد سقوط بغداد على يد المغول^(٣)، وإن حج أحد الخلفاء فلا يحج علناً، ولكن موكب كسوة الكعبة دام واستمر حتى الخلافة العثمانية.

وأول من اهتم بكسوة الكعبة المشرفة هو المهدي، وكان حجبتها يذكرون للمهدي أنهم يخافون على الكعبة من أن تهدم لكثرة ما عليها من كسوة تراكمت عليها عبر السنين، فأمر بإزالة ما عليها من

(١) صبح الأعشى، والبيروني، والجاحظ.

(٢) الطبري، وابن خلدون، والمقرئزي، ومروج الذهب.

(٣) الطبري.

كسوة حتى أصبحت مجردة فقام بطلاء البيت كله بالخلوق (نوع من الطيب)، وكساها كسوة جديدة من الحرير والديباج^(١)، بعد أن كانت كسوة الكعبة من القماش اليماني أو القبطي المصري.

كان الأمويون يرسلون كسوتين للكعبة، أما في العصر العباسي فكانت ثلاثاً، ويغلب عليها اللون الأسود شعار العباسيين، وكان موكب الكسوة يخرج من بغداد في احتفال مهيب يحضره الخليفة وآل بيته والولاة والقادة وكبار القوم والحاشية وعامة الشعب.

ويذكر أن المهدي قد أمر بإزالة المقصورة الموجودة بالحرم النبوي، وكان الأمويون قد أقاموها بجوار المنبر^(٢)، بقصد حماية الخلفاء، وكانت قاصرة على الخلفاء والحاشية، وكانت تستخدم أحياناً للمشورة، ولكن المهدي أمر بإزالتها اتباعاً لسنة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين؛ حيث لم يكن هناك فاصل بين الخلفاء والرعية وليس بينهم حجاب.

وقد اهتم العباسيون بالطرق الموصلة للأراضي الحجازية^(٣)، فقاموا ببناء استراحات على طول الطريق إلى مكة والمدينة، وقام أبو جعفر المنصور بزيادة النزل والاستراحات والقصور^(٤)، ثم جاء هارون فأقام السرادقات^(٥)، ووضع فيها الأثاث لتوفير سبل الراحة للحجاج، وزودها بأنواع الطعام والشراب طوال موسم الحج والعمرة، ويذكر أن (زبيدة) زوجة هارون عرفت بأن هناك عين ماء تنبع من جبل يبعد

(١) الديباج: كلمة فارسية معناها: لباس الروح، وهو قماش لامع تقليد للحرير الصيني.

(٢) المقرزي، وابن خلدون.

(٣) العبر.

(٤) الطبري.

(٥) ابن قتيبة، والطبري.

عن مكة ثلاثين ميلاً، فأمرت وقام المهندسون بثقب الجبل ونحت الصخور وعمل ممرّ مائي يصل العين بمكة، كما أمرت بعمل لافتات توضح معالم الطريق والمسافات، كما أمرت بحفر عدد من الآبار، ومخزات السيول ومحابس لمياه الأمطار.

كان موكب الحج -ويطلق عليه الركوبات- من أهم المواسم أو الرسوم في العصر العباسي، فكانت الدولة بخليفتها وموظفيها وجيشها ورجال الأسطول تخرج إلى الشارع أمام أعين الشعب فتطلق البخور وتعلو الصفافير وتضرب الصنوج وتقرع الطبول، وذلك لإظهار قوة الدولة، وكان الخليفة في العصر الأموي والعباسي يلبس (البردة) والتي كانت للنبي صلى الله عليه وسلم.

وكان مجيء موكب الخلفاء العباسيين إلى أرض الحجاز يعتبر عيداً، وكان هارون الرشيد إذا لم يحج حج ثلاثمائة بدلاً منه، وكان يكفل قافلة الحج، حتى إنه كان يوفر لها الثلج^(١) وكان الخلفاء العباسيون يكثرون من العطايات حين كانت هناك عطايا ثابتة تأتي أهل مكة والمدينة بانتظام من مصر والعراق واليمن، وكانت مصر لا ترسل عطاياها أموالاً فقط، وإنما كانت ترسل القمح^(٢)، وكان ديوان العطاء بالمدينة^(٣) ويذكر أن المهدي قسم في عام حج فيه على أهل مكة والمدينة ثلاثة ملايين درهم، وفرق من الثياب مائة وخمسين ألف ثوب، وبلغ العطاء غايته، وزاد في عصر هارون الرشيد حتى أنه في أحد الأعوام حج الرشيد وسمي عام الأغطية الثلاثة^(٤) لأن هارون

(١) الطبري.

(٢) الجهشباري؟؟؟.

(٣) الطبري.

(٤) الطبري، والجهشباري، والفخري.

أعطى والأمين أعطى والمأمون أعطى، وزادت عليهم زبيدة زوجة هارون وأعطت مليون دينار.^(١)

وكان الخلفاء العباسيون إذا وصلوا إلى المدينة نزلوا دار العمالة وهي دار جدهم العباسي، وقد أخذها عن مروان وسميت دار مروان^(٢)، وكانت هذه الدار بها حجرة لجلوس الخليفة عرفت بحجرة القبة العظمى، بها قبة عالية وأروقته مغطاة بالستور، وكان الخليفة يجلس على بساط دون وسائد ولا مصلى إمعانا في التواضع.

المواكب والمهرجانات^(٣)

كان الخلفاء العباسيون يتحركون في بغداد في المواسم والأعياد والمهرجانات في مواكب يطلق عليها (الركوبات) وكان الخليفة يصحب معه أهل بيته وحوله كبار حاشيته، ويعرضون أنفسهم على عامة الشعب^(٤)، لتأكيد سلطانهم وكان ذلك من التقاليد الفارسية والبيزنطية (الرومانية)، وفيه يلبس الجميع يلبس زياً رسمياً موحداً - أسود اللون - وعليه اسم الخليفة، وكان العباسيون يمنحون موظفيهم كسوة تسمى (خلعة) وكان هارون هو أول من أطلق الخلعة لرجال الدولة، واقتدى به من جاء بعده من الخلفاء في العاصمة والولايات الإسلامية الأخرى، وقد اهتم العباسيون بحسن هيئة أهليهم وعمالهم، لإظهار أثر النعمة والثروة عليهم.

استقرت الدولة العباسية، ومنذ أيام المنصور تخلى الخلفاء عن العمائم والتي كانت تعرف بأنها تيجان العرب وغطاء الرأس القومي

(١) النجوم.

(٢) الطبري.

(٣) المهرجانات: كلمة فارسية معناها مهرجان وهو عيد فارسي.

(٤) الطبري.

عندهم، وقد تأثر العباسيون في ذلك بملوك وسلاطين الدول المجاورة، فأصبح غطاء الرأس (القلانس)^(١)، وهي سوداء اللون تلبس على شاسيه من الشاش، وكانت قلنسوة الرشيد يطلق عليها (الطويلة) لفرط طولها أو: رصافية، نسبة لبلد الصنع، وتثبت فيها جوهرة كبيرة، وكتب على رصافة هارون (غازي وحاج) وذلك دلالة على كثرة حجه وطول جهاده.

أما أهل الفقه والقضاة، وطبقة بني هاشم من أقارب الخليفة، فكانت قلانسهم يطلق عليها (الدينيات) جمع دنية، وهي محددة الأطراف منشأة بالسواد، وكان ضمن الاحتفالات حفلات الجلوس، وهي حفلات استقبال، والتي كانت تقام بقصور الخلافة، وكانت تقام بقاعات خاصة تسمى بالإيوان، كما عند الفرس.

وكانت هذه القاعات غاية في الفخامة، وكان الخلفاء منذ معاوية يجلسون على عرش مرتفع مصنوع من الذهب وعليهم الرسوم والكتابات، وكان يعرف بالسرير أو سرير الملك، والتخت أو كرسي أو المنبر^(٢)، وكان في ذلك يشبه عرش فارس أو الدولة الرومانية، كما كانت تقام في قصور الخلافة الولايم في المناسبات والأعياد الدينية والقومية، وكانت هذه الموائد تخلو من المشروبات المسكرة، وفي عهد الرشيد وعلى مذهب الإمام أبي حنيفة فقد شرب الخلفاء ووضعوا على موائدهم نوعاً من النبيذ الحلو وشراب الشعير، وأنواعاً أخرى من عصير العنب والبلح والعسل، كما كانوا يقدمون القهوة، وعرف العرب شرب الشاي المنعنع.

(١) الطبري، وابن خلدون.

(٢) مقدمة ابن خلدون.

التسليية:

ومن أهم مظاهر التسليية عند العباسيين مسامرة الرجال، وهو ما يعرف بالندوات^(١) وهي تشبه الصالونات عندنا، وكان يجتمع في هذه الندوات أهل العلم والمعرفة والأدب والثقافة، وكانت هذه الندوات لا تقتصر على قصر الخليفة، وإنما كانت تعقد في بيوت الوزراء والأغنياء.

وكان أبو العباس يحب السمر^(٢) ومجالسة أهل العلم بغرض الازدياد، وكذلك كان المنصور الذي كان ينصح أبناءه بألا يجلسوا إلا ومعهم من أهل العلم نفر، أما الرشيد فقد كان من فحشاء العرب وعلمائهم^(٣)، بحيث إن البرامكة مع ذبوع صيتهم في العلم كانوا أشبه بالجهلة في حضرته^(٤).

وكان الرشيد يميل إلى مجالسة الفقهاء وأهل العلم والأدب والشعراء، فكان يجالس أبا نواس وأبا العتاهية من الشعراء، وكان يجالس الأصمعي في اللغة، وأبا يوسف تلميذ أبي حنيفة في الفقه، والواقدي في التاريخ، فكان يأخذ من الجميع ويعطي، فازدهر عصره بكل الفنون وارتفعت فيه العلوم.

وقد شغف العباسيون بالشعر والغناء كغيرهم من العرب، حيث كان الشعر والغناء من عادات العرب، وتمتد هذه الجذور إلى عصر الخلفاء الراشدين، وكانت قرى الحجاز تشتهر بوجود أمهر المغنيين^(٥)،

(١) الأغاني.

(٢) مروج الذهب.

(٣) الفخري.

(٤) العقد الفريد.

(٥) الأغاني.

ثم جاء الأمويون بعدهم وشجعوا الغناء في عواصمهم الصحراوية ورحلاتهم، فكانوا يستحضرون إليها المغنين من الحجاز ويغدقون عليهم العطاء، فلما جاء العباسيون وكان الترف والثراء انتعش سوق الغناء والسمر والشعر، وأصبحت بغداد مصدراً من مصادر المغنين والشعراء إلى قصور الخلافة في الشرق والغرب، وقد اشتهر الغناء في عصر هارون وأكثرهم من أصل فارس^(١) ومنهم إبراهيم الموصلي أو النديم، وابنه إسحق الموصلي، وزرياب، وابن جامع^(٢)، ودنانير البرمكية جارية يحيى بن خالد البرمكي^(٣).

وكانت قصور العباسيين لا تخلو من السميريات^(٤)، وهن القيان البارعات في فنون الغناء والرقص، ولم تكن قصور العباسيين تخلو من وجود (المضحك)^(٥)، وذلك نقلًا عن الساخر في البلاط الفارسي، والمهراج في البلاط البيزنطي، فكان لأبي العباس مضحك يدعى أبا دلامة، وقد ظهر أواخر العصر الأموي وهو من الموالي، وعاد المضحك يظهر مرة أخرى في عصر الرشيد.

وقد عمد البرامكة إلى وجوده في قصر هارون، إما للتجسس عليه أو إلهائه عما يفعلون، أو لإحياء التقاليد الفارسية، وكان مضحك الرشيد (ابن أبي مريم المدني)^(٦)، ويذكر أنه بينما كان هارون في صلته يقرأ: {وَمَا لِي لَأَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}٧، فقال له

(١) الأغاني.

(٢) العقد الفريد.

(٣) الطبري.

(٤) الأغاني.

(٥) ابن خلدون.

(٦) الطبري.

٧ - يس: ٢٢.

ابن مريم: لا أدري والله، فغلب الضحك على هارون، وعندما انتهى من صلاته التفت إليه مغاضباً وقال: إياك إياك والقرآن والدين، ولك ما شئت بعدها.

وكان العباسيون يتسلون بالصيد، وتقام له رسوم على عادة الفرس والعرب، وكانوا يلجأون إلى القنص بالطيور الجارحة مثل: البزة أو الكلاب^(١) أو الفهود، ويقال: إن المهدي قد مات في إحدى رحلات الصيد^(٢)، وكانت هناك بعض الألعاب الرياضية وألعاب الفروسية وسباق الخيل، وسباق الحمام.

لقد كان العصر العباسي الأول عصر الازدهار والثقافة والثراء والرفاهية والمتعة، وكان عصر هارون الرشيد أزهى العصور، بل أزهى عصور دولة الإسلام منذ قيامها وحتى الآن، ومن حياة القصور في بغداد أخذت قصص ألف ليلة وليلة وليالي بغداد بعد أن خلطت الحقائق بالأساطير، ليُظهر أعداء هارون الرشيد عصره بعصر الزندقة والمجون وتغلب الشهوات، ومما سبق يتضح أن البرامكة والموالي كانوا يعمدون إلى هذا الخلط بين الثقافة العربية الأصيلة وبين التقاليد والثقافة الفارسية القديمة، والله في خلقه شئون.

(١) . الطبري، ومروج الذهب، وابن خياط.

(٢) الفخري.

ازدهار المجتمع في عهد الرشيد

كانت دولة الإسلام في عهد الرشيد قد وصلت إلى ذروتها في الاتساع، وصارت دولة الرشيد واسعة الأرجاء، وتمتد بين نهر السند إلى المحيط الأطلنطي، وجمعت من الأجناس العرب والفرس وأهل الشام والترك وأهل السند والبلغار والتركمان والمصريين والبربر، واختلفت هذه الشعوب من حيث الثقافات والمذاهب الدينية والعقائد، في ظل الدين الإسلامي، ومن العقائد الوثنية الزرادتشية والهندوكية والماجوسية، ومن الديانات السماوية المسيحية واليهودية.

ولم يكن لهذا المجتمع أن يتعايش ويتناغم دون سماحة من الدين الإسلامي، وقوة من الحاكم، وفرض الأمن بتطبيق العدل واستتاب الحكم وعموم الرخاء، وكانت الدولة في أشد الحاجة لجمع شتات هذا الخليط المتفرق والمتباين من الأجناس والثقافات والمذاهب، وعدم التمييز فيما بينهم وعدم قهرهم، وتغليب عنصر على آخر، إلا أن حدوداً ضيقة تسمح بها الظروف الاجتماعية.

كان الإسلام قوياً قبل أن يتفرق أهله إلى شيع متقاتلة متنافرة، كان خلفاء العصر العباسي رغم قسوتهم وقوتهم لا يعمدون إلى الإذلال والتحقير وقهر النفوس وكبت الحريات، وجاء عصر الرشيد ليستن سنة جديدة ألا وهي الحكم الذاتي لكل ولاية مع حرية التعبير وإبداء الرأي، وبذلك جمع الشمل ووجد الصف، وقضى على الخلافات المذهبية والانقسامات الجغرافية والميول السياسية، فابتعد

بذلك عن العنصرية وأفسد دعاوى الشعبية.

اهتم هارون بالزراعة ووفر الإمكانات المادية والفنية للحفاظ على الثروة الزراعية بأن توسع في حفر الترع والقنوات، وحافظ على نظام الري القائم، وتطهير المصارف وإقامة الحراسات، فزادت الموارد وكان لذلك أثر كبير في الاكتفاء والرخاء رغم زيادة عدد السكان، فزادت الجباية دون إرهاق وعسف وظلم، فكان الفلاحون والصناع والتجار يكسبون ويبت المال يجني، فكان ذلك حافزاً على العمل وزيادة الإنتاج.

صاحب هذا النمو والرخاء استتاب الأمن وعدم قيام ثورات أو حركات تنهك الحاكم، ففرغ هارون إلى الشئون الخارجية، وزاد النشاط التجاري والسياسي والحربي.

فعلى الصعيد التجاري كانت حركة التجارة بين الولايات الإسلامية وغيرها تنعم بالأمن، فتناقلت القوافل بطول البلاد وعرضها في حرية تامة، حتى أنهم كانوا يتاجرون مع الصين وأوروبا الغربية، أما عن النشاط السياسي فكان هناك نشاط داخلي ونشاط خارجي، ففي الداخل حافظ الرشيد على أن يكون الولاة رغم استقلاليتهم يدينون بالولاء للخليفة وأن يكون حكمهم تحت راية الإسلام، وقد ساعد ذلك على وحدة الأمة، وعلى الصعيد الخارجي كانت السفارات بين دولة الرشيد وإمبراطور الصين وإمبراطور الروم شارلمان، وكانت قوة هذه السفارات والزيارات من القوة والأبهة المكتسبة من قوة الدولة العسكرية التي أخضعت الولاة الحاكمين وردعت الغزاة الطامعين وأسكتت الغلاة الشاردين.

كانت دولة الإسلام في عهد الرشيد قد خطت خطوات واسعة في سبيل النمو الحضاري الذي يقوم على دعائم أساسية منها صلاح

الحاكم، وحسن الإدارة، ووفرة الموارد وإقامة العدل، وصلاح الرعية والعمل الجاد واستتباب الأمن، وكل هذه العوامل قد توافرت في عصر هارون الرشيد، وعندما تبذل الجهود صادقة تتحول الموارد الطبيعية إلى ما ينفع الناس ويؤدي ذلك إلى النمو والازدهار.

وعندما يشعر المجتمع بمردود هذه المنافع ينشط الزارع، يهد الأرض ويحراثها ويزرعها ويحني زرعها ويحصد غلالها، ويعتني البستاني بالحدائق والكروم ويربي النحل والدواجن والطيور، وتقوم المرأة بدورها في الحياة الريفية إما بالصناعات اليدوية أو الأعمال المنزلية، ورعاية النشء، وفي الغابات يكون الصياد والحطاب، وفي الوديان والسهول يكون الراعي والقصاب، وفي شعاب الجبال وبين الصخور يكون التنقيب عن المعادن، وفي باطن الأرض التي تحوي من الكنوز الكثير يكد الحفار مستغرقاً في عمله تحت وهج الشمس، وعلى الطرف الآخر من المجتمع المنتج يكون البناء الذي يقيم العمائر والقصور والبيوت، ويغار منه الصانع فتكون العدد والآلات وصناعة السفن والمركبات، فيموج المجتمع وينشط، هذا هو المجتمع المنتج الذي يستمد قوته من إدارة واعية فاعلة.

اهتم هارون الرشيد بتوفير الأموال اللازمة لكل ذلك فكانت المدارس التي ألحقت بالجموع بدون رسوم ليتعلم الفقير والغني، بذل هارون العطاء للعلماء والمعلمين والنساخ والمترجمين، فكانت هناك علوم الدين ملازمة لعلوم الدنيا، وأصبح هناك تنافس بين علماء كل فريق على حدة، فتوفر العلماء في كل الفروع الدينية والعلمية وظهر فيهم النبوغ.

لا يخلو مجتمع ناهض وأمة متحضرة من الأدباء والمثقفين والشعراء والنابغين في كل فروع الفن من موسيقى وغناء، ولم يألُ الرشيد

جهداً في الاهتمام بكل هذه الطوائف وتعهدهم وأجزل لهم العطاء..
نشط المجتمع الإسلامي وتضافرت كل الجهود للنهوض به،
يعلمون معنى كلمة الحضارة أو لا يعلمون، ينشدون رفعة الخليفة
أو يمكرون، يُعون التقدم بين الأمم أم يجهلون، تلك الطوائف
الكادحة العاملة الصابرة التي حملت فوق أكتافها قيم الحضارة،
كانوا جادين في عملهم في خلافة الرشيد، وأثناء تكاثر الأموال وقوة
البنية، والأمر الذي أدى إلى تحول في الحضارة الإسلامية، وعمل على
بزوغ في نجمها، وما كان هذا التحضير وهذا الجهد يؤتي ثماره دون
إيمان قوي بهدف أسمى وجزاء أبدي خالد يتجسد في العمل الصالح
طاعةً لله وأولي الأمر.

ميز الله الإنسان بنعمة إعمال العقل والتدبر في شئون الكون،
ووهبه من الغرائز ما يساعده على أن يقيم أوده بالغذاء ويعمر الكون
بالتناسل، ويأمن عاقبة أمره بالتوبة والعمل الصالح، والمسلم الحق
المؤمن بالله يعلم أن إشباع غرائزه الدنيوية، والصبر على شهواته
يتطلبان منه الجهد الكبير، والإنسان المؤمن يشغل تفكيره ويحكم
تدبيره، وكان المسلمون الأوائل متعلقين بخالقهم يتدبرون قرآنه
ويتبعونه ويحتكمون إليه، وينهجون سنة نبيهم ومبادئه الأخلاقية،
ويعملون بشرع الله، وكان الخلفاء على اختلاف طبائعهم يقيمون
دولتهم على أسس دينية لا تتعارض مع فطرة الإنسان التي جعل
عليها.

ومبادئ الإسلام هينة لينة على الإنسان العاقل السوي، قاسية
عاصية على ذوي النفوس الضعيفة والقلوب السقيمة، فأى إنسان إذا
ما طبق القواعد الشرعية الاجتماعية: حب لأخيك ما تحب لنفسك،
ولا ضرر ولا ضرار، والدين لله والوطن للجميع، ما سرق ولا نهب

ولا ظلم ولا قتل ولا كره ولا تعصب، ولا اغتصب، ولساد المجتمع السلام الاجتماعي الذي يهدف إليه الإسلام.

والمؤمن المسلم يحفظ حق الجار ويؤمن بالجنة والنار، ويرغب بالثواب ويخشى العقاب، ويعرف أن هناك ملائكة طاهرين وشياطين غاوين، ويؤمن بأنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، هذا الإيمان وهذه الاعتقادات تجعل المجتمع كالبنيان المرصوص.

هذا هو المجتمع المسلم الذي ساد في عصر الرشيد، وما كانت لهذه الدولة أن تصل إلى ما وصلت إليه دون هذا السلوك القويم، وعندما يشبع الإنسان غرائزه الحية في الغذاء والنساء والجاه والسلطان والأموال والبنين، فإما أن يكون شاكراً وإما أن يكون كافراً، فنجد أن هارون الرشيد قد شن حرباً شعواء على الزنادقة الملحددين، وقضى على الكثيرين منهم، وأعاد الباغين لحظيرة الإيمان.

وقد شاع في المجتمع الإسلامي في دولة الرشيد التسامح الديني بين الطوائف وأصحاب المذاهب المختلفة من مسيحيين وزردتشتيين ووثنيين ويهود، الأمر الذي أدى إلى دخول الكثير من أصحاب هذه الديانات في الدين الإسلامي، وقد ساعد التزام التجار المسلمين بشرائع الدين الإسلامي إلى نشر الدعوة بين المجتمعات الأخرى، فانتشرت العقائد والعبادات والسنن، حيث كانت القاعدة الشرعية بأنه لا فرق لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، دعوى لنبذ العنصرية والطائفية والشعوبية، فما كان يظهر منها إلا اللمم.

الزنادقة

ارتبط لفظ الزنادقة أو الزنديق بالعصر العباسي وخاصة عصر هارون الرشيد، وهو لفظ يحمل كثيراً من الدلالات السيئة والغير أخلاقية، ولها الكثير من المرادفات منها المجنون والإلحاد واللواط والكفر، وهو لفظ يشير إلى كل الرذائل التي يرتكبها الإنسان.

ظهرت حركة الزندقة مع بداية العصر العباسي على يد الفرس المتأسلمين والمناهضين للعرب وسيطرتهم على العجم، الأمر الذي أدى إلى وجود صراع يظهر حيناً ويختفي أحياناً، وقد عرفنا أن الدولة العباسية قامت على أكتاف العجم من أهل فارس (الخراسانيين).

يقضي كتاب الله وسنة نبيه بأنه لا فرق لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وأن المسلمين أمة واحدة، يسودها العدل والانسجام، فكان أبو العباس ومن بعده المنصور يعملان على إيجاد توازن بين العرب والعجم، وإن استعمل كل منهما الشدة ضد أحد الطرفين، ولكن ذلك كان عملاً على توطيد أركان الدولة والقضاء على حركات العصيان وإبطال الفتن، وكان القضاء على تمرد أبي مسلم الخراساني أحد أهم وأقصى الضربات التي وجهت إلى العجم.

وجاء الخليفة المهدي، وعلى عكس الخليفين السابقين، فقد أحاط نفسه بالعجم الذين بسطوا نفوذهم على إدارات الدولة من الوزارة إلى إمرة الجيش^(١)، وعظم نفوذهم فأصبحوا يتدخلون في شئون القصر،

(١) الطبري.

وقد أدى ذلك إلى ظهور الأطماع وشيوع المؤامرات.

وكان للنساء دور هام في تسيير شئون الدولة العباسية، وعرفت النساء العباسيات بقوة الشخصية، فأبو العباس السفاح على جبروته وقوته كان يشاور زوجته "أم سلمة"^(١)، وزوجة المنصور اشترطت عليه عدم الزواج عليها، وقد وفى بذلك، ولعل ذلك من طبيعة نساء بني هاشم.

وفي عهد الخليفة المهدي كانت "الخيزران" والتي كانت جارية من العجم أعتقت، ثم تزوجها المهدي في عام ١٥٩هـ، وهي أم الهادي وهارون، وقد ظهر تعصبها للعجم وسيطرتها على شئون الدولة؛ حيث أصبح مجلسها ينافس مجلس الخليفة الذي أطلق يدها في العطاء والمنع، وكانت الوفود تغدو وتروح على قصرها، ومع نفوذها زاد غناها وعمرت خزائنها، وامتد نفوذها إلى ما بعد وفاة زوجها، ودخلت في صراع من أجل السلطة مع ابنتها الهادي إلى أن قُتل.

وقد أدى زيادة نفوذ العجم في عهد المهدي إلى ظهور تيار عربي أراد أن يقلص دور العجم ويستميل الخليفة، وظهر ذلك واضحاً في عهد هارون الرشيد عندما تمكن من القضاء على البرامكة.

كانت هذه المقدمة ضرورية للتذكير بالوضع السياسي للدولة العباسية والصراع الفكري بين العرب والعجم، والذي يسعى كل منهما لفرض أسلوب ونمط حياة وتغليب ثقافة على أخرى ولو كان في إطار إسلامي.

كان ازدياد نفوذ العجم في عهد المهدي سبباً في تسرب بعض فكرهم الديني وموروثهم الثقافي إلى المعتقدات الإسلامية، وقد يكون

(١) مروج الذهب.

ذلك ناتجاً عن قصور في فهم حقيقة الدين الإسلامي، أو عن قصد وتعمد للمحافظة على ماضي الحضارة الفارسية، وقد ساعد على تمدد هذه الحركة (الشعوبية) أن الخليفة المهدي اعتبر أتباع الماجوسية أهل كتاب شبه سماوي^(١)، وعاملهم معاملة أهل الذمة (اليهود والنصارى)، وكانت بعض المناطق في فارس باقية على دينها القديم، فظهرت الملل والنحل والبدع الغربية عن الدين الإسلامي.

ومع بدايات عهد المهدي كانت الدولة الإسلامية قد اكتسبت بعداً سياسياً وثقافياً، وظلت في نمو مطرد يصحبه نمو اقتصادي وصل ذروته في عهد الرشيد، فكان الثراء والترف وزيادة نفوذ العجم ومحاولاتهم فرض الثقافة الفارسية القديمة، ومنها الإلحاد والزندقة.

عرف الإلحاد عند المسلمين الأوائل بلفظ الزندقة^(٢)، وأطلق على الملحد زنديق، وجمعها زنداقة، وهي كلمة فارسية تطلق على من يتبع "الزند"^(٣)، وهو نوع من التفسير، فيه تأويل ومعان باطنة تعتمد على تأويل بعض الأصول، وقد اعتبر المفكرون المسلمون^(٤) ومنهم الجاحظ أن الزندقة ما هي إلا العودة إلى شريعة الفرس البائدة وإخفاء الكفر بالإسلام.

وترتبط الزندقة بنحلتين فارسيتين كانتا مضطهدتين في دولة فارس قبل الإسلام، أولهما النحلة التي دعا إليها ماني ٢١٥م، وهو أحد دعاة الفرس، وهو الذي سعى لإحياء الماجوسية الفارسية القديمة القائلة بالنور والظلمة، أو الخير والشر، وادعى بأن رسالته تخلص الإنسانية

(١) الفخري.

(٢) لسان العرب، عبد الرحمن بدوي الإلحاد في الإسلام.

(٣) الزند: شرح لكتاب الفرس المقدس (الإفستا).

(٤) الجاحظ والغزالي.

من دنس المادة بالبعد عن الغرائز والملذات ومقاطعة النساء، وإنهاك الجسد بالصيام والصلاة والتساييح، وكان يؤمن بتناسخ الأرواح، وأن ذات الإله تتقمص الإنسان، كما هي معتقدات بعض أهل الإمامة.

والنحلة الثانية هي المزدكية الفارسية، نسبة إلى "مزدك"^(١)، الذي يسميه العرب مزدق، وظهر عام ٤٨٨م بعد قرنين من ظهور "ماني"، وكان يتبع خطى ماني إلا أنه زاد بشيوع الموارد من الأموال والنساء والخدم والأمتعة، وقد مال إليه كثيرون من أهل فارس، واعتبروه نبياً^(٢) ويذكر أنه ادعى النبوة.

كان المذهب الماني يدعو إلى مقاطعة النساء وإنهاك الجسد الأمر الذي يؤدي إلى خراب الكون الذي خُلِقَ الإنسان لتعميره واستمرار الحياة والتمتع بمباهجها وبما أحله الله لعباده، وكان مذهباً يعتمد على التأويل وعدم الاعتداد بالنص الصريح في الدين الماجوسي، فقام بهرام الأول الملك الساساني بصلب ماني وحرق كتبه ومطاردة أتباعه.

وكان مذهب "مزدك" يدعو إلى الشيوع واختلاط الأنساب وتحريم ملكية الفرد، كيف وقد جعل الله فينا الغني والفقير، وجعلنا فوق بعض طبقات، وكل طبقة لها من الحقوق كما عليها من واجبات، وتفاوت الطبقات أحد أهم أدوات التعمير، إذ كيف يستعمل الناس بعضهم بعضاً وهم متساوون ومتشاركون في كل شيء، وهذا التفريط حتماً يؤدي إلى خراب العالم، لذا نجد أن "خسرو الأول" تصدى لهذا المذهب وقتل مزدك وقاتل أتباعه.

(١) اليعقوبي والثعلبي والرازي.

(٢) الرازي.

شاع المذهب الماني خارج حدود فارس، ووصل إلى الهند والصين^(١) في الشرق وبلاد ما وراء النهر والتركستان في الشمال، وإلى اليمن جنوباً، وتوغل بين بطارقة كنيسة روما^(٢) والكنيسة البيزنطية (الرهينة في المسيحية) حتى أن الدولة البيزنطية حاربت المانية واعتبرتها "هرطقة"^(٣).

لم يتم القضاء على هذين المذهبين، واستترا رديحاً من الزمن يعمل أتباعهما في الخفاء، وعندما زالت دولة الفرس عادا إلى الحياة والظهور في كنف المسلمين وتسامح الخلفاء، وكان بعثهم سريعاً وواضحاً، حتى أن أتباع المجوسية القديمة الذين لم يدخلوا في دين الإسلام دانوا بهما^(٤)، وقد ساعد ذلك في تسرب بعض عقائدهم إلى فكر الموالي المسلمين، الأمر الذي جعل العباسيين يحاربون هذه العقائد الهدامة.

كانت المانية دعوة ظاهرها الرحمة وباطنها الشرك والإلحاد، كما كانت المزدكية تدعو إلى الإباحية والانحلال ونكاح المحارم من الأخوات والبنات وشرب الخمر، فأطلق على معتنقها الماجن^(٥)، وارتبط الصنفان كل منهما بالآخر (الزنديق - الماجن).

وفي العصر العباسي الأول انطلقت هذه الفئة تستبيح أموراً قد حرمها الإسلام وشاعت في بلاد فارس، حتى أن المنصور أوصى ابنه المهدي بمحاربة هذه الفئة الضالة فقال له: أوقع بالملحدين، واقمع المارقين، وقابل الخارجين بالعقاب. وقد صار على هذا النهج جميع

(١) اليعقوبي والرازي.

(٢) العصر العباسي الأول د/ عبد المنعم ماجد.

(٣) إسحق عبيد، روما وبيزنطة.

(٤) الرازي.

(٥) الطبري.

الخلفاء العباسيين، الأمر الذي جعل هذه الفئة تنسحب من المجتمع الإسلامي بعد أن أنشأ المهدي (ديوان الزنادقة) وعهد به إلى ولي سمي (صاحب الزنادقة) ^(١)، وتصدى لهم ابن حنبل صاحب أحد المذاهب الأربعة، وواصل بن عطاء (صاحب مذهب المعتزلة) - مذهب الدولة العباسية في عصرها الأول.

ويذكر أن خلفاء العباسيين استغلوا مقاومة الزنادقة في التخلص من أعدائهم، كما حدث في عهد المهدي واتهامه لوزيره أبي عبيد ^(٢) وابنه وعزله وقتل ابنه، وفي عهد هارون الرشيد، وكانت الظاهرة قد شاعت بين البرامكة، فاتهم الرشيد بالزندقة، وكانت من أسباب نكبتهم ومطاردتهم والقضاء عليهم، وكذلك فعل المعتصم مع قائده الأفسين.

أصبحت الزندقة في الشرق الإسلامي تماثل الهرطقة في الغرب المسيحي، واتهم بها الموالي الذين بدأ نفوذهم يزيد، ونسب لبعض المفكرين منهم والأدباء تهمة الزندقة، ومحاولة إفساد الفكر الإسلامي واللغة العربية، ودس الأحاديث النبوية، والتي تخفف من التكاليف في العقيدة الإسلامية، الأمر الذي أدى إلى ظهور علم الكلام للتصدي لما ظهر من تأويل وموضوعات تخالف الشريعة، ومواجهة الحركة الشعبية التي همَّ بها العجم، وصارت كلمة زنديق تطلق على من يتأثر بعادات وثقافة العجم أو يعتنق ديانتهم أو يدعو إليها، ومنهم المقنع، وقد تحدثنا عن حركته التي تمت في عهد المنصور واشتدت في أيام المهدي، وكان يبشر بعقائد الفرس القديمة، ومزج بينها وبين العقائد الإسلامية، وأسقط التكاليف مثل الصلاة والزكاة والحج ^(٣)،

(١) الطبري - النجوم الزاهرة.

(٢) الفخري، العيون.

(٣) الشهرستاني والفخري.

ولاقت هذه الدعوة ضربات ساحقة من المهدي، فهرب إلى بلاد ما وراء النهر، واتخذ من بخارى مركزاً له، حيث وجد الكثير من الموالين من الفرس والترک وبعض القبائل المنغولية^(١).

كانت الزندقة والمجون آفة العصر العباسي الأول، وكان لها أثر كبير في الثقافة الإسلامية، والفكر والأدب والشعر والغناء، وكان بشار بن برد وهو من العجم رُمي بالزندقة، وقد أمر المهدي بجلده، وكذلك كان حماد الذي قتله عامل البصرة، ومن أشهر الزنادقة الشاعر أبو نواس الذي ظهر في عهد الرشيد وصاحبه قبل أن يرميه الرشيد بالزندقة^(٢).

عمد أعداء الرشيد من البرامكة وغيرهم إلى الربط بين الرشيد وأبي نواس، وجعلوا منه نديمه والمقرب إليه ليلصقوا بشخصية هارون المجنون والتحلل والانحلال في ظل الترف والثراء.

(١) البلاذري معجم البلدان.

(٢) الحيوان، ووفيات الأعيان.

البرامكة

كان يحيى بن خالد بن برمك مؤدب الرشيد ومعلمه وأول من بشر الرشيد بالخلافة، فلما ولي الرشيد عرف له حقه وفوض إليه أمور الخلافة، وكان رجلاً كريماً فصيحاً، سديد الرأي واسع العلم، ولكنه اصطدم في أول الخلافة بالخيزران أم هارون.

كان هارون صغير السن لم يتجاوز الاثنتين وعشرين عاماً، وكان دمث الخلق وديعاً، ويعلم شغف أمه بالسلطة والنفوذ، ويذكر الطبري أن الخيزران أصبحت هي الناطرة في أمور الخلافة، وإيوانها ديوان الحكم، فكان رأيها النافذ وحكمها الواقع، ولمدة ثلاث سنوات حتى ماتت الخيزران عام ١٧٣هـ - ٧٨٩م.

منذ هذا التاريخ صار هارون هو الحاكم الفعلي للخلافة ويحيى البرمكي صاحب الرأي والشورى، لم يكتفِ يحيى بأن يكون صاحب التأثير الوحيد على هارون، ولكنه أشرك معه أسرته التي عرفت في التاريخ باسم (البرامكة).

تعود أصول أسرة البرامكة إلى موالي قبيلة (الأزد) العربية، و(برمك) تعني رئيس بيت سدنة النار لمعبد قرب (بلخ) - إحدى مدن خراسان - بني على هيئة الكعبة، وكانت تحيطه الأراضي الخضراء، وقد ظلت هذه الأراضي ضمن أملاك البرامكة حتى بعد إسلامهم.

ويذكر البلاذري أنه كان يطلق على هذا المعبد اسم (النوبهار)

وهي كلمة هندية، واسم برمك من اللغة السنسكريتية، وما زال الفرس يذكرون أن البرامكة من نسل ملوك الفرس المعروفين بملوك الطوائف وهم (البارتيون) الذين حكموا فارس قبل الساسان، ويذكر البلاذري أن هذا المعبد قد هدم وتلاشى في زمن معاوية بن أبي سفيان سنة ٤٢هـ - ٦٦٣م.

ويذكر أن دعوى الشعوبية وإعلاء الجنس الفارسي، قد اتخذت عدة أشكال منها المباشر والتي تمثلت في حركات العصيان مثلما فعل أبو سلمة الخلال، والغير مباشر كما فعل أبو مسلم الخراساني، والمقنع وغيرهم، ومنها الحركات السرية، وكلها تهدف إلى السيطرة على أمور الحكم وتسييس الدولة، وإدخال المعتقدات الفارسية القديمة في الإسلام، وكانت آخرها حركة الزندقة ونشر المفاصد عن طريق الشعر الماجن، وإشاعة الرذيلة.

حاول خالد بن برمك ربط أسرته إلى أصول عربية وأنه من الأرومة العربية كما حاول أبو مسلم الخراساني، فانضم إليه وخاض معه حروبه ضد الدولة الأموية حتى تم الأمر للعباسيين، وما أن استتب الأمر للعباسيين حتى قام أبو العباس بتعيين خالد البرمكي في الدواوين^(١) وبعد مصرع أبي سلمة الخلال تم تعيين خالد ليقوم بعمله وزيراً، واستمر في عمله في عهد المنصور، وكان له دور كبير في القضاء على بعض الفتن التي قامت في أوائل عهد الدولة العباسية، منها القضاء على نفوذ المصمغان^(٢) بطرستان، وأقام فيها مدينة باسم المنصور، وقضى على فتنة الأكراد^(٣)، كذلك كان خالد

(١) ديوان الخراج.

(٢) ابن الفقيه.

(٣) الطبري والعبر.

بن برمك من الذين أشاروا على المنصور ببناء بغداد^(١)، وبعد المنصور عمل خالد ضمن حاشية المهدي، وتوفي خلال خلافته عام ١٦٥هـ، ويعتبر خالد من أعظم أسرة البرامكة^(٢).

بدأت علاقة يحيى بن خالد البرمكي بالعباسيين في عهد المنصور الذي ولاه على أذربيجان وأرمينية في عام ١٥٨هـ، وفي خلافة المهدي عهد إليه بأمر نفقات العسكر، وأصبح ذا حظوة كبيرة، حتى أنه جعله مريباً و كاتباً لابنه هارون الرشيد^(٣)، وعندما ولي هارون الرشيد ولياً للعهد وأصبح والياً على أذربيجان وأرمينية والمناطق العربية، فعين المهدي يحيى على ديوان الرسائل، وخرج مع هارون في حملاته ضد الروم.

كان يحيى يروم الخلافة للرشيد فعمل مع الخيزران على أن يسبق هارون الهادي إلى الخلافة، ولكن آلت الخلافة إلى الهادي، وكانت خلافة الهادي قصيرة، وفي عام ١٧٠هـ آلت الخلافة إلى هارون الرشيد، وقام يحيى بمشاورة الرشيد في اختيار الولاة، وهو الذي كتب إلى الولاة والعمال بأن الرشيد أصبح الخليفة وأمير المؤمنين.

أصبح يحيى بن خالد البرمكي وزيراً لهارون الرشيد، واعترافاً من الرشيد بفضل يحيى عليه في النشأة والتربية وسعيه الدائب لوصول الخلافة إليه كان يدعوه (يا أبت)، وفوض له الوزارة وقال له: لقد قلدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنقني إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، واعزل من رأيت، وأمض الأمور على ما ترى. وبذلك فوض الرشيد ليحيى في الحل والعقد،

(١) وفيات الأعيان والنجوم.

(٢) مروج الذهب للمسعودي.

(٣) الطبري.

وصار منصبه جامعاً للسيف والقلم.

استعان يحيى البرمكي في حكم الخلافة بأبنائه، وكان يعرف عن البرامكة حسن السياسة والإدارة وهي صفات اكتسبها أباً عن جد^(١)، فولى يحيى أبناءه أكبر الولايات بما فيها مصر، وكان يعينهم دون الرجوع إلى الخليفة، فتمكنوا من السيطرة على الخلافة من المشرق إلى المغرب خاصة بعد وفاة الخيزران، فكانت لهم ولأشباعهم الولايات والوظائف الهامة، وأصبحت الدولة الإسلامية عباسية بالاسم برمكية بالفعل - كما قال ابن طباطبا - فوطن ابنه الأكبر الفضل بن يحيى على الجبال وخراسان وأذربيجان وأرمينية وما تبعهم من الأقاليم الشرقية^(٢) وذلك ما بين عامي ١٧٦هـ إلى ١٨٠هـ وجيَّش له جيشاً من الخراسانيين قوامه خمسمائة ألف رجل^(٣)، وقام الفضل خلال هذه الفترة ببعض الفتوحات، وأقام المباني والمدن في هذه النواحي، كما مكن ابنه جعفرأ من الولاية على الجزيرة والشام ومصر والأقاليم الغربية المتاخمة، فقام ببعض الجولات الحربية وعمل على تقليص نفوذ العرب في الشام ومصر، أما ابنه موسى فكان يلازم أباه ويعهد إليه بالأمر الخطيرة، وكان همزة الوصل بين الوالد وبنه في المشرق والمغرب.

كان هارون الرشيد في مقتبل عمره، وكانت حدود دولة الإسلام مترامية الأطراف ويصعب السيطرة عليها إلا من خلال رجال أكفاء متمرسين في السياسة وأمر الحكم، الأمر الذي جعل هارون يدفع ليحيى البرمكي بخاتم الخلافة، فأصبح يحيى صاحب وزارتين، إذا

(١) نظام الملك.

(٢) الفخري.

(٣) العيون، والبداية والنهاية، والطبري.

اعتبر أن الخاتم وديوانه وزارة منفصلة عن باقي مهام الدواوين الأخرى.

جعل يحيى البرمكي خاتم الخلافة بين يدي ولديه الفضل وجعفر^(١)، حتى كان جعفر بن يحيى يسمى الوزير الصغير، وبعد أن تقدم بيحيى السن قام ابنه جعفر بمهامه ولقب بالسلطان^(٢) وذلك إشارة إلى هيمنته على شئون الدولة، وما كان يفرقه عن الخليفة إلا الحجابة، وهي القيام على باب الخليفة، وقد بلغ من النفوذ أنه شارك الخليفة في نقش اسمه على العملة.

كان أفراد أسرة البرامكة يتمتعون بثقافة عالية، وجمعوا بين أصولهم الفارسية وثقافة الهند وسماحة الإسلام، وكانوا على معرفة تامة باللغتين العربية والفارسية، حتى قال الجاحظ عنهم: البلاغة لم تستكمل إلا فيهم، ولم تكن مقصورة إلا عليهم، ولا انقادت إلا لهم^(٣)، فقد وصف يحيى البرمكي بأنه ذو علم ومعرفة^(٤)، أما جعفر فقد تتلمذ على يد الفقيه أبي يوسف^(٥) وبرع في البلاغة، كما قال ابن عبد ربه في العقد الفريد^(٦).

كذلك تمكن يحيى البرمكي وأبناؤه من تكوين ديوان مواز لديوان الحكم، وتمكنوا من استقطاب أهل الفنون والعلوم والمثقفين، وجعلوا لهم ندوات تبحث فيها الأمور الفقهية^(٧) مثل: هل الإمامة بالنص أو

(١) الطبري، والفخري.

(٢) ابن خلدون، والأصفهاني، والألقاب الإسلامية لحسن باشا.

(٣) العقد الفريد فيما نقل عن الحافظ.

(٤) مروج الذهب.

(٥) النجوم.

(٦) ابن خلدون في مقدمته.

(٧) مروج الذهب.

بالاختيار، والقدر خيره وشره، وقدم العالم، وكان البرامكة ممن يتذوقون الشعر ويقرضونه، وكانت لهم مجالس السمر والغناء، وكانوا يصدقون على الشعراء والمغنين والمغنيات مثل دنانير وإسحاق الموصلي، فالتف حولهم أهل العلم والفقه والمغنى والشعر والطرب.

وبلغ البرامكة من الغنى ذروته، ومن الحكم سطوته وتشابكت نفوذهم وسلطتهم إلا أنهم لم يقوموا بحركات معادية للخليفة هارون الرشيد، ولم يعرف عنهم أنهم كونوا جماعات سياسية تعمل في الخفاء، ولكن بعد سبعة عشر سنة ونيف انقلب عليهم هارون الرشيد، دون سابق إنذار وتمهيد، الأمر الذي جعل المؤرخين المعاصرين واللاحقين، العرب منهم والعجم يختلفون أسباباً ويوقعون أحداثاً أشهرها قصة العباسة أخت هارون وابنة المهدي وصلتها بجعفر البرمكي.

نكبة البرامكة

إذا استسلمنا للسرد التاريخي السابق والموثق تاريخياً نجد أن أسرة البرامكة لم تكن محصورة في يحيى البرمكي وأبنائه الفضل وجعفر وموسى، ولكنهم منذ قيام الدولة العباسية، وخلال العصور من عصر أبي العباس الذي انتصر على الأمويين في موقعة الزاب عام ١٣٢هـ- ٧٥٠م وعمل على توطيد حكم العباسيين، وظهور خالد بن برمك على الساحة السياسية والعسكرية، ثم التصاقه بالمنصور وبزوغ نجم يحيى بن خالد البرمكي، واستمرار العلاقة الوطيدة بين عائلة البرامكة والخلفاء العباسيين، حتى جاء عهد الرشيد وسيطرة يحيى على أمور الحكم، وأبنائه جعفر والفضل على الولايات الشرقية والغربية، فإن ذلك يؤكد توغل البرامكة بحيث امتدت أذرعتهم وأصبح لهم موالون وأشباع وقادة جيوش وجنود، كل هذا يجعل

نكبة البرامكة وسرعة القضاء عليهم بسهولة ويسر أمراً غربياً يشابه في غرابته اختفاء جيش العراق بقوته وعتاده وجنوده وقادته، وفي طرفه عين تختفي دول وتسحق كما حدث لصدام حسين وجيشه.

نعود إلى دولة البرامكة التي اختفت بين عشية وضحاها، وسنسرده أسطورة العباسية التي عول عليها المؤرخون (معظمهم) انقلاب الرشيد على البرامكة والقضاء عليهم.

عرفت العباسية بوفرة ثقافتها وجمالها، وكانت تشارك هارون الرشيد مجالسه، وكان جعفر بن يحيى البرمكي مغرمًا بها، وطلب من هارون أن يزوجه إياها، ولكن هارون كان متعصبًا لجنسه العربي في حين جعفر والبرامكة من الموالي، إلا أن هارون الرشيد وافق على زواجهما دون الدخول بها، حتى يمكن أن تنكشف العباسية على جعفر. (قول غير منطقي لرجل مسلم ويجب أخته ويجلها).

وقال المسعودي^(١) أن العباسية سعت إلى أن يكون الزواج حقيقيًا فلجأت إلى أم جعفر التي دبرت لهما خلوة، رغم علمها بعاقبة هذا الأمر، وانتهزت فرصة أن كان جعفر في حالة سكر، فقدمت إليه العباسية على أنها جارية رومية، فواقعها وأنجب منها ولدًا، فأرسلت به إلى الحجاز ثم اليمن، وتكتمل الأسطورة بأن العباسية أنجبت طفلًا آخر واتبعت خطي أخيه، وعندما عرف الرشيد بهذا الأمر عاقب العباسية، بأن أمر فوضعت داخل صندوق وألقي بها في بئر وهي حية، وأرسل فأحضر ولديها ونظر إليهما وبكى، ثم ألقى بهما في البئر وطمره عليهما.

عرفنا للرشيد تقواه وورعه وتأدبه على يد الكثير من فقهاء عصره، الأمر الذي لا يتفق وموافقة الرشيد على الزواج الصوري،

(١) مروج الذهب.

والموافقة على خلوتهما، وهذه الأسطورة بها من التناقضات ما يجعلها غير مقبولة، فإذا تمكنت أم جعفر من توفير الخلوة الأولى، فكيف كانت الخلوة الثانية، وهل من الممكن أن تنجب طفلين دون أن يعرف الخليفة، ثم هل وصل الأمر بذلك الخليفة البكاء أن يتحجر قلبه ويقوم بإغراق أخته وهي حية ودفن ولديها أحياء، وإذا رجعنا إلى الأغاني للأصفهاني لا يذكر هذه الواقعة، أما ابن خلدون فينفى هذه الواقعة من أساسها، حيث يستبعد من العباسية وهي صاحبة الشرف والصون والعفاف وهي ابنة خليفة وأخت خلفاء السقوط في هذه الذلة، وينأى بهارون الرشيد عن موافقته على هذا الزواج وأن يزوج أخته إلى أحد موالي العجم مهما كان، وأن يوافق على العبث في الزواج وهو من أشرف منازل الإسلام، ويعتمد على أيمانات جعفر الغليظة بالألا يقربها، وما يذكر أن العباسية كان لها أزواج ثلاثة^(١) ولا يذكر جعفر بينهم.

ويروي المسعودي في مروج الذهب أن زبيدة هي التي نقلت للرشيد خبر اتصال جعفر بزوجه العباسية، وأن رائحة الفضيحة قد شاعت في جوانب القصر، فلم يبق فيه أحد إلا وقد علم بها.^(٢) وقال بذلك بعض المؤرخين الذين أولعوا بذكر نكبة البرامكة واستفاضوا واجتهدوا لمعرفة أسباب إيقاع الرشيد بهم والانقلاب عليهم.

ويرى ابن خلدون في مقدمته أن نكبة البرامكة كانت ناشئة عن استبدادهم على الدولة، واحتجابهم أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب القليل من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره، وشاركوه في

(١) النجوم.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي د. أحمد شلبي.

سلطانه، ولم يكن له معهم تصرف في أمور الدولة، فعظمت آثارهم،
وبعد صيتهم، وعمروا مراتب الدولة بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم،
واحتازوها عن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف
وقلم، فعظمت الدالة منهم، وانبسط الجاه عندهم، وانصرفت نحوهم
الوجوه، وخضعت لهم الرقاب، وقصرت عليهم الآمال.^(١)

ويروي ابن خلكان^(٢) أن سعيد بن سالم سئل عن جنابة البرامكة
التي استوجبت غضب الرشيد فقال: والله ما كان منهم ما يوجب
بعض عمل الرشيد بهم، ولكن طالت أيامهم، وكل طويل مملول،
والله قد استطال الناس أيام عمر بن الخطاب، وما رأوا مثلها عدلاً
وأمنًا، وسعة أموال وفتوحًا، وقد رأى الرشيد مع ذلك أنس النعمة
بهم، وكثرة حمد الناس لهم، ورميهم بآمالهم دونه، والملوك تتنافس
بأقل من هذا، فتعنت عليهم وتجنى وطلب مساءتهم.

ويقول الأستاذ الخضري: لم يكن ما فعله الرشيد ببدعة في الدولة
العباسية؛ فإن المنصور قد أوقع بوزيره أبي أيوب المورباني، وقتله هو
وأقاربه، واستصفى أموالهم لخيانة مالية اطلع عليها منهم، وأوقع
المهدي بوزيره أبي عبيد الله معاوية بن يسار ويعقوب بن داود
بوشاية كانت بهما، ومع نزاهة الأول وحسن سيرته، ومع ما كان
للمهدي من الولوع بالثاني، وكان قد كتب أنه اتخذ أخًا في الله،
وهذه الأفعال التي سبقت عهد الرشيد، فالأمر غير مستبعد ولا
مستغرب.

وينسب بعض المؤرخين للبرامكة الزندقة^(٣)، وهو الكفر والإلحاد،

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي د/ أحمد شلبي.

(٢) وفيات الأعيان.

(٣) الطبري، والزهيرى.

وقال ابن النديم في الفهرس^(١): أن البرامكة بأسرها زنادقة، ولا سيما أن دين البرامكة الأول لم يكن الإسلام، ومما لا مرية فيه أن البرامكة أسلموا إلا أنهم - كما يبدو من سيرتهم - أخذوا الإسلام مأخذاً هيناً، ودليل ذلك أنهم جعلوا من بيوتهم ملجأً لشرب الخمر والمجون، وكانت لهم مجالس شرب وهو علنية وغير محتشمة^(٢)؛ يلبسون فيها هم وندماؤهم ثياباً ملونة حمراء وصفراء وخضراء إمعاناً في اللهو، فلعل هارون لم يعجبه تبذل البرامكة وعدم اهتمامهم بالدين الإسلامي، حتى أن يحيى البرمكي بأمر من الرشيد كتب^(٣) إلى الفضل بن يحيى الذي تشاغل بالصيد وإدمان الملذات عن النظر في أمور الرعية، أما البغدادي^(٤)، فإنه ينسب صراحة إلى البرامكة العودة إلى ديانتهم، حينما زينوا للرشيد أن يضع مجمرة في جوف الكعبة، يتبخر عليها العود، فعلم الرشيد أنهم أرادوا أن يحولوا الكعبة إلى بيت النار، وكانت الزندقة تهمة كفيفة عند العباسيين بقتل صاحبها.

ويرى بعض المؤرخين أن البرامكة استغلوا نفوذهم في جمع الأموال وسك العملة، بغير حساب وبدون رقيب، وعملوا على استمالة رجال الدولة وإظهار الكرم والسخاء، فكان يحيى إذا خرج في موكب يعدُّ صُرراً، في كل صُرّة مائتا درهم يهبها لمن يتقدمون إليه ويعترضون موكبه^(٥)، وكان ابنه جعفر يُحمّل خادمه الدنانير ليشتري الناس في حضرته بعطائه وكرمه، كما كانت آلاف الدنانير والدراهم

(١) العصر العباسي الأول د/ عبد المنعم ماجد.

(٢) الفخري.

(٣) مروج الذهب.

(٤) الفرق بين الفرق.

(٥) الفخري، وفيات الأعيان.

والضياع والأراضي والثروات تغدق على صنائعهم دون حساب^(١)، ويذكر أن البرامكة اغتتوا غنى لم يصل إليه أحد من الموالي، فملكوا الضياع وبنوا القصور، حتى صارت مدن كاملة تحت يمينهم، وعرفت بمدن البرامكة^(٢).

ومن الممكن أن يكون ما وصل إليه البرامكة من مكانة وثروة، الأمر الذي أثار خيفة هارون، وقد يكون أخذ عليهم إسرافهم من أموال المسلمين بدون حساب ولأغراض شخصية، وسبق أن اتهم المنصور جد الرشيد خالد البرمكي جد البرامكة بأخذ الأموال من الناس في الموصل من غير وجه حق وسرقتها، وأنه أمهله ثلاثة أيام ليعيد ثلاثة ملايين درهم وإلا قتله، حتى أن يجبي أخذ يقترض من الناس وأعادها إلى المنصور، فعفا عن خالد البرمكي^(٣). ويرى بعض العلماء أن سبب انقلاب هارون الرشيد على البرامكة هو ميلهم للعلويين؛ شأنهم في ذلك شأن كل الفرس، فقد تزوج الحسين من ابنة يزدجرد آخر ملوك ساسان، فأصبحت سلالة العلويين مرتبطة مع الفرس بالنسب، وأصبح التشيع للعلويين مذهباً قومياً للفرس، ويؤيد هذا الميل للعلويين أن جعفر بن يحيى البرمكي كان يعطي لمن يجبي، إليه من العلويين العهد والأمان^(٤) ويسمح لهم في حضرته بمناقشة الإمامة وهل تكون بالنص أو الاختيار، وكان ذلك على خلاف السياسة التي اتبعها العباسيون الذين قاموا بالتضييق على بني عمومتهم حتى لا يطالبوا بالخلافة، حتى إن هارون قد أمر بإخراج

(١) الطبري، والجهمشباري.

(٢) معجم البلدان، العقد الفريد، الطبري، البداية والنهاية.

(٣) الطبري.

(٤) الطبري.

العلويين من بغداد والتضييق عليهم.^(١)

ويذكر بهذا الصدد أن هارون قبض على يحيى بن عبد الله أخي محمد النفس الزكية، وكان قد شارك في الفتنة التي انتهت يوم (فخ)، وهرب من الهادي إلى بلاد الديلم، ثم عاد إلى العراق، فقبض عليه هارون وطلب من جعفر أن يقتله، ولكن جعفراً أطلق سراحه ليجعل منه قوة مناوئة لهارون، وبذلك يصير لهم فضل على العلويين بعد أن ملكوا العباسيين.

ولكن السبب الأهم الذي يجمع كل هذه الأسباب السابق ذكرها هو أن البرامكة وصلوا إلى جميع المناصب واحتلوا جميع الولايات، وصارت كلمتهم هي العليا ورأيهم هو النافذ، الأمر الذي أثار حفيظة بني العباس والعرب، فأصبح لهم معارضون وناقمون وطاحون للوصول إلى ما وصلوا إليه من مكانة وثروة، ومنهم أبو يوسف صاحب كتاب الخراج، والذي طلب من الرشيد أن يجلس بنفسه في ديوان المظالم.

بالإضافة إلى ذلك كان هناك شخصيات تُكنّ حقدًا وكرهًا للبرامكة من داخل القصر منها زوجة الرشيد زبيدة أم جعفر نسبة لجدّها أبي جعفر المنصور، والآخر رجل السياسة الداهية الفضل بن الربيع.

كانت زبيدة امرأة قوية الشخصية، ولها تأثير عظيم على هارون الرشيد، وكانت ترى أن سلطان البرامكة يكاد يفوق سلطان الرشيد، وكانت فصيحة اللسان لبيبة، عاقلة مدبرة أريبة، وكانت تعتبر من أقوى نساء بني العباس، أما الفضل بن الربيع، وهو ابن الربيع بن يونس الذي كان ضمن حاشية المنصور والمهدي، ثم جاء الهادي وعين

(١) الطبري.

الفضل بن الربيع مكان أبيه في الوزارة ثم عزله، وفي خلافة الرشيد عينه يحيى البرمكي على ديوان النفقات العام والخاص^(١)، الأمر الذي جعله وثيق الصلة بالأسرة العباسية من رجال ونساء، وعندما عزل هارون محمد بن خالد بن برمك عن الحجة تولاهما الفضل^(٢)، ثم قام هارون بأخذ خاتم الخلافة وجعله في يد الفضل، وبذلك زاد نفوذ الرجل في داخل قصر هارون.

كانت ولاية العهد نقطة فاصلة في حياة الرشيد، ودون أن يدري وعلى عكس ما أراد أوجد الرشيد خلفاً كبيراً ونمياً، وأصبح ناراً متأججة تحت الرماد.

كان هارون يريد أن يوطد الخلافة الوراثية في بني العباس، وعلى أن تبقى في بنيه حتى لا يتفرق العرب وتذهب الخلافة، ويرى بعض المؤرخين أنه كان يحتذي حذو شارلمان ملك الفرنجة الذي كان يعاصره.

إلا أن البرامكة - وحسب المصادر - كان لهم دخل كبير في ولاية العهد، فقد اختاروا محمد بن هارون ولياً للعهد^(٣)، وأن الفضل بن يحيى البرمكي هو الذي أوصى للرشيد بذلك بعد أن وجد أن بعض جماعة من بني العباس يتطلعون للخلافة، خاصة وأن هارون لم يكن قد عهد للولاية لأحد حتى عام ١٧٥هـ - ٧٩٢هـ.

كان محمد الأمين الذي اختاره البرامكة لولاية العهد لم يتجاوز الخامسة من عمره، وأراد البرامكة أن ينشأ محمد تحت أجنحتهم فيتسلطوا عليه، وقد يكون اختيارهم لمحمد الأمين تقريباً لزيادة

(١) الجهشباري والعيون.

(٢) الطبري.

(٣) الطبري.

الزوجة المقربة للرشيد، وبذلك يكسبوا ودها ويتقوا حنقها وغضبها. عندما شب الأمين وصار يافعاً وتعضدت به زيدة كما فعلت الخيزران ندم البرامكة على اختيارهم للأمين، وظهر نفوذ زيدة في قصر هارون، وكان البرامكة قد أعمتهم الثروات وغرهم سلطانهم، وصاروا يضيّقوا على أهل القصر بما فيهم زيدة وهارون.

ظهر في قصر هارون فريق يعارض وجود البرامكة ويسعى للقضاء على نفوذهم، فانضم الفضل بن الربيع الذي كان يسعى لينال ثقة الخليفة، وتمهل هذا الفريق في الظهور، وبدأ في العمل بهدوء وروية.

كانت زيدة عربية الأصل، وكذا كان الفضل بن الربيع ذا أصول عربية، وكان البرامكة يمثلون العنصر الفارسي، وحين بدء نجم زيدة في الظهور مع ميول الرشيد لها أراد البرامكة إيجاد عنصر فارسي يواجه زيدة وينافسها، ووجود ذلك في شخص (مراجل) الفارسية^(١) إحدى زوجات هارون، وأن يكون عبد الله بن هارون من مراجل والأخ الأكبر للأمين هو ولي العهد بعد الأمين، وتمكنوا من جعل هارون الرشيد يُعَلِّمُهُ بذلك، وحتى يؤكدوه صحبوا هارون الرشيد في حج عام ١٨٢هـ - ٨٩٠م^(٢)، ومعهم كبار الدولة والقواد من الخراسانيين والقضاة والكتاب وكل من له شأن، وأعلنوا على الملأ ممن حضر موسم الحج ولاية عبد الله المأمون العهد بعد محمد الأمين، وجعلوا هارون يكتب هذه البيعة وعلقت على أبواب الكعبة، وتم إرسال نسخ من هذه البيعة إلى العمال على جميع الأمصار، وجعلوا الأمين يحلف على هذه البيعة، وإذا ما فعل دون ذلك تسقط عنه الخلافة، وبذلك يضمن البرامكة أن الخلافة سائرة إلى أحد أبنائهم

(١) الطبري.

(٢) الطبري، العيون، الذهب المسكوب.

بعد وفاة هارون، وقد اتفق على أن يتولى الأمين الأقاليم الغربية، ويتولى المأمون الأقاليم الشرقية، وبذلك تصبح الأقاليم الشرقية تحت سلطان المأمون، حتى وإن كانت الخلافة في يد الخليفة الأمين، وقد يكون ذلك من البرامكة رغبة في فصل الأقاليم الشرقية التي يسيطر عليها الخراسانيون وهي مناطق العجم، وظهر هذا بعد أن زاد نفوذ الفريق العربي (زيدة - الفضل بن الربيع)، الأمر الذي هدد وحدة الخلافة العباسية^(١)، وبذلك نشأ في القصر صراع عنصري.

عند ذلك بدأ الفريق العربي بقصر هارون التحرك السريع، وكثر سعيهم لدى هارون الرشيد ضد البرامكة^(٢) بقصد أن يوغروا صدره ضدهم وإثارة حفيظته عليهم، وكانوا يعرضون عليه استبدادهم واحتجابهم الأموال لأنفسهم، وتقربهم للعلويين أعداء العباسيين.

كان هارون قد بلغ سن الأربعين، وذهب عنه نزق الشباب، وأراد أن يباشر أمور الحكم، ويقضي على نفوذ البرامكة^(٣)، وقد أتت هذه الوشاية بنتائجها، فانقلب هارون على البرامكة.

ترك هارون بغداد وأخذ يتنقل من بلد إلى بلد من الرقة إلى الحيرة، وأخيراً اتخذ الرقة على نهر الفرات مقراً له، حيث بني القصور؛ ليبتعد عن سيطرة البرامكة، وكان خلال هذه الفترة يتخذ التدابير في كتمان وسرية، وقد يكون بدأ ذلك منذ عودته من حج عام ١٨٢ هـ وهو العام الذي أصر فيه البرامكة على ولاية العهد للمأمون، ومنذ ذلك التاريخ تبدلت معاملته لآل برمك.

تدبر الرشيد أمره بإحكام بحيث لا يتمكن أحد منهم من الهرب،

(١) مروج الذهب.

(٢) الفخري، ومروج الذهب، والبداية والنهاية.

(٣) الطبري.

وفي ليلة السبت الأول من صفر عام ١٨٧هـ التاسع من يناير ٨٠٣م^(١)، أمر هارون عماله بأن يقوموا بالقبض على كل آل البرامكة، وكل من لهم صلة بهم ومواليهم، وأنه لا أمان لمن يؤوي أحداً منهم، وقام عمال هارون بالإحاطة بيحيى بن خالد البرمكي، وجميع ولده ومواليهم، ولم يفلت منهم أحد، وقام رجال هارون بمحاصرة كل بيوت البرامكة وقصورهم وضياعهم، وتحفظوا على أموالهم وكل أملاكهم، وكانت جمعة وكثيرة.

وفي ذات الليلة دبر هارون مقتل جعفر^(٢)، فطلب من مسرور أن يذهب إلى جعفر ويعود إليه برأسه.

ونكمل هذه القصة بما قاله الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية حيث يظهر أن هارون لم يكن متهوراً وقام بمذبحة للبرامكة كما تقول بعض المصادر، وإنما قتل جعفر لأنه كان يحكم البلاد بدلاً من أبيه يحيى وباسم هارون الرشيد.

قال ابن كثير^(٣): "دخلت سنة سبع وثمانين ومائة من الهجرة، وفيها كان مهلك البرامكة على يدي هارون الرشيد، وقتل جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، ودمر ديارهم واندرست آثارهم، وذهب صغارهم وكبارهم، وقد اختلف في سبب ذلك على أقوال ذكرها ابن جرير وغيره، وقيل: إن الرشيد كان قد سلم يحيى بن عبد الله بن حسن العلوي إلى جعفر البرمكي ليسجنه عنده، فما زال يترفق لجعفر حتى أطلقه، فتم (وشى) الفضل بين الربيع ذلك إلى الرشيد، فقال له الرشيد: ويلك لا تدخل بيني وبين جعفر، فلعله أطلقه من أمري

(١) النجوم.

(٢) الطبري.

(٣) البداية والنهاية.

وأنا لا أشعر، ثم سأل الرشيد جعفرًا عن ذلك فصدقه فتغيظ عليه وحلف ليقتلنه، وكره البرامكة، ثم قتلهم وقلاهم (أبعدهم بالإقالة) بعد ما كانوا أحظى الناس عنده وأحبهم إليه، وكانت أم جعفر والفضل (أبناء يحيى البرمكي) أم الرشيد في الرضاة، وقد جعلهم الرشيد من الرفعة في الدنيا وكثرة المال بسبب ذلك (عرفانًا بالأخوة في الرضاة) شيئًا كثيرًا كما لم يكن لمن قبلهم من الوزراء، ولا لمن بعدهم من الأكابر والرؤساء، بحيث إن جعفرًا بني دارًا غرم عليها عشرين ألف درهم (عشرين مليون)، وكان ذلك من جملة ما نقمه عليه الرشيد، ويقال: إنما قتلهم الرشيد لأنه كان لا يمر ببلد ولا إقليم ولا قرية ولا بستان إلا قيل هذا لجعفر، ويقال: إن البرامكة كانوا يريدون إبطال خلافة الرشيد وإظهار الزندقة، وقيل: إنما قتلهم بسبب العباسية، ومن العلماء من أنكر ذلك، وإن كان ابن جرير قد ذكره".

وذكر ابن الجوزي أن الرشيد سئل عن سبب قتله البرامكة فقال: لو أعلم أن قميصي يعلم ذلك لأحرقته.

وقد وقفنا عند كل هذه الأسباب وحاولنا تفنيدها على حسب تعدد المصادر، لينتهي بنا الأمر إلى انقلاب الرشيد على البرامكة وسعيه لاستئصال شأفتهم والقضاء على سلطانهم.

كان الرشيد قد عزم على هذا الأمر وظل يعد له بهدوء وسرية؛ حيث كان الأمر جد خطير ويهدد الخلافة العباسية، إما بالانهيار التام أو على أقل الأضرار انقسامها وثورة الأقاليم الشمالية التي هي تحت يد القادة الخراسانيين المواليين للبرامكة.

وعلى نحو ما ذكرنا من تدابير هارون الرشيد عند عودته من الحج وصار إلى الحيرة، ثم ركب السفن ووصل إلى الأنبار، فلما كانت

ليلة السبت سلخ المحرم^(١) من عام ١٨٧هـ، أرسل مسروراً الخادم ومعه حماد بن سالم أبو عصمة في جماعة من الجند، فأحاطوا بجعفر بن يحيى ليلاً، فدخل عليه مسرور الخادم وعنده بختيشوع المتطبب، وأبو ركانة الأعمى المغني الكلوذاتي، وهو في أمن وسرور وأبو ركانة يغنيه.

فَلَا تَبْغِذْ قَتْلُ فِتْنَى سَيَاتِي عَلَيْهِ الْمَوْتُ يَطْرُقُ أَوْ يُنَادِي

فقال مسرور الخادم لجعفر: يا أبا الفضل هذا الموت قد طرقتك، أجب أمير المؤمنين، فقام إليه يقبل قدميه، ويدخل عليه أن يمكنه فيدخل على أهله فيوصي إليهم ويودعهم، فقال الخادم: أما الدخول فلا سبيل إليه، ولكن أوصني، فأوصى وأعتق جميع ممالئكه أو جماعة منهم، وجاءت رسل من عند الرشيد تستحثه فأخرج إخراجاً عنيفاً، فجعلوا يقودونه حتى أتوا به المنزل الذي فيه الرشيد فحبسه وقيد ب قيد حمار، وأعلموا الرشيد بما كان يفعل، فأمر بضرب عنقه، فجاء السيف إلى جعفر فقال: إن أمير المؤمنين قد أمرني أن آتية برأسك، فطلب جعفر منه مراجعة الخليفة، فعاد مسرور إلى الخليفة فانتهره، وأمره أن يعود برأس جعفر، وتم في هذه الليلة القضاء على جعفر بن يحيى البرمكي وضرب عنقه وتم تعليق جسده على ثلاثة جسور، ثم أحرق بعد ذلك^(٢).

لم تكن نكبة البرامكة انتقام مهووس ولا مذبحه مريعة، وإنما كان قتل جعفر وصلبه تعبيراً عن القضاء على سطوة البرامكة، فلم يرد في المراجع ما يفيد أن تطهير البلاد من البرامكة كان عن طريق القتل، وإنما قتل بعض الذين حاولوا الثورة ضد الخليفة في بعض الولايات

(١) المرجع السابق والطبري، والعيون.

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه.

الشرقية، وإنما كانت نكبة البرامكة في ضياع سلطانهم ومصادرة ثرواتهم وتمديد إقامة كبرائهم، فمثلاً تم تحديد إقامة يحيى البرمكي وهو رأس الأسرة البرمكية وشيخ مسن؛ فإن الرشيد أمر بأن يبقى في منزله، وحبست معه جاريتته دنانير البرمكية، وذلك بعد أن نودي في بغداد أنه لا أمان للبرامكة، ولا لمن آواهم إلا محمد بن يحيى بن خالد فإنه مستثنى منهم لنصحه للخليفة.^(١)

امتلات السجون بالبرامكة واستلبت أموالهم كلها، وزالت عنهم النعمة، ومما يذكر ويثبت أن هارون الرشيد قد تدبر أمره سرّاً وفاجأ آل برمك بما فعل، أنه في صباح اليوم الذي قتل فيه جعفر، كان هو وجعفر راكبين في رحلة صيد، وقد خلا بجعفر، حتى غابت الشمس، ودعه الرشيد وقال: لولا أن الليلة ليلة خلوتي بالنساء ما فارقتك، فاذهب إلى منزلك واشرب واطرب وطب عيشاً، فما أن وصل جعفر إلى منزله وأرخى الليل سدوله حتى جاءه الموت يطرق بابه فأوقع به البأس والنكال.

كانت نكبة البرامكة تمثل وبالاً وسوء عاقبة على القومية الفارسية، وإعادة ذكرى ما فعله الخلفاء العباسيون من قبل في أبطال خراسان ومنهم أبو مسلم الخراساني، فثارت ثورتهم، ولكنهم وجدوا أن هارون الرشيد كان أشد منهم دهاء وقوة فأخمد ثورتهم، فعمدوا إلى تشويه سيرته ووصمه بالزندقة التي هي بدعتهم، ووصفوه بأبشع الصور، ومنها اللواط والسكر والمجون ومعاقرة الخمر، ومن الممكن أن يكونوا هم الذين اختلقوا أسطورة العباسية لتشويه الأسرة العباسية، والظعن في أشرافها من النساء، وهكذا أصبح هارون الرشيد رمزاً لكل فاجر عابث من خلال قصص ألف ليلة وليلة وليالي بغداد، ومسرور

(١) البداية والنهاية.

السياف الذي لا يفارق شهريار، ولكن كثيراً من المؤرخين العرب وعلى رأسهم الحافظ ابن كثير صاحب البداية والنهاية والطبري وابن خلدون قد نفوا عن الرشيد هذه الصفات التي لا تليق بخليفة تقي شديد الإيمان، مجاهد، كان يحج عاماً ويغزو عاماً، وأنه حج ماشياً ولم يحج خليفة ماشياً غيره، وإنه كان يصلي في اليوم مائة ركعة.

وكانت نكبة البرامكة والقضاء على سيطرتهم هي العامل الأول في إعادة التوازن بين القومية العربية والقوميات الأخرى وعلى رأسها القومية الفارسية.

تعقيب على نكبة البرامكة

تعتبر نكبة البرامكة من أهم الأحداث التي وقعت في عصر هارون الرشيد، وكما قلنا، فإن القضاء على سلطان البرامكة ودولتهم أبعد الدولة العباسية عن الانهيار وكانت على شفا حفرة حفرها آل برمك فوقعوا فيها، وتعددت الروايات وتشعبت المصادر، وكانت أهم المصادر التي اعتمدنا عليها في هذا الصدد الطبري والبداية والنهاية لابن كثير، والكامل في التاريخ، ومروج الذهب، وتاريخ اليعقوبي، وعيون الأخبار وغيرها من المصادر التاريخية الإسلامية وبعض التراجم التي أظهرت الكثير من الافتراءات على هارون وآل العباس، وما قيل بأنه ذبح وصلب وحرق الآلاف من البرامكة، فكان من التلفيق والكذب والبهتان.

وقد أسهنا في سرد الروايات ونلخصها في الأسباب الآتية:

السبب الأول: جعلت سبب انقلاب الرشيد على البرامكة هو دخول يحيى بن خالد على مجلس الرشيد دون إذن، وهذا سبب غير كاف لبطش الرشيد بكل آل برمك.

السبب الثاني: ميل يحيى بن خالد البرمكي إلى العودة لأصوله الفارسية ومحاولته خلط العادات والتقاليد الفارسية القديمة لتكون ضمن شعائر الإسلام، ومنها إحياء الزندقة، وقد يكون ذلك ضمن أسباب انقلاب الرشيد على البرامكة.

السبب الثالث: إطلاق سراح يحيى بن عبد الله العلوي من قبل يحيى بن خالد البرمكي دون العودة للرشيد، وقد يكون هذا سبباً جعل هارون يشعر بأن الخلافة تنسحب من بين يديه لتقع في أيدي البرامكة الذين يتعاونون مع العلويين أعداء العباسيين.

السبب الرابع: قد يكون الإسراف والترف المفرط وامتلاك القصور والضياع من قبل البرامكة والتي أصبحت تضاهي ممتلكات الخليفة وقد تفوقها، وقد يكون ذلك سبباً في أن توغر صدر الرشيد فانقلب عليهم، خاصة وأنهم حجبوا عنه مصارف الأموال، وصاروا المتحكمين في مصادر الأموال ومصارفها.

السبب الخامس: أسطورة العباسية، أخت هارون الرشيد وغرامها بجعفر البرمكي وزواجه منها بمعرفة الرشيد، وهي قصة مختلفة ورواية عبثية، بها من أمور الزندقة أكثر من شعائر الإسلام، وهذا مستبعد من خلق الرشيد والعباسية، ولكن صنائع البرامكة من الفرس أرادوا بها الخط من قدر هارون وأخته وآل العباس.

كانت حركة التطهير التي سميت بنكبة البرامكة ليست وليدة الصدفة أو لأسباب فردية أو صفة شخصية، وإنما لها جذور معقدة منذ بدايات العصر العباسي، حيث عمد الفرس إلى خلق حركة شعوبية تهدف إلى إعلاء قدر العجم عن العرب، وإحياء التراث الثقافي الفارسي، وتغليبها على التراث الثقافي العربي، وإدخال عناصر فارسية في الإسلام بغرض هدم الدولة الإسلامية وتشويه معتقداتها،

وعندما فطن الرشيد لسهج البرامكة وسعيهم للسيطرة على كل مناحي الحياة، وإبعاد الخليفة عن سدة الحكم، قام بالانكباب عليهم وتطهير الدولة منهم.

لقد عمل البرامكة على حماية الفرس بجاههم وسلطانهم، وبذل المال والجهد في نشر الثقافة الفارسية، ويذكر أن البرامكة قاموا بإيواء كثير من الزنادقة من أمثال: هشام بن الحكم الرافضي، وأبي نواس، وغيرهم، وكانوا يغدقون الأموال على الشعراء الماجنين والسفهاء الملحدين، حتى قال الأصمعي في البرامكة:

إِذَا دُمِرَ الشَّرْكَ فِي مَجْلِسٍ انْأَرَتْ وَجُوهَ بَنِي بَرْمَكٍ
وَإِنْ تَلَيْتَ عَنْدَهُمْ آيَةً اتُّوا بِالْأَخَادِيثِ مِنْ مَزْدَكِ^(١)

فكان البرامكة يروجون للديانات المجوسية القديمة ومنها المانوية والزرادشتية والمزدكية في مجالسهم ومناظراتهم في السر والعلن، وكانوا يميلون إلى فارسية كسروية، يظهرون الإسلام ويبطنون المجوسية، وقد ظهر ذلك في مجالسهم وقصورهم وأفعالهم.

يقول المسعودي: "أن دولة البرامكة وسلطانهم وأيامهم النضرة الحسنة من استخلاف الرشيد، إلى أن قتل جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي سبعة عشر سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوماً"، فكانوا دولة داخل دولة، وسلطاناً فوق الخلافة، وعنصرين بين الرعية.

كان حكم الرشيد في البرامكة حكماً نافذاً لا رجعة فيه ولا تردد، ولا ندم ولا تحبظ، وقد كتب يحيى بن خالد البرمكي إلى الرشيد وقد عرف دنو أجله وهو في محبسه، فقال: قَدْ تَقَدَّمَ الْخَصْمُ إِلَيَّ مَوْقِفِ الْفِصْلِ، وَأَنْتَ بِالْأَثَرِ، وَاللَّهُ الْحَكَمُ الْعَدْلُ، وَسَتَقَدَّمُ فَتَعْلَمُ،

(١) عيون الأخبار.

فبعث له الرشيد قائلاً: الْحَكْمُ الَّذِي رَضِيْتَهُ فِي الْآخِرَةِ لَكَ هُوَ الَّذِي
أَعَدَى النُّخْصَمَ فِي الدُّنْيَا عَلَيْكَ، وَهُوَ مَنْ لَا يُرَدُّ حُكْمُهُ، وَلَا يُصْرَفُ
قَضَاؤُهُ.^(١)

ومما يذكر أن الرشيد لم يأخذ الولد بذنب أبيه ما دام لم يخطئ،
ولا الأب بذنب ابنه ما دام لم ينقد أو يهجو، {وَلَا تَزُرْ وَازِرَةً وَزَرَ
أُخْرَى}،^٢ وقيل: إنه لما طال حبس يحيى جاءته زوجته - أم الرشيد في
الرضاعة، قال الحاجب: ظئر أمير المؤمنين بالباب في حالة تقلب
الحاسد إلى حنين الوالد، فلما دخلت قام الرشيد محتفياً بها، وأكب
على تقبيل رأسها، فقالت: يا أمير المؤمنين، لقد ربيتك وأخذت لك
الأمان من دهري، ظنرك يحيى وأبوك بعد أبيك. فرد الرشيد: قَدَرُ
سَبَقُ، وقضاء حَمٍّ، وغضب من الله نزل.

وتعالت من المرأة المناجاة، فكان الرشيد يلوذ بذكر الله ويقول: لله
الحكم من قبل ومن بعد، وطال استرحامها، فقال لها الرشيد: أما لي
من الحق مثل الذي لهم؟ يعني زوجها وأولادها، قالت: إنك لأعز
عليّ وهم أحب إلي. ثم قامت وانصرفت، وظل يحيى في سجن الرقة
إلى أن توفي سنة ١٩٠هـ وهو ابن السبعين^(٣).

قال أحد أبناء يحيى لأبيه وهم في السجن والقيود بأيديهم: يا أبت،
بعد الأمر والنهي والنعمة صرنا إلى هذه الحال؟ فقال: يا بني دعوة
مظلوم سَرَّتْ بالليل ونحن عنها غافلون، ولم يغفل الله عنها. وأنشد
يقول:

رُبَّ قَوْمٍ قَدْ عَدَوْا فِي نَفْسَةٍ زَمْنَا وَالذُّهْرُ رِيَانٌ عَدَقَى

(١) العقد الفريد.

٢ - الأنعام: ١٦٤ - الإسراء: ١٥ - فاطر: ١٨ - الزمر: ٧.

(٣) تاريخ بغداد والبداية والنهاية.

سَكَتَ الدُّهُرُ زَمَانًا عَنْهُمْ ثُمَّ أَبْكَاهُمْ ذَمًّا جِئِنَ نَطَقَ^(١)

ونعيد، لقد عمد صنائع البرامكة والفرس وأصحاب الميول الشعبية والذين يريدون الكيد للإسلام إلى تشويه سيرة الرشيد، وروجوا لإشاعة الفوضى والطعن في شرف العباسيين حتى يموهوا على أفعالهم ورغباتهم وطموحاتهم.

البرامكة في الميزان

مثل البرامكة جزءاً من النسيج الاجتماعي والسياسي في العصر العباسي الذي ماج بالعرب والعجم، ودارت بين الطائفتين صراعات على الوزارة والجاه والسلطان والتقرب من الخلفاء، ويدرك الدارس لهذه الحقبة أن البرامكة كانوا أعظم حظاً وأوفر نصيباً في نعيم الحياة والتقرب من الخلفاء عن غيرهم، ومنذ قيام الدولة العباسية وحتى انقلب عليهم الرشيد، حتى أنه أطلق عليهم دولة البرامكة.

وكان يحيى بن خالد البرمكي من المقربين في خلافة المنصور والهادي، وهو الذي تولى تنشئة الرشيد، فكان عنده صاحب حظوة ومكانة، وكان يدعوه: "أبي" إكراماً له وعرفاناً، وقلده أمر الرعية والخلافة، وقد كان يحيى على قدر كبير من الخبرة والحنكة والسياسة وحسن التدبير، فعمل على النهوض بالدولة وإظهار رونق الخلافة وقوتها، فجبى الأموال وبنى وعمّر، وكان جواداً كريماً، فكسب حب الرعية وإن مال إلى العجم أكثر من العرب.

تمكن يحيى من الخيزران فكسب عطفها وثقتها، وذلك برفع هارون وتأييده وتمكينه من الخلافة، وهذا ما كانت ترومه وتعمل له، وعندما ماتت الخيزران عام ١٧٣هـ أصبح يحيى صاحب السطوة

(١) البداية والنهاية.

والنفوذ.

وكان ليحيى بن خالد أربعة أبناء: هم الفضل وجعفر ومحمد وموسى، وقيل عنهم:

الفضل بن يحيى

كان الفضل كريماً جواداً، وقد شارك الرشيد لبين الرضاع، فقد أرضعته الخيزران أم الرشيد، وكان عند الرشيد موثقاً مأمون الجانب، فأسكنه معه قصر الخلد، وجعل ابنه محمداً في حجره، وعرف الفضل بتزمته، وأنه لا يميل إلى اللهو والمرح، ولا يشرب النبيذ حله وحرامه، وعندما ثار يحيى بن عبد الله في بلاد الديلم في سنة ١٧٢هـ تصدى له الفضل وتمكن منه، وفي عام ١٧٦هـ قلده الرشيد المشرق كله من النهروان إلى أقصى بلاد الترك، وعمل على استقرار البلاد واستتباب الأمن.^(١)

جعفر بن يحيى

عرف جعفر بفصاحة اللسان وحسن البيان، وكان ذكياً نابهاً، وكان أنيس هارون ونديمه حتى أنه يقال: أن هارون الرشيد أمر فصنع ثوباً يدخله وجعفر ليكونا جسداً واحداً، وقلده الرشيد بريد الآفاق، ودور الضرب والطراز في جميع الكور.

وكما قلده الرشيد الفضل على المشرق قلده جعفرًا على المغرب من الأنبار إلى إفريقيا، وكان ذلك في عام ١٨٦هـ، وكما كان الفضل يرعى محمد بن الرشيد كان جعفر يرعى عبد الله المأمون، وكان جعفر هيناً سلساً على عكس أخيه الفضل، وعندما هاجت العصبية بالشام عام ١٨٠هـ، قال الرشيد لجعفر: إما أن تخرج إليها أو أخرج أنا.

(١) ابن خلدون.

فقال له جعفر: أنا أقيك بنفسي. وشخص لها، فسكتت الفتنة وأعاد الناس إلى الطاعة وفرض الأمن والولاء.^(١)

وزادت صلة جعفر بالرشيد حتى خشي يحيى على ولده عاقبة ذلك، فقال لهارون: يا أمير المؤمنين، إنى أكره مداخل جعفر، ولست آمن أن ترجع عليه العاقبة في ذلك منك، فلو أعفيته، واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك لكان أحب إلي، وآمن عليه عندي، فطمأنه الرشيد وقال له: لا عليك يا أبت.^(٢)

أما عن محمد وموسى أبناء يحيى فلم يكن لهما دور في الحياة السياسية إلا ما نذر، ولم يصل إلى ما وصل إليه الفضل وجعفر من مكانة في عهد الرشيد، فكان صيتهم وذاعت شهرتهم ورسخت أقدامهم حتى ظنوا أنهم ملكوا الخلافة.

كان هارون الرشيد في مقتبل العمر، وكان يعتمد في بادئ الأمر على أمه الخيزران التي كانت تقوم بمهام الحكم، وحين توفيت عام ١٧٣هـ أي بعد ثلاث سنوات من تولي هارون الرشيد الخلافة ظهر الفضل بن الربيع صاحب العنصر العربي، وبمجرد أن وارى الرشيد أمه الثرى، نقل الخاتم من حوزة جعفر بن يحيى إلى الفضل بن الربيع، وكان ذلك إيداناً ببدء تحول الرشيد عن يحيى البرمكي وأبنائه، ومنذ ذلك الحين بدأ الصراع بين العنصرين العربي والأعجمي في خلافة الرشيد.

كان البرامكة قد سعوا إلى توطيد دولتهم الخفية بأن تقلدوا معظم المناصب السياسية الحساسة والولايات، وأمسكوا بالجباية، وتحكموا في بيت المال، وأظهروا للرعية أنهم أصحاب الرأي والمتصرفون في

(١) ابن الأثير.

(٢) الجهشيارى.

المنح والعطاء، والمنع والعقاب، وتغلغل يحيى وأبناؤه في قصر الخلافة، الأمر الذي جعل زبيدة زوجة هارون تساند الفضل بن الربيع في مواجهته لأسرة البرامكة.

فى سنة ١٧٩هـ نحي هارون الرشيد خالد بن محمد البرمكي عن حجابته وقلدها الفضل بن الربيع، وبذلك أصبح الفضل من المقربين إلى الخليفة والمتصل بأهله، وفي نفس العام عاد الفضل بن يحيى من خراسان واستعمل عليها الرشيد يزيد بن مزيد خال المهدي، وأخذ الرشيد يقلص من مهام الفضل.

قال بختيشوع طبيب الرشيد: إن الرشيد قال عندما رأى الناس يختلفون على قصر يحيى بن خالد البرمكي: إن الخلافة على الحقيقة له وليس لي منها إلا اسمها. قال: فعلت أنه سينكبهم، ثم نكبهم عقب ذلك.^(١)

وهنا نعود لحديث يحيى بن خالد لهارون الرشيد عندما خشي على ابنه من انقلاب الرشيد عليه، وطالبه بأن يعفيه حتى يأمن عليه، أما كان هو أولى بهذا النصح ليأمن هذه العواقب والتي آل إليها حال البرامكة؟

لقد برع البرامكة في كل مجالات الحياة، ولكنهم كانوا كمن يجودون ليقال عنهم: جوادون، وكمن يكرمون لكي يقال عنهم: كرماء، ويخوضون المعارك ليوصفوا بالشجاعة والإقدام، وكانهم يعيشون عصر الأبطال في الأساطير الفارسية القديمة، فكان كدهم وسعيهم لمجد شخصي، ولم ينكروا عنهم الشعبية ودعوتهم لإحياء التراث الفارسي القديم باحتوائهم الزنادقة والدفاع عنهم وتكفلوا شعرائهم وأدباءهم.

(١) الفخري، والجهشياري.

وكانت قصة العباسة أخت هارون والشائعات التي أطلقت حولها، وقصة زواجها من جعفر وما أحاطها من روايات أسطورية كفيلة بأن ينقلب الرشيد على البرامكة، وإن زادت الشائعات بعد نكبتهم وجعلها المؤرخون أحد أهم الأسباب لنكبتهم وانقلاب الرشيد عليهم.

وتأتي مساعدة جعفر ليحيى بن عبد الله الذي حبسه الرشيد بتهمة الزندقة لتلصق بهم تهمة مساندة الزنادقة ومدعي الشعبية. طال أمد حكم البرامكة واطمأنت قلوبهم وعلا شأنهم، ولكنهم كانوا يشبهون الموجة العالية الصاخبة العاتية التي ارتفعت وعلت، ولكنها تكسرت على صخرة صلدة قوية، ولكنها تركت أثراً في تاريخ الدولة الإسلامية، ويرجع سبب شهرتهم إلى شهرة هارون الرشيد، فقد كان عصره من الأهمية بمكان، والذي دفع المؤرخين ليكثروا ويجهدوا في دراسة هذا العصر، ولم يتركوا فيه شاردة أو واردة إلا ودرسوها واستفاضوا في تحليلها.

وفي ذلك قال هارون بعد أن قضى عليهم وتخلص منهم، وكان يخاطب جماعة من خواصه: حملونا على نصحائنا وكفائنا، وأوهمونا أنهم يقومون مقامهم، فلما صرنا إلى ما أرادوه منا لم يغنوا عنا شيئاً. وقد حرم الرشيد على الشعراء أن يرثوا البرامكة في أشعارهم، وأمر بالمؤاخذة على ذلك^(١) حتى لا يترك العنان لهم وهم كثر من بني جلدتهم من العجم، وإلا كانوا أسرفوا في ذكر مآثرهم، مما قد يسعر نار الفتنة ويهيج المشاعر تجاه الخليفة، ورغم ذلك فقد خرجت مرثاتهم، وانطلق الشعراء يرثون البرامكة وجعلوهم في مصاف أبطال (الشهنامه) الفارسية.

(١) الفخري.

الرشيد مجاهدًا

دولة الروم والصراعات الداخلية

لم تكن الصراعات الداخلية والاختلافات المذهبية قاهرة على الدولة الإسلامية، وإنما كانت الدولة الرومانية تقع في برائين الخلافات المذهبية والعقائدية، فعقب ارتداد قوات الدولة الإسلامية عن القسطنطينية، وسقوط الدولة الأموية، وقيام الدولة العباسية، وانصراف خلفائهم الأول للقضاء على الخطر الفارسي والعلوي، كان الإمبراطور ليو الإيسوري، والذي استبسل في الدفاع عن القسطنطينية أثناء حصار الأمويين لها، والحفاظ عليها متماسكة ضد الغارات التي كانت تشنها قوات الدولة الإسلامية، فقد تزعم هذا القائد حملة ضد عبادة الأيقونات والتي انتشرت في الإمبراطورية الرومانية، وهي عبادة الصور المقدسة والتماثيل التي تصور العذراء والقديسين، وتعرف هذه الحملة في تاريخ الروم باسم الحركة "اللايقونية" أي شن حرب ضد الصور والتماثيل المقدسة وعبادتها، وإدخال إصلاحات دينية، وتطهير الدين من الماديات.

كانت قدرة جيوش الروم على صد الغارات الإسلامية وصمود القسطنطينية أمام هجماتهم المتتالية أشبه بالمعجزات، الأمر الذي جعل عامة الروم يرجعون هذه القدرة والصمود إلى مدد إلهي وقوة سماوية هي التي أنقذت دولة الروم من الهزيمة والانهيار.

كانت دولة الروم قد خاضت حروباً قاسية ورهيبة انتهت بهزيمة الفرس وانتصارات عظيمة لهرقل الروم الذي هدد المدائن عاصمة

فارس، وأعاد ممتلكات الروم من أيد الفرس ومنها القسطنطينية ذاتها التي كانت ذات أسوار منيعة وموقع متميز، ولكن العامة أرجعوا صمودها إلى معجزات وبركات القديسين، وزاد اعتقادهم في الصور وتبركوا بها، وأصبحت قبور القديسين مزاراً للناس ومقصداً لكل طالب حاجة.

تمثل الأيقونات المقدسة جانباً هاماً من العقيدة المسيحية، وقد عمدت المسيحية منذ قيامها على تزيين الكنائس ودور العبادة ودورهم بالصور والأيقونات، واتخذها الرهبان وسيلة لتقريب قواعد الدين وتاريخ المسيحية لعقول العامة، فأصبحت صور المسيح والعذراء والقديسين من الدعائم والمؤثرات في كل دور العبادة المسيحية والبيوت والأمتعة والملابس، وأدخلت الديانة السماوية بعض المظاهر مثل السجود أمام الأيقونات، وإيقاد الشموع وتقديم بعض القرابين من الذهب والفضة.

عند الكوارث وشدة الوطأة يهرع الناس إلى الدين ويغرقون في التقوى والإيمان والعودة إلى كل ذي صلة بالخالق، ويرتفع شأن رجال الدين، واعتبر رعايا الدولة الرومانية أن تهديد المسلمين لهم غضب من الله، وقد حمل لواء هذه الدعوة رجال الدين الذين استغلوا هذا الوازع الديني لفرض سيطرتهم وتحقيق أطماعهم السياسية، وأصبح لهم امتيازات واعتقادات وإعفاءات وموارد مالية ضخمة، وصاروا يتحكمون في التجنيد والإعفاء والشئون الزراعية والتجارية، وصارت لهم دولة داخل الدولة، وسلطة نافذة على سلطان الحاكم.

لذا انتهج الإمبراطور ليو الثالث الإيسوري وخلفاؤه من بعده سياسة شديدة وقاسية ضد الأديرة التي انتشرت، والرهبان الذين تسلطوا لوضع حد لحركة الأيقونات وما نجم عنها.

في سنة ٧٢٦ م أصدر الإمبراطور ليو الثالث مرسوماً يقضي برفع الصور المقدسة إلى أعلى وفي أماكن مرتفعة حتى يقلع الناس عن الوقوف والركوع أمام هذه الصور خاشعين مبتهلين، الأمر الذي أدى إلى ثورة شعبية، وكانت هذه الثورة سبباً في زيادة تعنت القائد المنتصر والذي أنقذ العاصمة من حصار المسلمين وصمد أمام غاراتهم، فأصدر مرسوماً آخر يقضي برفع هذه الرسوم والصور والأيقونات من الكنائس والأديرة.

كان هذا المرسوم إيذاناً بتفجر صراع وإشعال ثورة امتدت خارج القسطنطينية، واندلعت الحركة اللايقونية التي استنفذت قوى دولة الروم طوال القرن الثامن الميلادي، حيث نجم عن ذلك صراع طائفي، وناهض معظم رجال الدين سياسة الإمبراطورية، وكانوا يرون أن الصور والتماثيل وسيلة لتقريب الدين إلى أذهان العامة من الناس.

زادت حدة المواجهة بين الإمبراطور ورجال الدين، وتحوّلت إلى فتنة وصراع بين الدولة والكنيسة، وانضمت البابوية إلى رجال الدين، وأصبح العداء بين الإمبراطور والكنيسة، ففصل الإمبراطور ممتلكات الدولة ورفعها عن وصاية البابوية التي كانت تهيمن عليها في فلوريه وصقلية وإليريا، ووضع كل هذه الممتلكات تحت وصاية بطريركية القسطنطينية، وبذلك أصبح ليو يواجه قوى خارجية متمثلة في قوة الدولة الإسلامية النامية، وثورة الحركة الدينية الداخلية، ونفوذ رجال الدين القوي.

وظل الأباطرة الرومان يواجهون الكنيسة منذ ليو الثالث وليو الرابع بن قسطنطين والخامس، ثم الإمبراطور القاصر قسطنطين والتي كانت أمه الإمبراطورة إيرين الوصية على العرش.

كان هذا العصر (عصر الإمبراطورة إيرين) والتي حكمت كوصية على العرش من عام (٧٨٠م إلى ٧٩٧).

انغمست الإمبراطورية الرومانية في مشاكلها الداخلية الدينية، الأمر الذي دفع الإمبراطورية الرومانية إلى دفع الجزية وشراء السلم ومهادنة المسلمين، وتزامن ذلك مع خلافة هارون الرشيد.

العواصم والثغور:

قبل أن نتحدث عن الصدام العسكري بين الرشيد والروم البيزنطيين وحصار القسطنطينية يجب أن نوضح بعض المصطلحات التي تدل على أماكن المواجهة الحدودية بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية، وأزمنة الغارات والمناوشات المتبادلة، ومواقع الصدامات الحربية، خاصة في عهد هارون الرشيد.

ويقصد بالعواصم سلسلة الحصون الداخلية الجنوبية بطرقها الحربية، وعرفت بالعواصم؛ لأنها تعصم الحدود وتستخدم في صد غارات الروم البيزنطيين، وذلك للتمييز بينها وبين الحصون الشمالية الخارجية الملاصقة لحدود الروم، وهي التي أطلق عليها الثغور؛ لمواجهتها للموانئ أو المنافذ في أرض العدو، وكان إقليم الثغور ينقسم إلى قسمين؛ أحدهما في الشمال الشرقي ويسمى بالثغور الجزرية التي تدافع عن شمال العراق، والثانية الثغور الشامية في الجنوب الغربي القريبة من ساحل خليج الإسكندونة.^(١)

الصوائف والشواتي.

تعتبر قصة العلاقات بين المسلمين والروم من منتصف القرن الثامن إلى منتصف القرن التاسع الميلادي تأريخاً زمنياً لإغارات تبادلها

(١) ياقوت: معجم البلدان.

الطرفان، وكانت الصفة البارزة لتلك الإغارات هي الاستيلاء على معاقل جبال طوروس، والتخلي عنها في أوقات متفرقة مرةً بالكرّ ومرةً بالفرّ لكلا الطرفين.

وكان للمسلمين أوقات معينة يغيرون منها على أراضي دولة الروم، وبعض هذه الإغارات كانت تتم في فصل الربيع والصيف وتسمى بالصوائف، وأخرى تتم في الشتاء وتسمى بالشواتي، وكانت إغارات للضرورات، وكانت تستغرق عشرين يوماً من أواخر فبراير إلى النصف الأول من مارس، وكانت الإغارات والغزوات عند أواخر الدولة الأموية وبدايات الدولة العباسية غير منتظمة، وذلك لانشغال الخلفاء بالصراعات الداخلية وإخماد الفتنة، وكذلك كان الحال بالنسبة لأباطرة الرومان.

عندما آلت الخلافة إلى هارون الرشيد أصبحت إغارات المسلمين على أراضي الدولة البيزنطية منتظمة سنوياً، وقد شجعت الأحوال الداخلية في دولة الروم هارون الرشيد على التوغل في إقليم آسيا الصغرى، وحصوله على كثير من الغنائم.

كانت الخيزران أم هارون الخليفة ابن الرابعة والعشرين عندما تولى الخلافة تريد أن تكون سلطانة البلاد والحاكمة الفعلية في الخلافة، غير أن الوفاة عاجلتها وتركت هارون ليدير شئون البلاد، وعلى الجانب الآخر من الحدود في المعسكر المعادي كانت الإمبراطورة "إيرين" هي الوصية على عرش الدولة البيزنطية وعلى ابنها القاصر قسطنطين السادس، وكانت تلك المرأة من النسوة القلائل اللاتي عرفهن التاريخ في مختلف العصور والبلاد بما اجتمع فيها من أطماع واسعة وصفات فذة.

بلغ قسطنطين سن الرشد وبلغ الثامنة عشر، ونظر في نفسه

الكفاءة لتولي عرش الإمبراطورية وهو يرى أمه تهيمن عليه وعلى الإمبراطورية، وأصبح الاصطدام بين الابن والأم محتوماً، الأمر الذي جعل الإمبراطورة تهادن الخلافة العباسية، ووافقت على أن تدفع للخلافة العباسية جزية سنوية مقابل إقرار السلام بين الدولتين وعدم الاعتداء.

قامت حركة عصيان ضد الإمبراطورة "إيرين" فاضطرت الإمبراطورة للتنازل مكرهة عن العرش وتنصيب قسطنطين، غير أنها ظلت تحيك له المؤامرات وتنصب له الشركاء حتى نجحت أخيراً في القبض عليه، وأمرت بسمل عينيه، وكتبت عليه حياة يقضيها في الظلام^(١)، وبعد أن كانت وصية على العرش من (٧٨٠ إلى ٧٩٧م) أصبحت الإمبراطورة الفعلية من سنة ٧٩٧ إلى ٨٠٣ م.

لم يستتب الأمر لإيرين؛ حيث أصبح العرش مطمعاً للوزراء والأمراء، وأهملت شئون الدولة الخارجية، وانخفضت القدرة العسكرية، وفي نفس الوقت زادت المؤامرات داخل الإمبراطورية حتى تمكن (نقفور) من عزل الإمبراطورة إيرين ونفاها عن البلاد عام ٨٠٣ م - ١٨٧هـ.

بدأ هارون الرشيد حياته العسكرية عام ١٦٣هـ وهو ابن الثامنة عشر، فقد ألقى به المهدي إلى خضم الأحداث، فجعله أميراً للصائفة سنة ١٦٣هـ، وفي سنة ١٦٤هـ ولاء المغرب كله، وفي عام ١٦٥هـ عُيِّن الرشيد أميراً للصائفة مرة أخرى في معركة هامة وصل فيها هارون إلى خليج القسطنطينية، فأوقع الرعب في قلب إيرين التي طلبت الصلح نظير جزية قدرها ٧٠ ألف دينار كل عام وهدنة ثلاث سنوات.

(١) الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم: إبراهيم العدوي.

جاء عصر الرشيد وقد تمكنت الدولة من تأمين الجبهة الداخلية وتوفرت لها عناصر السيادة والقوة والثروة والسلطان، وأصبحت مهيبة الجانب من الداخل والخارج، وصارت القوى المعادية لها تخاف قوتها وتخشى بسطتها، وتخطب ودها، وعلى عكس الأمويين الذين كانوا يزحفون نحو القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية منطلقين من الشام، فقد كانت الدولة العباسية تعتمد في نشاطها الحربي على الغارات المتفرقة في المصائف والشواتي، وذلك لأن الشام كانت ما زالت على ولائها للدولة الأموية، وقد اكتفى العباسيون بهذه الإغارات ليوهموا الأعداء أنهم أقوياء، وأنهم دائماً على أهبة الاستعداد للزحف عليهم والإيقاع بهم، وكان ذلك يتم بشكل منتظم، لذا أطلق عليها الصوائف والشواتي.

معركة هرقله

أسلفنا الحالة الداخلية التي وصلت إليها الدولة البيزنطية والصراع على العرش، والذي انحصر في قوى ثلاثة، هي قوة الإمبراطورة إيرين، وقوة ابنها الملك قسطنطين، وقوة ثالثة متمثلة في الوزراء وقادة الجيوش الساخطين على الإمبراطورة التي سمّلت ابنها واستولت على العرش، إلى أن نجحت القوة الثالثة واعتلى نقفور عرش الدولة البيزنطية وأعلن نفسه إمبراطوراً عليها.

استهل نقفور حكمه بأن أرسل إلى هارون الرشيد رسالة قال فيها:

"من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد:

فإن هذه المرأة - يقصد إيرين - وضعتك موضع الشاه (الملك) ووضعت نفسها موضع الرخ (الشاه والرخ من قطع الشطرنج) وينبغي أن تعلم أنني أنا الشاه وأنت الرخ، فأد إلي ما كانت المرأة تؤدي إليك^(١) (تعيد الجزية التي أدتها إليك من قبل).

(١) صبح الأعشى.

فلما قرأ الخليفة هذه الرسالة استفزه الغضب، وقد ظهر ذلك على وجهه ثم دعى كاتبه وأملى عليه:

من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم:
أما بعد: فقد فهمت كتابك، والجواب ما تراه لا ما تسمعه،
والسلام على من اتبع الهدى.^(١)

وفي صيف عام ٨٠٦ م - ١٩٠ هـ جَيْشَ هارون جيش المسلمين،
ولبس قلنسوة كتب عليها "غازي حاج"، وسار هارون بجيشه الذي
بلغ ١٣٥,٠٠٠ يُسِقِطُ المعازل قلعة تلو أخرى حتى إلى وصل هرقله،
وهي قلعة حصينة في الطريق إلى القسطنطينية، وقام بمحاصرتها وأخذ
يدكها حتى استسلمت وسقطت.

كان نقفور قد أشاع أن سبب قوة المسلمين تكمن في ضعف
الإمبراطورة إيرين، وأنه هو القادر على سحق هؤلاء الرعاع الهمج،
ولكنه وجد نفسه أمام خليفة قوي وجيش جبار وقوة جارفة، فأرسل
يطلب الأمان والسلام على أن يؤدي للخليفة جزية كما كانت
تؤدي إيرين.

كانت سياسة العباسيين التأديب والردع، حيث بدأ الإسلام ينتشر
عن طريق التجارة والتبادل الثقافي بين الدول، فأمن هارون الرشيد
نقفور على أن يدفع الجزية سنويًا، وعاد هارون وجيشه ظافرًا منتصرًا
بعد أن أعاد هرقله للروم.

كان نقفور يعتقد أن حلول فصل الشتاء لن يمكن المسلمين من
العودة، فأسرع بنقض ما عاهد عليه الرشيد، وعاد ليحتل المدن
الإسلامية المتاخمة لهرقله، فعرف الرشيد ذلك فرجع بجيشه وأثخن

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي (أحمد شلبي) - الدولة الإسلامية لإبراهيم
العدوي.

في بلاد الروم، وأعاد فتح هرقله، وعاد نقفور يطلب الأمان والسلام، فاشترط الرشيد على نقفور ألا يعمر هرقله، وعلى أن يدفع ثلاثمائة ألف دينار، وأخذ منها السبايا والعبيد.

ويذكر أن نقفور قد أرسل إلى الرشيد رسالة قال فيها: لعبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم، سلام الله عليكم، أما بعد: أيها الملك، إن لي إليك حاجة لا تضرك في دنياك ولا دينك، هينة يسيرة، أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقله، كنت قد خطبتها على ابني، فإن رأيت أن تسعفني بحاجة فعلت، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.^(١)

واستهداه أيضاً طبيباً وسرادقاً من سرادقاته، فأمر الرشيد بطلب الجارية وكانت ابنة بطريك هرقله، فسلمت، وسرادق كان الرشيد نازلاً فيه، مع آنية ومتاع وعطور وتمور حملها رسول نقفور، وعن هذه الموقعة قال الشاعر:

هَوَتْ هِرْقَلَةٌ لَمَّا أَنْ رَأَتْ عَجَبًا جَوَّ السَّمَاءِ تُرْتَمِي بِالنَّفْطِ وَالنَّارِ
كَأَنَّ نِيرَانَنَا فِي جَنبِ قَلْعَتِهِمْ مُصْبَغَاتٍ عَلَى أَرْسَانِ قِصَارِ^(٢)

كان الرشيد قد اهتم بأمر الجيش، فأنشأ ديوان العرض الذي كان ملحقاً بديوان الحرب، وكانت مهمته استعراض الجنود والوقوف على إمكاناتهم وكفاءتهم، وولى على هذا الديوان مشرفين متخصصين، وقاموا بدراسات في الهندسة الحربية ومهاجمة الحصون وبناء القلاع والحصار والتعبئة، كانت حياة الرشيد حافلة وعمارة بالأحداث الحربية والمواقع وإقامة الحصون، وفك الأسرى ومبادلتهم، فكان يغزو عاماً ويحج عاماً، وكلاهما جهاد في سبيل الله.

(١) الطبري.

(٢) معجم البلدان.

مظاهر القوة في عهد هارون

كان هارون وهو صغير السن يمثل الذراع الطولى للخلافة العباسية، حيث كان أبوه المهدي يوكل إليه قيادة الجيوش والحملات ضد الروم، وكانت انتصاراته العظيمة، لذا اعتبره بعض المؤرخين القدامى أكثر الخلفاء العباسيين الذين جاهدوا ضد الدولة البيزنطية.

وينسب إلى هارون إيجاد تنظيم للشغور لم يعرف من قبله، فقد قام هارون الرشيد عام ١٧٠هـ بإعادة توحيد ثغري الشام والجزيرة، وقام ببناء بعض الحصون في الجبال لتكون خط دفاع ثانياً للشغور، وجعل قصبته أنطاكية، وأطلق عليها اسم العواصم^(١)، وكانت لأهميتها يولى عليها كبار القادة العسكريين، ومنهم ابنه القاسم (الخليفة المعتصم، ومنهم عبد الملك بن صالح وهو ابن عم أبي العباس والمنصور).

وذكر أن هارون قام بتعمير بعض مدن الشغور وأحاط الكثير منها بالأسوار، وأقام القلاع والحصون وأوصدها بالأبواب الحديدية، وأنزل بها الناس، وذلك ليعتصم بها المسلمون من العدو إذا خرجوا من الشغور، أو ليجتمع بها الجند قبل خروجهم لغزو الروم.

وكان الروم قد هاجموا ثغر الحدث الحمراء وأحرقوها، فأعاد هارون بناءها وأقام فيها حامية كبيرة، وأصبحت من النقاط الاستراتيجية، كما أقام مدينة جديدة عرفت بالهارونية^(٢) شرق

(١) الطبري وفتوح البلدان، ومعجم البلدان.

(٢) معجم البلدان.

جيجان في عام ١٨٣هـ، وأصبحت من أهم الثغور والقلاع الحصينة ضد الروم.

في عهد هارون الرشيد عاد نشاط الأسطول الإسلامي بعد أن توقف في أواخر عهد الدولة الأموية، وقد توقفت غزواتهم البحرية وانسحبوا من بعض جزر البحر الأبيض، وفي عهد هارون عاد النشاط البحري بعد أن اهتم هارون بصناعة السفن، وفي ذلك يقول البلاذري صاحب فتوح البلدان: "أقام الرشيد هذه الصناعة - أي صناعة السفن - ما لم يقم قبله، وقسم الأموال في الثغور والسلاح، وربما فكر هارون أن يصل ما بين بحر الروم (البحر الأبيض) وبحر القلزم^(١) (البحر الأحمر) وذلك بعد أن أصبح البحر الأبيض بحيرة عربية - مشروع قناة السويس - ولكن يحيى البرمكي نصحه بالانصراف عن هذا المشروع خوفاً من دخول مراكب الروم إلى البحر الأحمر وتهديد الحجاز.

وكان المهدي قد بدأ استغلال الأسطول ومحاولة تطويره إلا أنه لم يبذل في ذلك جهداً كبيراً^(٢)، أما في عهد هارون فقد عاد البحر الأبيض بحيرة إسلامية، وولى "حميد بن ميعون" ولايات سواحل البحر الأبيض من الشام إلى مصر، وفي تلك الأثناء تم الاستيلاء على بعض الجزر في البحر الأبيض وصارت نقاطاً استراتيجية وقواعد ينطلق منها الأسطول في اتجاه الغرب، وفي عهد هارون تم فتح جزيرة رودس^(٣)، وهي في مواجهة مدينة الإسكندرية المصرية، كانت هذه الجزيرة قد فتحت في عهد معاوية عام ٥٤ هـ ثم استردها الروم، وعاد

(١) المسعودي في مروج الذهب والسيوطي في تاريخ الخلفاء.

(٢) الطبري.

(٣) معجم البلدان.

هارون الرشيد فاقتحمها وأعادها إلى السيادة الإسلامية عام ١٧٥هـ، وتمكن أسطول هارون من فتح كريت، وفي عام ١٩٠هـ - ٨٠٦م تم غزو جزيرة قبرص وهي المقابلة للشام، وكانت هذه الجزيرة قد تم فتحها في عهد عثمان بن عفان واستعادها الروم، إلى أن جاء هارون الرشيد وأعادها إلى حظيرة الدولة العباسية.

كان الصقالبة (البلغار) يسعون لتوطيد حكمهم وسيطرتهم على البلاد حول نهر الدانوب منذ عام ٦٠هـ، ويشاركون الروم حكم البلقان منذ عصر ما قبل الإسلام، حتى دخل بعضهم في الإسلام وأصبحوا مصدر قلق بالنسبة للروم، الأمر الذي حد من حركة الروم ضد المسلمين في هذه البقاع.

في عام ١٨١هـ استولى هارون على قلعة مشهورة من قلاع الروم يطلق عليها قلعة الصفصاف بالقرب من المصيصة على الطريق إلى أنقرة^(١)، وواصل تقدمه نحو أفسوس وأنقرة، الأمر الذي جعل إيرين العظيمة إمبراطورة بيزنطة تطلب الهدنة، مثلما فعلت معه من قبل عندما كان ولياً لعهد المهدي.

رفض هارون طلب الهدنة بإدئ الأمر، ولكنه عاد وقبل الهدنة حتى يمكنه مواجهة الخرز، وقد حافظت إيرين على الهدنة طوال فترة حكمها، حتى قبض عليها نقفور (كلب الروم) واعتلى العرش والذي نقض الهدنة منتهزاً انشغال هارون بالتخلص من البرامكة، وقد أسلفنا موقف هارون من نقفور، وإسقاطه هرقله وهي مدينة قريبة من القسطنطينية.

ويذكر أن عام ١٨٩هـ - ٨٠٥م كان العام الفداء بين المسلمين والروم،

(١) معجم البلدان، تاريخ مختصر الدول.

فلم يبق مسلم أسيراً لدى الروم إلا وفودي به^(١)، وفي سنة ١٩١ غرر الروم بأصدقائه الرشيد وهو يزيد بن مخلد وقتلوه، مما دعا الرشيد أن يرسل هرثمة بن أعين ليلاحق نقفور الذي أوقع بالمسلمين خسائر كبيرة، فأرسل هارون إلى هرثمة المدد، فتمكن هرثمة من اقتحام حصن مطمورة عام ١٩٢هـ، وهرب نقفور إلى بلاد البلغار، فلاقى هناك مقاومة شديدة وقتل في إحدى المعارك عام ١٩٣هـ.

كان هارون من المحاربين الأفاضل والخلفاء المخلصين لدولة الإسلام، حارب في المشرق والمغرب، وأكثر ما جاهد ضد الروم وبشدة أذهلتهم ملوكاً وملكات، أباطرة وسلاطين.

موجز جهاد الخليفة هارون الرشيد

عام ١٧٠هـ - ٧٨٦م: غزا الصائفة القائد سليمان بن عبد الله البكائي، وفيها عمرت طرطوس على يد أبي سليم فرج الخادم التركي، وفيها عزل الرشيد الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين، وجعلها حيناً واحداً وسميت بالعواصم.

عام ١٧٢هـ - ٧٨٨م: غزا الصائفة القائد إسحق بن سليمان بن علي.

عام ١٧٤هـ - ٧٩٠م: غزا الصائفة عبد الملك بن صالح.

عام ١٧٥هـ - ٧٩١م: غزا الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح، فبلغ إفريقية.

عام ١٧٦هـ - ٧٩٢م: غزا الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك وفتح حصناً.

عام ١٧٧هـ - ٧٩٣م: غزا الصائفة عبد الرزاق بن عبد الحميد

(١) الطبري، والنجوم.

التغلبى.

عام ١٧٨هـ - ٧٩٤م: غزا فيها الصائفة معاوية بن زمز بن عاصم،
وغزا الشاتية سليمان بن راشد.

عام ١٨٠هـ - ٧٩٦م: غزا فيها الصائفة معاوية بن زمز بن عاصم.

عام ١٨١هـ - ٧٩٧م: غزا الرشيد أرض الروم واقتحم عنوة حصن
الصفصاف.

عام ١٨٢هـ - ٧٩٨م: غزا فيها الصائفة البطل عبد الرحمن بن عبد
الملك بن صالح، وبلغ مدينة إفيسوس التي يعتقد أنها مدينة أصحاب
الكهف.

عام ١٨٧هـ - ٨٠٢م: وفيها قام القاسم بن الرشيد بغزو الصائفة
وولاه العواصم، وفيها دخل القاسم بن الرشيد أرض الروم وحاصر
مدينة قره، وحاصر العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث حصن
سنان، فبعث إليه الروم ثلاثمائة وعشرين من أسرى المسلمين حتى
يرحل عنهم ويفك حصار قره وسنان، فقام القاسم بفك حصارها.
وفي هذا العام نقض نقفور العهد الذي كان بين الرشيد
والإمبراطورة إيرين، فقام هارون بغزو هرقله على نحو ما تقدم،
وفيها قبل عهد نقفور.

عام ١٨٨هـ - ٨٠٣م: وفيها غزا إبراهيم بن جبريل الصائفة، ودخل
أرض الروم من درب الصفصاف، وفيها انهزم الروم وقتل منهم جند
كثيف وأخذ منهم غنائم كثيرة.

عام ١٨٩هـ - ٨٠٤م: عام الفداء بين الروم والمسلمين على نحو ما
تقدم.

عام ١٩٠هـ - ٨٠٦م: غزا فيها الرشيد بنفسه الصائفة، واتخذ قلنسوة

كتب عليها (غاز حاج) وفيها أعاد فتح هرقله بعد حصار دام ثلاثين يوماً، وفيها خرجت الروم إلى عين زربه ووقع منهم في الأسر جند كثير، وفيها ولي الرشيد حميد بن معيوف سواحل بحر الشام، وأغار على قبرص.

عام ١٩١هـ - ٨٠٧م: وفيها غزا "درب الحدث" مع البطل هرثمة بن أعين وبعد التمكن منها ولي عليها عبد الله بن مالك وولى سعيد بن قتيبة "مرعش".

عام ١٩٢هـ - ٨٠٨م: وفيها كان الفداء بين المسلمين والروم. عام ١٩٣هـ - ٨٠٩م: العام الذي توفي فيه الخليفة هارون الرشيد، وما سبق نجد أنه خاض مع الروم حروباً على مدار الثلاثة والعشرين عاماً الذي قضاها خليفة على المسلمين، ذلك غير الصوائف والشواتي التي قام بها وهو ولي للعهد، هذا بالإضافة إلى ما عاناه مع الثورات الداخلية وحالات العصيان التي اجتاحت الكثير من أقاليم الدولة الإسلامية، فتعامل معها بحنكة وسياسة، وتمكن من أن يبقيها تحت راية الدولة العباسية، رغم حصولها على بعض صور الحكم الذاتي.

العلاقات الخارجية في عهد الرشيد

النشاط البري والبحري

تعتبر الحروب مفتاح النشاط ومقدمة لكل ثورة اقتصادية أو ثقافية، وتعتبر العلاقات بين المسلمين والروم من منتصف القرن الثاني الهجري - الثامن الميلادي - إلى منتصف القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي - تاريخاً للنشاط الحربي بين الدولتين، تبادل فيها الطرفان الإغارة والاستيلاء على معاقل جبال طوروس والتخلي عنها بين كرّ وفرّ، ومدّ وجزر.

وسبق أن تحدثنا عن الصوائف والشواتي والغزوات وتوقيتها وضرورياتها، والأطماع السياسية والكبرياء والطموح عند الطرفين الإسلامي والبيزنطي للسيطرة على الثغور والحواصم، واحتلال الجزر في البحرين الأبيض والأحمر، وتبادل الأسرى (الفداء) الأمر الذي أدى إلى وجود مناطق نفوذ لكلا الدولتين.

مناطق النفوذ التجاري:

كان ظهور الإسلام سبباً في استقرار الأوضاع التجارية في العالم الوسيط بعد أن كان الصراع محتدماً بين الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية، وعندما تمكن المسلمون من فتح بلاد فارس وبلاد ما وراء النهر واتسعت الدولة الإسلامية وتنوعت فيها مصادر الدخل، وبدأ الانتعاش الاقتصادي وصارت وريثة نشاط الفرس التجاري في الشرق الأوسط والشرق الأقصى، وافتتح الشام ومصر

أصبح البحر الأبيض بحيرة إسلامية وهو ما عجز عنه الفرس قرونًا طويلة.

وبانتهاء التنافس التجاري بين الروم والفرس أصبح للدولة الإسلامية دور تجاري جديد، وقد أدركت الدولة الإسلامية ضرورة النمو الاقتصادي والتجاري للوقوف على قدم المساواة مع الإمبراطورية الرومانية، ولذا فقد أقبل خلفاء المسلمين على تراث الفرس التجاري في الشرق الأقصى، وأعادوا تنظيمه وتنميته حتى يمكنها المحافظة على الميزان التجاري في العالم الوسيط.

كان الفرس يعتمدون في تجارتهم الشرقية قبل زوال دولتهم على طريقين رئيسيين، أحدهما الطريق البحري إلى الهند والصين، والآخر: الطريق البري المؤدي إلى هاتين المنطقتين، وقد عمد الخلفاء منذ العصر الأموي إلى تأمين الطريقين البري والبحري، وعاد النشاط التجاري يدب في هذه الطرق.

كان العرب وهم دعائم الدولة الإسلامية (الخلافة والإمارة) يأنفون من الاشتغال بالزراعة والصناعة والتجارة، فتركوا ذلك إلى أهالي الأقاليم المفتوحة، دون أن يحدوا من نشاطاتهم وجهودهم، بل شجع العرب الفرس على متابعة رحلاتهم التجارية إلى سيلان والصين والهند، وأسس العرب ميناء البصرة، ووضعوا حامية في عبادان على إحدى الجزر، وذلك لحماية الأساطيل التجارية.

وجاء العصر العباسي ليدخل العرب ميدان التجارة، وفي عهد هارون الرشيد زاد النشاط التجاري، وقامت الرحلات البحرية من بغداد إلى شبه جزيرة سلفا (الملايو) والصين، وكانت زيادة الثروات داعماً لكثرة الرحلات للحصول على العطور والتوابل والحرير.

وقد صبغ هذا النشاط التجاري بصبغة دينية، حيث قام التجار المسلمون بالعمل على نشر الدين الإسلامي على مختلف الطرق التجارية البرية والبحرية، ويذكر أن كثيراً من التجار المسلمين اتخذوا من بعض المدن مقراً لتجارتهم، فمثلاً في مدينة (خانفو) جنوب شنغهاي بالصين صارت بها جالية إسلامية كبيرة، فكان لهم قاض مسلم يحكم بينهم حسب الشريعة الإسلامية، وهكذا كان الحال في المدن الهندية الساحلية.

وقد شجع اتساع نطاق التجارة في العصر العباسي الأول، وما قاموا به من إصلاح الطرق وتمهيدها وفرض الأمن عليها، شجع ذلك الرحالة والتجار المسافرين والقوافل التجارية على ازدياد الكثير من الأقطار، ومنهم من تخصص في الكتابة ووصف المدن والممالك وأحوال البلاد والعباد وصفاً دقيقاً، ودونوا خلاصة تجاربهم فيما يعرف بكتب "مسالك الممالك"، والتي تصف للتجار المسلمين مناطق المنتجات وطرق الوصول إليها.

كان اتخذ العباسيين العراق دار الخلافة، وفي منطقة خصبة تعرف بأرض السواد، وقد أمروا بتعمير هذه الأرض، وشق الترع والقنوات، وكذا اهتموا بالأرض الزراعية في مصر والشام وخراسان، كل ذلك أدى إلى تنوع الحاصلات الزراعية ورواج التجارة بين الأقطار الإسلامية، مما ساعد على قيام بعض الصناعات القائمة على الحاصلات الزراعية والثروات الطبيعية حسب موقع كل ولاية، فازدهرت صناعة العطور وصناعة السجاد والطنافس والحريز وصناعة الزجاج وصقل المعادن.

التبادل التجاري

لم يعتمد المسلمون إلى هدم أسس قائمة، أو فرض نفوذهم بحد

السيف، ولم يقوضوا أركان نظم سائدة، بل تركوا الدين الإسلامي يخرق هذه المجتمعات، وما كانت حروبهم أو جهادهم إلا لحماية هذا الدين من تصلب الفكر الوثني، ومما يذكر أن انتشار الإسلام في كثير من البقاع كان عن طريق التجار المسلمين، فقد أدرك أهالي هذه البلاد أن الشعوب العربية لم تكن شعوباً بربرية أو متغترسة، فتدفق الشريان التجاري إلى بلاد الشام وآسيا الصغرى على أسس متينة راسخة.

تعتبر التجارة من أهم أسس الحضارة، وقد تبين للمسلمين أهمية الاتصال بدولة الروم، بعد أن أصبحت مصر والشام ضمن الولايات الإسلامية، وهما نقاط التقاء الحضارتين، فترك الخلفاء أهالي هذه البلاد يواصلون تعاملهم مع دولة الروم تجارياً، وتأسيساً على مبادئ الإسلام في حرية العقيدة وحماية المقدسات كانت تفد على الأماكن المقدسة المسيحية وفود الحجيج من المسيحيين إلى بيت المقدس، وأصبح حوض البحر الأبيض ميداناً للتجارة، حيث كان الرومان يستوردون من مصر أوراق البردي لصناعة القراطيس (الورق)، وقام اليهود في ذلك الوقت بدور الوسيط التجاري (تجار البحر)؛ إذ كانوا يخرجون من فرنسا ومعهم الجوارى والغلمان والديباج والجلود والفراء والسيوف، ويسافرون بحراً إلى الفرما، ثم ينقلون أحماهم على ظهور الدواب إلى القلزم (السويس)، ومن هناك يركبون البحر مرة ثانية إلى جدة أو السند أو الهند أو الصين، ومن هذه الجهات يعودون وقد حملوا المسك والعود والكافور والدارصيني (الخزف).

التبادل الثقافي

عاشت الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم جارين، تخاصما حيناً وتجارياً، وجنحاً إلى السلم أحياناً وتهادناً، وكانت العلاقة بينهما بين

أخذ ورد، وضررٌ ونفع، وكانت خصائص الدين الإسلامي تمنع قيام السدود والحواجز، وكان كل فريق يحسب في واديه حريصاً متميزاً متحفزاً، ولكن ذلك لم يمنع الركبان من الانتقال بين العالمين، محملين بنتاج الدولتين من علوم وثقافة.

وكان التراث الهيليني (اليوناني) هو ينبوع والمنهل الذي عكف عليه طالبو العلم والثقافة، فقد التقى المسلمون بهذه الثقافة في المدن والولايات التي كانت تحت بسطة الرومان ودخلت الإسلام، فما إن دخلت الشام ومصر في رحاب الدولة الإسلامية حتى أقبل العرب ينهلون من مناهل الحضارة الهلينستية، والتي هي مزيج بين الحضارة الإغريقية والحضارة الشرقية، ومركزها الإسكندرية وحوض البحر المتوسط، وهي تختلف عن الحضارة الإغريقية.

وأقبل المسلمون بحماسة شديدة على نقل التراث اليوناني إلى اللغة العربية، وعملوا على تنمية نصيبهم من هذا التراث الثقافي معتمدين على جهودهم وإبداعهم، وكما تم تعريب الدواوين والنظم الإدارية تم تعريب الكتب، ونشطت حركة الترجمة، وقد زادت عناية المسلمين بالثقافة اليونانية، وكان اتخاذ الأمويين دمشق عاصمة لخلافتهم سبباً في نقل مدرسة الإسكندرية إلى مدينة أنطاكية منذ عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز.

وعندما آلت الخلافة إلى العباسيين بذلوا جهداً عظيماً في إحياء التراث اليوناني، وعلى الرغم من قيام الدولة العباسية على أكتاف الفرس، وخضوعها للنظم السياسية والإدارية والاجتماعية لها، إلا أن الخلفاء العباسيين لم يغفلوا عن أهمية دولة الروم وآثارها في الميدان الثقافي، ويذكر أن أبا جعفر المنصور بعث إلى إمبراطور الروم يطلب كتاباً يونانياً، وقد أجاب طلبه وأرسل إليه كتباً من بينها كتاب

إقليدس.^(١)

وفي عهد المنصور كانت أولى محاولات الترجمة من اليونانية، وقد عكف أبو يحيى بن البطريق على ترجمة بعض كتب جالينوس وأبقراط، وفي زمن هارون الرشيد توسعت حركة الترجمة، وقد عمد هارون الرشيد إلى جلب كتب اليونان القديمة في كل حملاته ضد الروم، وعهد هارون الرشيد إلى يحيى بن ماسويه بترجمة الكتب التي أحضرها من أنقرة وعمورية، وفي كل فروع العلوم الأدبية والطبية والعلمية.

شجع خلفاء العصر العباسي الأول حركة الترجمة إلى اللغة العربية، وما إن حل القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي، إلا وأصبحت اللغة العربية لغة قوية دقيقة البناء، سهلة المنال، طوع العلماء والمفكرين والفلاسفة، وصارت في نفس الوقت لغة التخاطب بين جميع الطبقات، وإن احتفظت بعض القوميات بلغتها القديمة، غير أن الشعوب التي تسكن العراق وسوريا ومصر وفلسطين وتونس والجزائر ومراكش والسودان صارت اللغة العربية هي لغة الفكر والتعبير، وتمكنت منهم وتمكنوا منها.

ويجدر بنا أن نذكر أن اللغة العربية والعقيدة الإسلامية كان لهم أثر بالغ في الحياة الثقافية عند المسلمين من عرب وغيرهم، وجعل منهم وحدة فكرية رائعة، وقد شجع هارون الرشيد على ذلك بدعم كل من أعمل فكره وبرز عطاؤه، ووضع أسس التنوير فبرع المسلمون من عرب وعجم وروم في علوم التفسير والحديث والفقه والسير والمغازي، وعلم التاريخ، وذلك إعمالاً لما في العقيدة الإسلامية من

(١) مقدمة ابن خلدون.

حث على التعلم والتشبيث بأهداب العلم وطلبه ولو كان في الصين، ويدعو إلى إعمال الفكر في الكون الذي نعيش فيه والتبصر والتدبر بأمر الإنسان وأحواله وطباعه، وبدأ الاشتغال بالعلوم الكونية، ومنها الجغرافيا والكيمياء والفيزياء، والفلك والطب والرياضيات، وبذلك تكون العقيدة الإسلامية هي ينبوع الأول للثقافة الإسلامية، والدولة العباسية هي دولة الأمم المتباينة، وهارون الرشيد مسير الحركة الثقافية والعلمية والأدبية وهم تراث كل أمة.

لقد احترمت الحضارة الإسلامية التراث الإنساني الحضاري، ولم تعتمد إلى هدمه وإقامة دولتهم على الركام، ولكنها جعلت منها عوامل مساعدة بعد أن جلت عنهم صدأ القرون وعفن الأيام، وبعثتها من جديد بفكر إسلامي يخضع لعقيدة قوية البنيان.

لقد تولى الخلفاء العرب بالرعاية والعناية والتمويل كل ما آل إليهم من ثمار الحضارة الإغريقية في الشام ومصر والعراق، والحضارة الفارسية القديمة ذات الصلة بالحضارة الهندية، وقدموا من هذه القطوف والثمار غذاء طيباً للإنسانية، يقوي البدن وينير العقل، ويحيي الروح ويوقظ الضمير.

ووضعت بذلك أسس الحضارة الأوربية الحديثة التي انتقلت إليها عبر بلاد الأندلس، وأثناء الحروب الصليبية، ومن خلال فترة الحكم الإسلامي الطويل لصقلية جنوب إيطاليا بعد أن كان الغرب الأوربي سابحاً في بحور الظلام، وغارقاً في مستنقعات التخلف، وقد سادت بينهم عبادة الأيقونات، وانحدرت بينهم القيم الإنسانية، وسيطر الفكر الكهنوتي على جميع مناحي الحياة.

أدى اهتمام العباسيين وخاصة عصر هارون بالحرية الفكرية، وانتشار التعليم، وتيسير سبل المعرفة والثقافة، وجعلها حقاً لكل فرد

وفي تناول الجميع، ففتحت أبواب المساجد وعقدت حلقات العلم، وتوفرت الكتب والمراجع والتراجم دون مصاريف مجاناً، وبدون أعباء مالية، بل ويذكر أن هارون أوقف بعض الأموال لمتلقي العلم، فظهرت طبقة من أبناء العامة بين طبقة المثقفين وأهل المعرفة، وكانوا يترددون على المساجد ينهلون من ينابيع المعرفة، الأمر الذي أدى إلى ظهور الكثير من العلماء والشعراء والأدباء ينتمون إلى أبناء العامة.

وقد أدى ظهور هذه الطبقة من العامة أن اشتغلوا بالبحث في الثقافات التي ينتمون إليها، وعملوا على نقلها إلى العربية، وقد صبغوها بالصبغة الإسلامية، فظهرت روائع الأدب الهندي والفارسي والرومي، وكان ذلك مقدمة للتبادل الثقافي بين العرب والروم من جهة، والفرس والروم من جهة أخرى لتظهر الحضارة الإسلامية وقد صارت مزيجاً من الحضارات القديمة برونق ومفاهيم جديدة، وفي كل مجالات العلوم والثقافة والأدب.

الحركة اللايقونية؛

سبق الحديث عن الحركة اللايقونية والتي تصدى لها الإمبراطور "ليو الثالث"، وكانت أحد أهم المشاكل الداخلية في المجتمع المسيحي الروماني، والتي ظهرت في القرن الثامن الميلادي، وكانت معظم دول الشرق المسيحي البيزنطي قد دخلت في الإسلام، وتأثرت بالثقافة الإسلامية وعقيدتها التي تحرم عبادة الصور وتقديس الأشخاص وإقامة الصلبان.

لم يعمد الخلفاء المسلمون منذ العصور الأولى إلى كبت الحريات الدينية، وجعلت الدخول في الإسلام حرية شخصية، فلم تهدم كنيسة كان أهلها مسلمين، ولم تؤذ رهباناً أو قديساً أو مسيحياً بغير وجه حق، وكانت عليهم الجزية والتي هي بمثابة الزكاة عند

المسلمين، فعاش المسيحيون في الديار الإسلامية آمنين.

نشأ الإمبراطور "ليو الثالث" في بيئة إسلامية تسودها العقيدة الإسلامية والتي تحرم تقديس الصور وأشباهاها، فتأثر بتلك العقيدة وثقافتها، وعندما تولى الحكم أصدر المرسوم المشهور سنة ٧٢٦م، وكان تقديس الصور يشبه الأساطير القديمة التي نشأت لإضفاء بعد خرافي على بعض القديسين، والمعجزات التي جاءت على أيديهم في حروبهم ضد المسلمين.

وكانت مصر والشام هما أهم ميادين الصراع الديني الكنسي بين مؤيدي تقديس الأيقونات ومعارضيهما، وقد تحول هذا الصراع الثقافي إلى صدام دموي بين الجاليات المسيحية التي تعيش في كنف الدولة الإسلامية.

أدب الحروب

لكل أمة موروث ثقافي وأدبي وعقائدي، وتحت وطأة الحروب بين الإمبراطورية الفارسية والرومانية اندثرت بعض الأمم وتناثرت ثقافتها وتحللت عقائدها وتبدلت، ولكن كل أمة كان لها مخزون أدبي شعري (ملاحم) طويلة، حفظت بعضاً من تاريخ هذه الأمم وأبطالها القوميين وإن كانت بشكل أسطوري ولكن يسهل تواردها وتناقلها عبر الأزمان، فكانت الشاهنامة الفارسية، والمهاباراتا الهندية، وجلجامس البابلية، والأوديسا والإلياذة الإغريقية، وبيوليف الأنجلوسكسونية ولينيس وأوزوريس المصرية، وغيرها من الملاحم التي حفظت لكل أمة بعضاً من تراثها وموروثها.

وكان العرب أبرع ما يكونون في علم الكلام واللغة، وكانت ملاحمهم عبارة عن معلقات شعرية، وكان سوق عكاظ ملتقى الأدباء والشعراء، يأتيه العرب من كل أنحاء الجزيرة، وكان الشعر ميدان الفخار، وإظهار البطولات والثراء والجاه والسلطان.

كان خضوع فارس ودخولهم دين الإسلام أسرع من الروم، وقد طالت الحروب بين العرب والروم على مرّ الخلافات الإسلامية، ولكن وطيسها كان حامياً، وناورها مستعرة إبان الخلافة العباسية، وامتدت على طول سواحل البحر الأبيض، وتناوب فيها الطرفان الانتصار والانكسار وإن كانت الغلبة دائماً للمسلمين حتى سقطت القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية.

الحضارة هي تراث متراكم من القيم والموروثات والصراعات، وتبادل الثقافات، والأخذ منها والعطاء، تلك هي قصة الحضارة الإنسانية، فهي نسيج من العقول المبدعة لضرورات ملحة تسهم في رقي الإنسان، وهي ساحة لا تحدها ثغور أو عواصم، ولا تطمسها حروب، ولا يهادنها سلام.

وكان الصراع الإسلامي البيزنطي (الروماني الشرقي) ميداناً للصراع الحربي والفكري والثقافي والأدبي.

وكان الاتصال الثقافي بين العرب والرومان قد جعل كلاً منهم ينظر إلى الآخر نظرة حقيقية واقعية.

وقد أثر ذلك على الحركة الثقافية والأدبية في الجهتين، وظهرت فلسفة جديدة يغلب عليها الطابع الديني، فالعرب ينشدون نشر الدين الإسلامي ويجهدون في ذلك، معتمدين على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وكان الروم البيزنطيون يحملون لواء حماية المسيحية في الشرق، وكلما زاد انتشار الإسلام بين جموع المسيحيين زاد استنفارهم وتصديهم.

وقد أدى الصدام بين العقيدتين إلى ظهور أدب الحرب، وظهرت القصص والأشعار الملحمية التي تمجد البطولة والشجاعة والإقدام، وصارت بعض البطولات أسطورية، والشجاعة قوة خارقة، والإقدام تضحية وفداء، فقام كل فريق يخلد أبطاله بالأشعار والملاحم.

كانت حياة هارون جهاداً مستمراً وحافلاً بالبطولات وعلى جبهات كثيرة، وكان الشعر أحد وسائل التعبير عن الشجاعة والبطولة ومنها:

فَمَنْ يَطْلُبُ لِقَاءَكَ أَوْ يُرْذَهُ فَبِالْحَرَمَيْنِ أَوْ أَقْصَى الثُّغُورِ

ففي أرض الغدو على طمير^(١) وفي أرض الترقه فوق ثور
وما حاز الثغور سواك خلق من المتخلفين على الأمور

وقال مروان بن أبي حفصة:

إن أمير المؤمنين المصطفى قد ترك الصفا فاقمنا صفا^(٢)
وعندما نقض نقفور عهده مع الرشيد وخان الميثاق، فارتد إليه
هارون وأذاقه الهوان وفتح هرقله وهرب منها نقفور وبعض جنده.

قال أبو محمد عبد الله بن يوسف:

نقض الذي أعطيناه نقفور
فتح يزيد على الفتح يومنا
انبشير أمير المؤمنين فأله
فلقد نبأشرت الرعية أن أتى
ورجت يمينك أن تعجل غزوة
أعطاك جزية وطاطا حده
فأجزته من وقعها وكائنها
وصرفت بالطوال العساكر قافلها
نقفور إنك حين تغدر أن نأى
أظننت حين غدرت أنك مقلبت
الفاك حينك في زواجر بخره
إن الإمام على اقتيسارك قادر
ليس الإمام وإن غفلنا غافلها

وعليه دائرة البوار تدور
بالنصر فيه لواءك المنصور
عنه أذاك به الباله كبير
بالنقض عنه وأفد وبشير
تسفي النفوس مكانها مذكور
حدرد الصوادم والردي مخدور
بأقفا شعل الضرام تطير
عنه وجاعك أمين مسرور
عك الإمام لجاهل مغرور
هبتك أمك ما ظننت غرور
قطمت عليك من الإمام بخور
قربت ديارك أم نأت بك دور
لما يسوس بحزمه ويدير

(١) الطمر مشتق من الطمور وهو الوثوب.

(٢) البداية والنهاية وتاريخ الموصل.

مَلِكٌ تَجَرَّدَ لِلجِهَادِ بِنَفْسِهِ
يَا مَنْ يُرِيدُ رِضَى الْإِلَهِ بِسَعْيِهِ
لَا تُصْنَعُ يَنْقَعُ مَنْ يَعْشُ إِمَامَةً
تُصْنَعُ الْإِمَامَ عَلَى الْأَنَامِ فَرِيضَةً
فَعَدُوَّةُ أَبَدًا بِهِ مَقْهُورُ
وَاللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ ضَمِيرُ
وَالنُّصْحُ مِنْ نُصْحَائِهِ مَشْكُورُ
وَلِأَهْلِهَا كَفَّارَةٌ وَطَهُورُ^(١)

وقال أبو العتاهية عندما انتصر هارون الرشيد:

الْبَانِدَاتُ هِرْقَلَةَ بِالْخَرَابِ
عَدَا هَارُونَ يُزْعِدُ بِالْمَنَابِ
وَرَايَاتُ يَحُلُّ النَّصْرُ فِيهَا
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ظَفِرَتْ فَاسْلَمُ
مِنْ الْمَلِكِ الْمُؤَفَّقِ بِالصَّوَابِ
وَيُبْرِقُ بِالْمُذَكَّرَةِ الْقِضَابِ
تَمُرٌ كَانَتْهَا قِطْعُ السَّحَابِ
وَأَنْبَشِرُ بِالْغَنِيمَةِ وَالْإِيَابِ^(٢)
وَفِي الْفِدَاءِ قَالَ الشَّاعِرُ:

وَقُتِّتْ بِكَ الْأَسْرَى الَّتِي سَيِّدَتْ لَهَا
عَلَى جَيْنِ أَعْيَا الْمُسْلِمِينَ فَكَأَنَّهَا
مَجَالِسُ مَا فِيهِمْ حَمِيمٌ يَزُورُهَا
وَقَالُوا سَجُونُ الْمُشْرِكِينَ قُبُورُهَا^(٣)

وتشيد بعض المراجع العربية بمحارب مسلم يطلق عليه عبد الله البطال وتمجد مغامراته وشجاعته في محاربة الروم أثناء حصار القسطنطينية عام ٧١٧م، وقد اشتهر هذا البطل في معركة كرونيون بآسيا الصغرى عام ٧٤٠م، وخلدت ذكرى هذا البطل في ملحمة أسطورية.

وكذلك خلد الروم أبطالها الذين لاقوا حتفهم وقتلوا في حربهم ضد المسلمين، ومنها ملحمة تشيد بأحد رجالها ويدعى "ديجينيس أكرتياس" وقد قام بغارات على أطراف حدود الدولة الإسلامية،

(١) الطبري.

(٢) تاريخ الطبري..

(٣) البداية والنهاية، والنجوم الزاهرة، وتاريخ الخلفاء..

وتصور هذه الملحمة بطولاته ومغامراته، وكذا حياة المحاربين الرومان على الحدود المشتركة، وتعتبر هذه الملحمة مصدراً من مصادر العلاقات الثقافية الأدبية بين الروم والمسلمين، وامتد هذا التواصل الثقافي والأدبي، مروراً بالمعتصم العباسي وحروب عمورية والتي خلدها الشاعر أبو تمام، وفي عصر الحمدانيين في شمال الشام، حيث اشتهر سيف الدولة الحمداني بإغاراته على بلاد الروم، كما اشتهر بمجالس الأدب التي كان يعقدها وينشد فيها أشعار المتنبي الذي قال:

السَيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدَّ بَيْنَ الْجَدِّ وَاللَّعِبِ
يَا يَوْمَ وَقَعَةَ عَمُورِيَّةَ انصرفت عَنْكَ الْمَتَى حُقُلًا مَفْسُؤَلَةَ الْخَلْبِ

وقال أبو فراس الحمداني يصف حملة لسيف الدولة وأسره لأحد الرومان البارزين:

وَأَبَ بَيْسَنْطِينٍ وَهُوَ مُكْبَلٌ ثَخَتْ بِطَارِيقٍ بِهِ وَذَرَّازِرُ
وَوَلَّى عَلَى الرَّسْمِ الدَّمْسَقُ هَارِيَا وَفِي وَجْهِهِ عُذْرٌ مِنَ السَّيْفِ عَاذِرُ

وهذا مما يوضح أثر الحروب بين المسلمين والروم على الأدب الإسلامي، ويلاحظ أيضاً أن بعض الكلمات اليونانية قد دخلت في اللغة العربية والعكس، وقد شاع ذلك وكثر أثناء الاشتغال بحركة الترجمة.

سيادة اللغة العربية:

قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}، وقد أنزل القرآن الكريم باللغة العربية فصار حفظ اللغة العربية أمراً إلهياً، وما يبذله أي إنسان في سبيل ذلك إنما هو سبب من عند الله، والدفاع

عنها تكليف من لدن الخالق العظيم.

وقد أسهمت عروبة الخلفاء في جعل اللغة العربية هي لغة الحضارة الناشئة وسياجها الحامي، وفي العصر العباسي امتدت راية الإسلام من حدود الصين وأواسط آسيا شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن المحيط الهندي والسودان جنوباً، إلى بلاد الترك والخرز والروم البيزنطيين شمالاً، وصارت دولة الإسلام تضم أمماً كثيرة، وشعوباً كثيفة، وأجناساً شتى، ولغات مختلفة، وثقافات متعددة، وفي العصر العباسي الأول كانت هذه الأجناس قد بدأت تنصهر في بوتقة العقيدة الإسلامية، وصارت اللغة العربية هي لغة العقيدة عند المسلمين كافة، ولغة الإدارة والسياسة عند المسلمين وغيرهم من أهل الملل والنحل الأخرى.

هارون ودولة الروم

كان الدين ونشر الدعوة يمثل حداً فاصلاً في علاقة المسلمين وجيرانهم من الأمم الأخرى.

ومنذ فجر الإسلام كان نشر الإسلام هو الهدف الأسمى، وحماية الدعوة والداخلين فيها جهاد مقدس، ولم يجبر أي إنسان على اعتناق الإسلام بالقوة أو حد السيف كما يقال، وبما يدل على ذلك حرية العقيدة لليهود والمسيحيين والمجوس وغيرهم في ديار الإسلام شرقاً وغرباً.

وفي القرن الثاني الهجري كان الإسلام قد بسط جناحه على المشرق واستتب الأمر، إلا من بعض فرق الخوارج وبعض الحركات التي كانت تنادي بالانفصال عن الخلافة ولكن تحت راية الإسلام، وكانت الإمبراطورية الفارسية قد أصبحت في طي النسيان.

أما في الغرب فكانت الإمبراطورية الرومانية ما زالت تبدي بعض المقاومة، وطالت بين دولة الإسلام والروم البيزنطيين الحرب قرونًا طويلة، الأمر الذي حدا بكلتا الدولتين إلى إصدار قوانين دينية استهدفت من ورائها خدمة مصالحها السياسية والتمتع بامتيازات أدبية.

كان أولو الأمر من الخلفاء وأعاونهم في الدولة الإسلامية يعاملون رعاياهم من غير المسلمين على هدي تعاليم الإسلام السامية والتي تنص على أنه "لا إكراه في الدين"، وتجلت روح التسامح الديني في

المعاملة الحسنة التي تمتع بها أصحاب العقائد المخالفة وخاصة المسيحيين واليهود، على اعتبار أنهم أصحاب دين سماوي، وقد وصل الكثير منهم إلى مراتب عالية في الإدارة وشئون المال.

على الجانب الآخر عاملت دولة الروم المسلمين الذين وفدوا إليها معاملة حسنة تعكس الاحترام والتقدير، وفي حين كانت توصم أصحاب العقائد المخالفة للمسيحية على أنهم "هراطقة" يستحقون أشد أنواع التنكيل والتعذيب.

كان لظهور الإسلام وانتشاره بسرعة في الشرق، وهدمه لأسس المجوسية، ودخول الكثير من المسيحيين في الدين الإسلامي وخوف الإمبراطورية الرومانية من اجتياح الدين الإسلامي الغرب المسيحي، خاصة بعد وصوله إلى أسبانيا وصقلية جنوب إيطاليا، أن اعتبرت الإمبراطورية الرومانية نفسها القوى المسيحية الكبرى والمنوط بها الدفاع عن رعاياها المسيحيين في الغرب والموجود منهم في الديار الإسلامية، والدفاع عن مصالحهم.

كان المسيحيون طوال العصر الأموي موضع عطف الخلفاء ورعايتهم، وقد تزوج معاوية من مسيحية على المذهب اليعقوبي تسمى ميسون، وهي أم يزيد خليفة معاوية، وكان الأخطل وهو شاعر مسيحي يدخل على معاوية وينشده القصائد والصلب يتدلى من عنقه، وكذلك كان القديس حنا الدمشقي نديماً ليزيد بن معاوية، ويذكر أن يوحنا الدمشقي كان يعارض شدة السلطات الرومانية في معاملة أتباع الصور المقدسة، وكتب في ظل الخلافة الإسلامية ثلاث مقالات تعد من أروع ما كتب دفاعاً عن الصور المقدسة، وأجاز تقديسها، وقد اتهمه المجمع اللايقوني بأنه يميل إلى الإسلام، وذلك في الوقت الذي كانت الخلافة الإسلامية تحارب هذه

الطائفة بالديار الإسلامية، وذلك يدل على حرية التفكير وحرية العبادة وحرية التعبير.

وفي عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز صدر مرسوم يحتم على المسيحيين اتخاذ سمة خاصة بهم، في الزي والهيئة، ولكن هذا المرسوم لم يدم طويلاً، وعاد المسيحيون إلى حالتهم الأولى، ومثل هذه التصرفات العارضة لم تؤثر على علاقة الدولتين في احترام الشعائر الدينية وإقامة دور العبادة.

وفي العهد العباسي الأول وكما أسلفنا فإن رحى الحرب بين الدولة الإسلامية والدولة الرومانية قد طال أمدها بين كرّ وفرّ، وفي عهد هارون الرشيد راسلت الخلافة العباسية شارلمان إمبراطور الدولة الرومانية في غرب أوروبا، وكان شارلمان قد توج في عام ٨٠٠م على يد بابا روما، وذلك إحياء للدولة الرومانية القديمة بنسق جديد في غرب أوروبا، وذلك بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية (في الشرق والغرب) على يد المسلمين الأوائل وانفرط عقدها.

في أواخر القرن الثاني الهجري وأواخر القرن الثامن الميلادي كان العالم قد انقسم سياسياً إلى معسكرين شرقي وغربي، في القسم الشرقي كانت القوى الإسلامية في تصاعد أمام الدولة الرومانية البيزنطية، وفي القسم الغربي أعاد شارلمان توحيد أوروبا في مواجهة المسلمين بالأندلس وهم فلول الدولة الأموية، وكانت تعادي شارلمان في حين كان نقفور ملك الروم الشرقيين يناصب هارون الرشيد العدا، وهكذا دفعت المصالح بين كل فريق من هذه القوى الكبرى إلى التقارب، وبالفعل تبادل الخليفة هارون الرشيد والإمبراطور شارلمان فيما بين سنتي ٧٩٧، ٨٠٦م السفراء والهدايا، وقد أرسل الرشيد مع سفارته إلى شارلمان بعض المنسوجات والروائح العطرية،

وقيل: ساعة مائية، وأرسل إليه مفاتيح بيت المقدس، وبذلك أصبح شارلمان راعي المسيحيين والحجاج الذين يفدون إلى فلسطين لزيارة كنيسة القيامة وأداء مناسك الحج إليها، ويعتقد أن هارون أراد بذلك تعميق الخلاف بين المسيحيين في الشرق والغرب.

أدت شدة العداء بين هارون الرشيد ونقفور الأول إلى أن أصدر هارون مرسوماً بهدم الثغور الرومانية بما فيها من كنائس ودور في الوقت الذي كان يراعي المسيحيين في ديار الإسلام، حتى أنه أطلق على حي المسيحيين في بغداد (دار الروم) وأطلق لهم حرية العبادة وإقامة الكنائس.

ويذكر أن بعد وفاة شارلمان اضطرت أحوال المسلمين في أوروبا، وعادت الكنيسة الشرقية إلى الهيمنة على رعايا الدولة الرومانية، كما حدث خلاف شديد بين اليعاقبة والنساطرة، وهما مذهبان في المسيحية، وأتباع الكنيسة الشرقية، وقد اتخذت كل طائفة منها ديراً خاصاً بها في بغداد، والأخرى مطرانية في تكريت، وفي عهد الخليفة المأمون تم تنصيب "توماس" من رعايا دولة الروم إمبراطوراً ليقود ثورة ضد الثائر ميخائيل الثاني.

الأدب السلطاني

قال صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا".
وقال العرب: أنفذ من السهم كلمة فصيحة.
وقالوا: البيان بصر، والعبي عمى.
وقالوا: ليس لمنقوص البيان بهاء.
وقيل: تكلم حتى أراك.

وقال ابن عبد ربه عن البلاغة والأدب وأثرهما في النفس البشرية^(١) "سحر البيان يمازج الروح لطافة، ويجري في النفس رقة، والكلام الرقيق مصايد القلوب، وإن منه لما يستعطف المستشيط غيظًا، والمندمل حقدًا، حتى يطفئ جمرة غيظه، ويسل دفائن حقدته، وإن منها لما يستميل قلب اللئيم، ويأخذ بسمع الكريم وبصره، وكم من تخلص من أنشودة الهلاك، وتفلت من حبال المنية، بلطيف التواصل، ولين الجواب، حتى عادت سيئاته حسنات، ويعوض بالثواب بدلا من العقاب.

وكان ابن عبد ربه قد صاحب الرشيد وعاش زمانه وعرف طبيعته، وارتضى خلقه، فكان الرشيد ممن يؤثر فيهم سحر البيان ولطيف الكلام، ويرجعه لطيف التواصل ولين الجواب، فيبدل السيئات بالحسنات، ويعوض بالثواب بدلا من العقاب.
ويذكر أن الرشيد كان يكره الشيعة ويقاثلهم، وكان مسلم بن

(١) العقد الفريد.

الوليد قد رمي عنده بالتشيع فأمر بطلبه، فهرب منه، ثم أمر بطلب أنس بن أبي شيخ، فهرب منه، ثم قبض عليهما وهما عند قينة بغداد، فلما عرف الرشيد ذلك قال: الحمد لله الذي أظفرتني بهما، يا غلام أحضرهما. فلما دخلا قال الرشيد: إيه يا مسلم، أنت القائل:

أَنِسَ الْهَوَىٰ بِنْتِي فِي الْحَشَا وَأَرَاهُ يَطْمَحُ عَنِ بَنِي الْعَبَّاسِ
قال: بل أنا الذي قال يا أمير المؤمنين:

أَنِسَ الْهَوَىٰ بِنْتَ الْعُمُومَةِ فِي الْحَشَا مُسْتَوْجِشًا مِنْ سَائِرِ الْإِبَّاسِ
وَإِذَا تَكَامَلَتِ الْقَضَائِلُ كُنَّا نُمْ أَوْقَىٰ بِذَلِكَ يَا بَنِي الْعَبَّاسِ

فعجب الرشيد من سرعة بديهته، ثم سأله أن يقول شعراً في أنس وذعره فقال:

تَلَمَّظَ السَّيْفُ مِنْ شَوْقٍ إِلَىٰ أَنَسٍ فَذَالْمَوْتُ يَلْحَظُ وَالْقَادَرُ تَنْتَظِرُ
فَلَيْسَ يَبْلُغُ مِنْهُ مَا يُؤَمِّلُهُ حَتَّىٰ يُؤَامِرَ فِيهِ رَأْيُكَ الْقَدَرُ

وبهذا استطاع أن يسترضي الرشيد فعفا عنه، وأجازه، وأما أنس فقد لقي حتفه^(١).

وقال يحيى بن خالد: ما رأيت رجلاً قط إلا هبته حتى يتكلم، فإن كان فصيحاً عظم في صدري، وإن قصر سقط في عيني.

وكان البيت من الشعر يرفع ويخفض، إذا كانت البلاغة قوية التأثير على الناس ارتفع شأن مبلغها وإلا سقط في أعينهم.

وقد روى ابن هشام في سيرته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن نفذ أمره بقتل النضر بن الحارث استمع إلى القصيدة التي رثته فيها أخته قتيلة، ومنها:

(١) المرجع السابق.

أَمْحَمَّةٌ يَا نَجْلَ خَيْرِ كَرِيمَةٍ فِي قَوْمِهَا وَالْفَخْلُ فُخْلٌ مُغْرَقُ
مَا كَانَ ضَرْكَ لَوْ مَنَنْتَ وَرَيْمًا مَنِ الْقَتَى وَهُوَ الْمَغِيظُ الْمُخْتِقُ
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَوْ بَلَغَنِي هَذَا الشَّعْرُ قَبْلَ
قَتْلِهِ لَمَنَنْتُ عَلَيْهِ".^(١)

وقد + زخرت قصور العباسيين بالمجالس الأدبية التي يتناثر فيها
درر الكلام شعراً ونثراً، وتبارى فيها البلغاء والفصحاء، ورفعت أقوام
وخسفت غيرهم، وقطعت رقاب وأحييت غيرها، فقد كانت البلاغة
وحسن البيان في هذه العصور قبة ميزان الرجل، وتسير الكثير من
أمر الحكم، وقد استحكمت هذا الأمر عند العرب منذ الجاهلية.

والأدب بصفة عامة من العلوم المتواترة النقلية، وعرفه العرب قبل
الإسلام، وبينما تأثر العرب ببعض العلوم والثقافات الفارسية
واليونانية إلا أنهم لم يتأثروا بأدابهم في الشعر والنثر، وعلى العكس
فقد أثر الأدب العربي على من حوله.

تطور الأدب العربي خلال العصر الإسلامي، وذلك عندما تغيرت
طبيعة العرب باتصالهم بالبلاد التي تم فتحها والتي كانت لها آداب
سابقة، فكان الأدب في أول الإسلام يحمل معنى دينياً، ثم أصبح
دلالة على الخلق القويم والعمل الصالح، وبعد ذلك صار مدخلاً
للثقافة العامة والإمام بمعظم العلوم، ثم أصبح إطاراً لعلم الكلام
منظومه ونثره.^(٢)

والمنظوم من الكلام هو الشعر، ويقصد به الكلام الموزون والذي
ينتهي بحرف واحد (القافية)، واللغة العربية من أغنى اللغات
وأوسعها، وتزخر بالمتواترات والمترادفات، الأمر الذي جعل تنوع

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي.

(٢) مقدمة ابن خلدون.

الشعر ممكنًا، فكان الرجز والهزج والقريض والمقبوض والمبسوط. وكان الشعر العربي يحمل المشاعر النبيلة وما يتحلون به من شيم وخصال، والمناظرة بالحسب والنسب، وكان سوق عكاظ لكل ذلك ميدانًا، وكم أدى ذلك إلى قيام حروب في الجاهلية، ومن أكبر شعراء العرب في الجاهلية المهلهل وامرؤ القيس والنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى، وعنزة بن شداد، وعلقمة، وعامر بن الطفيل، والأعشى، وغيرهم، ومن النساء هند والخنساء.

وكان الشاعر في الجاهلية يبدأ قصيدته عادة بالبكاء واللوعة والشوق إلى المحبوبة والديار، ويغلب على شعره (القبلية)، ويحرص على إبراز انتمائه لعشيرته، وبمجيء الإسلام أوقف تلك النعرة القبلية والمفاخرة والمباهاة، تلك التي تؤدي إلى صراعات قبلية جاهلية وعصبيات متناحرة.

جاء الإسلام ليؤلف بين القلوب ويطفى نار الشقاق والنفور، فحمد الشعر وتناثر الشعراء خاصة بعد أن نعتهم القرآن الكريم بـ{الغَاوُونَ}، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بشاعر، وعلى ذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمنع الشعر فظهر بعض من الشعراء في عصر النبوة منهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وكعب بن زهير، وعبد الله بن رواحة.

وفي القرن الأول الهجري كانت مكة والمدينة قد نشطت فيها الحركة وزاد ثراؤهما، وكثر روادها من الحجيج والمعتمرين، فعادت دولة الشعر إلى الظهور حيث كان الشعر هو الوسيلة الوحيدة للتسلية والترفيه والتمتع بمباهج الحياة، وعندما انتقلت الخلافة إلى دمشق في العصر الأموي حدثت نهضة جديدة للشعر، وقام الخلفاء الأمويون بتشجيع الشعراء لإظهار حقهم بالخلافة وترسيخ قواعد

حكمهم، وظهر الشعر السياسي عندما قال معاوية: اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر آدابكم.

أدى اهتمام الأمويين بالشعر إلى انتقال الشعراء الحجازيين إلى دار الخلافة بالشام، فعاد الشعر العربي القديم، ومن أشهر شعراء الدولة الأموية الأخطل، وجريز والفرزدق، وذو الرمة وابن قيس، ولبلى الأخيلية.

كانت الخلافة الأموية تقتصر على العنصر العربي، وعندما سقطت قامت الخلافة العباسية وكانت تعتمد على العنصر الفارسي، الأمر الذي غير من وجه الحياة الاجتماعية لدار الخلافة، ومن هذا التطور الأدبي، وذلك بسبب الامتزاج بين الثقافات العربية والفارسية والتركية فيما بعد، لذا فقد سميت الخلافة العباسية بالخلافة الأعجمية.

وسرعان ما تطور الأدب ومقاصده ليتلائم مع الشعوب الداخلة في الإسلام، وزادت حركة النقل والترجمة ودراسة الشعر، وقام الخليل بن أحمد بوضع قواعد للشعر وجعل له موازين (بحوراً)، وحصرها في خمسة عشر بحراً، ثم جاء الأخفش، وزاد بحراً، وهو ما يعرف باسم (العروض)، وبعد أن كان الشعر يروى في المجالس والأسواق أخذ يدون وينقل بين الأمصار، وظهرت أجيال جديدة من الشعراء من أمثال بشار بن برد وأبي العتاهية وأبي نواس، وهم من العجم، وكاد شعرهم يميل إلى اللامبالاة، ويستخف بكل شيء، ويغلب عليه الزندقة، ومنهم البحتري والمتنبي والمعري، وكانوا من الشعراء الذين يتكلمون في فلسفة الحياة والموت والعقائد.

كان ظهور القوميات والحركات الشعوية سبباً في انقسام الثقافة العربية بين العجم المتمسكين بتراثهم الشعبي وعملوا على الاحتفاظ

به، فكانت الشهامة للفردوسي والتي تعتبر أحد الملاحم الشرقية التي تحفظ للفرس تراثهم وحضارتهم، وقد تحولت إلى شعر بعد أن كانت نثرًا (سيرة الملوك)، وجمعها الفردوسي في أكثر من مائة وعشرين من المثنوية المنظومة، وهي تمجيد للحضارة الفارسية، وأصبحت مصدرًا وإلهامًا لكثير من شعراء الفرس.

لم يكن نمو القوميات وظهورها سببًا في الحد من قيمة الشعر والشعراء ودورهم في المجتمع المسلم، وإنما أدى إلى ظهور طوائف في الأدب ومنهم طائفة الشعراء، والتي كانت تلازم الخلفاء خاصة في العصر العباسي، فكان لهم زيٌّ خاص ومكانة مميزة^(١)، وتمنح لهم العطايا والهبات.

ومن فروع الأدب "النثر"، وفي العصر الأموي أنشئ ديوان الإنشاء وكتابة الرسائل، وقد اكتسب هذا الديوان أهمية كبيرة حيث اعتبرت كتابة الرسائل من أهم وسائل التوثيق التاريخي للخلفاء، وكان من أهم كتاب العصر الأموي عبد الحميد الكاتب، وفي العصر العباسي كان ابن المقفع الفارسي كاتب أبي جعفر المنصور، وابن الربيع محمد بن الليث كاتب هارون الرشيد وكان فارسي الأصل، ومن أهم رسائله الرسالة التي بعثت من قبل الرشيد إلى قسطنطين ملك الروم لما حوته من فنون النثر، من حكم وأمثال ومواعظ وعلوم فقهية وطبائع إنسانية وأخلاقية في الدين والدنيا نقلها للانتفاع والاستمتاع في آخر الكتاب.

(١) الجاحظ.

ملتقى الأدب والأدباء

في العصر العباسي الأول، كانت دولة الإسلام تشهد اتساعاً كبيراً، وثراءً عظيماً، ومكانة رفيعة بين جيرانها، وقد اتبع ذلك ازدهار حضاري وثقافي وأدبي، وكان قصر هارون الرشيد ملتقى الحكماء والأدباء والعلماء، وكأنه جمع بين سوق عكاظ ودار الندوة، وصار القصر سوقاً للبلاغة والشعر والتاريخ وعلوم الفقه والحديث والطب والموسيقى والفنون والآداب، وكان هارون الرشيد يجري العطاء لكل رجل دين وصاحب علم ومحترف أدب.

قال الأصمعي: دخلت على هارون الرشيد ومجلسه حافل، فقال: يا أصمعي، ما أغفلك عنا، وأجفاك لحضرتنا؟ قلت: والله يا أمير المؤمنين ما ألاقنتي بلاءً بعدك حتى أتيتك، قال: فأمرني بالجلوس، فجلست وسكت عني، فلما تفرق الناس - إلا أقلهم - نهضت للقيام، فأشار إلي أن اجلس، فجلست حتى خلا المجلس فلم يبق غيري وغيره، ومن بين يديه من الخدم والغلمان، فقال لي: يا أبا سعيد، ما ألاقنتي؟ قلت: امسكتني يا أمير المؤمنين، وأنشدت:

كَفَّاكَ كَفًّا مَا تَلَيْقُ بِرَهْمَا جُودًا وَأَخْرَى تُغْطِ بِالسَّيْفِ
فقال: أحسنت، وهكذا فكن، وقرننا في الملاء، وعلمنا في الخلاء، وأمر لي بخمسة آلاف دينار.^(١)

وقال الأصمعي: كنا عند الرشيد، فقدمت إليه فالوذجة، فقال: يا

(١) تاريخ بغداد.

أصمعي حدثنا بحديث مزرد، فقلت: إن مزرداً أخوا الشماخ كان غلاماً جشعاً، وكانت أمه تؤثر عيالها عليه بالطعام، وكان ذلك يُحفظه "يغضبه"، فخرجت أمه ذات يوم تزور بعض أهلها، فدخل مزرد الخيمة، وعمد إلى صاعٍ دقيق، وصاع تمر، وصاع من سمن فجمعه ثم جعل يأكله وهو يقول:

وَلَمَّا عَدَّتْ أُمِّي تُمَيِّزُ بِنَاتِهَا اغررت عليّ العكم^(١) الذي كان يمنع
لَبِكتُ^(٢) بصاعٍ حنطةٍ صاعٍ عَجْوَةٍ إلى صاع سمن فوقه يتربع
وَدَبَلتُ^(٣) أمثال النافى كأنها رُعوسٌ تقاد^(٤) قطعت يوم تجمع
وَقَلتُ لِبَطْنِي أبشِرِ اليَوْمَ إِنَّهُ حمى أمنا مما تحوز وترقع
فَبِن كُنْتُ مَصْفُورًا فَهَذَا دَوَاؤُهَا وإن كنت غرثانا^(٥) فذا يوم تشبع

فضحك الرشيد حتى استلقى على ظهره، ثم قال: كلوا بسم الله، هذا يوم تشبع يا أصمعي.^(٦)

قال الرشيد للأصمعي يوماً: يا أصمعي، أتعرف للعرب اعتذاراً وندماً؟ ودع النابغة؛ فإنه يحتج ويعتذر. فقال الأصمعي: ما أعرف ذلك إلا لبشر بن أبي حازم الأندى، فإنه هجا أوس بن حارثة بن لأم، فأسره بعد ذلك وأراد قتله، فقالت له أمه - وكانت ذات رأي، والله لا محاهجاء لك إلا مدحه إياك، فعفا عنه.

فقال بشر^(٧):

(١) العكم: صندوق تضع فيه المرأة متاعها.

(٢) البكت: خلطت (تمر ودقيق وسمن).

(٣) دبلت: كومتها وجعلته كتلة.

(٤) تقاد: صغير الغنم ذكر أو أنثى.

(٥) غرثان: جائع.

(٦) عيون الأخبار.

(٧) تاريخ الخلفاء.

إِنِّي عَلَى مَا كَانَ مِنِّي لَنَادِمٌ وَإِنِّي إِلَى أَوْسِ بْنِ نَامٍ لَنَائِبٌ
 وَإِنِّي إِلَى أَوْسٍ لِيَقْبَلَ ثَوْبِي وَيَعْرِفَ وَدِّي مَا حَيَّيْتُ لِرَاغِبٍ
 سَأْمَحُو بِمَذْحِي فِيكَ إِذْ أَنَا صَادِقٌ كِتَابَ هَجَا، سَارَ إِذْ أَنَا كَاذِبٌ

فقال الرشيد للأصمعي: إن دولتي لتحسن ببقائك فيها.

دخل العماني الراجز على الرشيد ينشده وعليه قلنسوة طويلة، وخف ساذج، فقال الرشيد: يا عماني، إياك أن تنشدني إلا وعليك عمامة عظيمة الكور، وخفان لقمان، فبكر إليه من الغد وقد تزيا بزبي الأعراب، ثم أنشده وقبل يده، وقال: يا أمير المؤمنين، قدر الله أنشدت مروان ورأيت وجهه وقبلت يده، وأخذت جائزته، ثم يزيد بن الوليد، وإبراهيم بن الوليد، ثم السفاح ثم المنصور، ثم المهدي، كل هؤلاء رأيت وجوههم، وقبلت أيديهم، وأخذت جوائزهم إلى كثير من أشباه الخلفاء وكبار الأمراء والسادة والرؤساء، والله ما رأيت فيهم أبهى منظرًا، ولا أحسن وجهًا، ولا أنعم كفا، ولا أندى راحة منك يا أمير المؤمنين، فأعظم له الجائزة على شعره، وأضعف له على كلامه، وأقبل عليه فبسطه حتى تمنى جميع من حضر أنه قام ذلك المقام.^(١)

كان الرشيد ذات يوم وأبو يوسف القاضي وعبد الوهاب الكوفي في مجلسه، فتذكروا الرطب، فقال أبو يوسف: السكر أطيب من المشان.^(٢) وقال عبد الوهاب: المشان أطيب، فقال الرشيد: ليحضر الطعام، ودعا من عده من بني هاشم - كانوا هناك - فأقبلوا جميعًا على السكر، وتركوا المشان، فقال الرشيد: قضاوا عليك يا أبا عبد الرحمن وهم لا يعلمون، فقال أبو عبد الرحمن (عبد الوهاب الكوفي): إن لم أر "مشان" قط أردأ من هذا، فقال أبو يوسف: هكذا

(١) عيون الأخبار.

(٢) المشان: نوع من الثمار.

هما إذا اجتماعاً^(١)

وقال إبراهيم بن المهدي: كنت أنا والرشيدي على ظهر خراقة، وهو متوجه نحو الموصل والشطرنج بين أيدينا، فلما فرغنا قال الرشيدي: يا إبراهيم، ما أحسن الأسماء عندك؟ قلت: اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فما الثاني بعده؟ قلت: اسم هارون اسم أمير المؤمنين، قال: فما أسمى؟ قلت: إبراهيم، فزأني وقال: ويلك، أليس هو اسم إبراهيم خليل الرحمن جل وعز، قلت: بشؤم هذا الاسم لقي ما لقي، قال: وإبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: لا جرم، لما سمي بهذا الاسم لم يعش، قال: فإبراهيم الإمام، قلت: بحرفة اسمه قتله مروان الجعدي في جراب النورة، وأزيدك يا أمير المؤمنين؛ إبراهيم بن الوليد خلع، وإبراهيم بن عبد الله بن الحسن قتل، ولم أجد أحداً سمي بهذا الاسم إلا رأيت مقتولاً أو مضروباً أو مطروداً، فما انقضى كلامي حتى سمعت ملاحاً على بعض الحراقات يهتف بأعلى صوته شامخاً رجلاً اسمه إبراهيم، فالتفت إلى الرشيدي، فقلت: يا أمير المؤمنين، أصدقتَ قولي أن أشأم الأسماء إبراهيم؟ فضحك الرشيدي كثيراً.

ودخل ابن السماك على الرشيدي يوماً وبين يديه حمامة تلتقط حباً، فقال له: صفها وأوجز، فقال: كأنما المنظر من ياقوتتين، وتلتقط بدرتين، وتطأ على عقيقتين، وأنشدونا لبعضهم^(٢):

هتقت هاتقة أذنها إلفاً بينين
ذات طوق مثل غط ف الثون ألقى الطرفين

(١) مروج الذهب.

(٢) مروج الذهب.

وتراهنا ناطرة	نحوك من ياقوتين
ترجع الناقاس من	ثقبين كالؤلؤتين
وترى مثل البسا	تين لها قادمتين
ولها لحيان كالصد	عين من عزرتين
ولها ساقان حم	راوان مثل السوردتين
تسجت فوق جنا	حيها لها برنوستين
وهي طاووسية الأ	ون بئان المتكبين
تخت ظل من ظلال ا	لأيك صافي الكتفين
فقدت إلفا فناخت	من تباريح وبين
فهني تبيكه بلا	دمع جمود المقلتين
وهي لائصنغ عينا	ها كما ئصنغ عيني

ودخل معن بن زائدة على الرشيد فمشى وقارب الخطى، فقال له الرشيد: كبرت والله يا معن. فقال معن: في طاعتك يا أمير المؤمنين، قال الرشيد: وإن فيك على ذلك لبقية، قال: هي لك يا أمير المؤمنين، قال: وإنك لجلد، قال: على أعدائك يا أمير المؤمنين. فرضي عنه وولاه.

وذات يوم قال الرشيد لمعن بن زائدة: إني قد أعددتك لأمر كبير. فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعد لك مني قلباً معقوداً بنصحيتك، وبدأً مبسوطاً بطاعتك، وسيفاً مشحوداً على عدوك، فإن شئت فقل الأمر الذي أعددتني إليه.

وقال الكسائي: دخلت على الرشيد، فلما قضيت حق التسليم والدعاء، وثبت للقيام، فقال الرشيد: اقعد، فلم أزل عنده حتى خف عامة من كان في مجلسه، ولم يبق إلا خاصته، فقال لي: يا علي، ألا تحب أن ترى محمداً وعبد الله (الأمين والمأمون)، قلت: ما أشوقني

إليهما يا أمير المؤمنين، وأسرنى بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما، فأمر بإحضارهما، فلم ألبث أن أقبلا ككوكبي أفق يزينهما هدوء ووقار، وقد غضا أبصارهما، وقاربا خطوهما حتى وقفا على باب المجلس، فسلما على أبيهما بالخلافة، ودعوا له بأحسن الدعاء، فأمرهما بالذنو منه، فدنوا فصيرّ محمداً عن يمينه وعبد الله عن يساره، ثم أمرني أن استقرئهما وأسألهما، ففعلت، فما سألتهما عن شيء إلا أحسنا الجواب فيه والخروج منه، فسُرّ بذلك الرشيد حتى تبينته فيه، ثم قال لي: يا علي، كيف ترى مذهبهما وجوابهما، فقلت: يا أمير المؤمنين هما كما قال الشاعر:

أَرَى قَمَرِي مَجْدٍ وَفَرَعِي خِلَافَةٍ يُزَيِّنُهُمَا عِرْقٌ كَرِيمٌ وَمَخْتِذُ

يا أمير المؤمنين هما فرع زكا أصله، وطاب مغرسه، وتمكنت في الثرى عروقه، وعذبت مشاربه، أبوهما أعز، نافذ الأمر، واسع العلم، عظيم الحلم، يحكمان بحكمه، ويستضيئان بنوره، وينطقان بلسانه، ويتقلبان في سعادته، فأمتع الله أمير المؤمنين بهما، وأنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما، ثم قلت لهما: هل ترويان من الشعر شيئاً؟ فقالا: نعم، ثم أنشد محمد:

وَأَنسَى لَعْفُ الْفَقْرِ مُشْتَرِكُ الْغِنَى وَتَارِكُ شَكْلِ لَأِ يُوَافِقُهُ شَكْلِي
وَأَجْعَلُ مَالِي دُونَ عِرْضِي جُنَّةً لِنَفْسِي وَمِقْضَالًا بِمَا كَانَ مِنْ فَضْلِ
ثم أنشد عبد الله:

بَكَرْتَ تَلْوَمُكَ مَطْلَعُ الْقَجْرِ وَلَقَدْ تَلْوَمُ بَغْيَرِ مَا تَذْرِي
تِلْكَ الْأُمُورُ عَلَيَّ مُقْتَدِرٍ يُعْطِي إِذَا مَا شَاءَ مِنْ يَسْرٍ
وَلَرُبَّ مُغْتَبِطٍ بِمَرْزِيئِهِ وَمَقْجَعٍ بِنَوَائِبِ الدَّهْرِ
وَتَرَى قَتَاتِي حِينَ يُغْمِدُهَا عَضُّ النَّقَافِ بِطَيْبَةِ الْكَسْرِ

فما رأيت أحداً من أولاد الخلفاء وأغصان هذه الشجرة المباركة
أذرب^(١) السنأ ولا أحسن الفاظاً ولا أشد اقتداراً على تأدية ما حفظا
منهما، ودعوت لهما دعاءً كثيراً، وأمن الرشيد على دعائي، ثم
ضمهما إليه، وجمع يده عليهما، فلم يبسطها حتى رأيت الدموع
تنحدر على صدره.

رثى هارون الرشيد جاريته هيلانة:

قاسنيت أوجاعا وأخزاننا لما اخنص الموت هيلاننا
فارقت عيشي حين فارقها فما أبالي كيف ما كانا
قد كثر الناس ولكنني لست أرى بغدادك إنسانا
والله لا أنساك ما حرمت ريح باعلى نجد اغصانا

أنشد العباس بن الأحنف الرشيد يوماً قوله^(٢):

طاف الهوى في عباد الله كلهم حتى إذا مر بي من بينهم وقفا

فقال له الرشيد: ما الذي رأى فيك حتى وقف عليك؟

قال العباس: سألتني عن جود أمير المؤمنين فأخبرته، فاستحسن

الرشيد جوابه ووصله.

قال إسحاق الموصلي: حضرت مسامرة الرشيد ليلة "عشرا" المغني،
وكان متأدبا، ويغني الشعر بصوت حسن، فتذاكروا رقة شعر المدنين،
فأنشد بعض جلسائه أبياتا لابن الدمينه حيث يقول:

وأذكر أيام الحمى ثم أنثني على كبدي من خشية أن تصدعا
وليس عشيوات الحمى برواجع عليك ولكن خلّ عينيك تدمعا
بكت عيني اليمنى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

(١) أذرب: أوضع.

(٢) وفيات الأعيان.

فأعجب الرشيد برقة الأبيات، فقال له عبثر: يا أمير المؤمنين، إن هذا الشعر مدني رقيق قد غذي بماء العقيق حتى رق وصفا فصار أصفى من الهواء، ولكن إن شاء أمير المؤمنين أنشدته ما هو أرق من هذا وأحلى وأصلب وأقوى لرجل من أهل البادية. قال الرشيد: فإني أشاء قال: وأترنم به يا أمير المؤمنين؟ قال: ولك ذلك، فغنى لجرير:

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك لا يزال معينا
غِيضُنْ من عبراتهن وقلن لي ماذا لقيت من الهوى ولقينا
روحوا العشية روحة مذكورة إن حزنَ حزننا أو هُدين هُدينا
فرموا بهن سواهما عرض الفلا إن مِثْن مِثْنا أو حَيِين حَيِينا

قال هارون: صدقت يا عبثر. وخلع عليه وأجازته^(١).

قال هارون الرشيد يوما لأحد الشعراء: هل أحدثت فينا شيئا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، المديح فيك دون قدرك، والشعر فيك فوق قدري، ولكن أستحسن قول العتابي:

ماذا يرى قائل يثنى عليك وقد ناداك في الوحي تقديس وتطهير
فَتَّ المَدانح إلا أن ألسنا مستنطقات بما تخفي الضمانير
في عترة لم تقم إلا بطاعتهم من الكتاب ولم تقض المشاعير
هذي يمينك في قرباك صائلة وصارم من سيوف الهند مأثور^(٢)

وقيل: إن الرشيد عمل في الليل بيتا (كتب) ورام أن يشفعه بآخر فلم يتمكن وصعب عليه القول، فقال: عليّ بالعباس، فلما طرق عليه لاستدعائه وكان الوقت متأخرا ذعر وفزع أهله، فلما وقف بين يدي الرشيد قال له: وجهت إليك بسبب بيت قلته ورمت أن أشفعه بمثله فامتنع علي القول، فقال: يا أمير المؤمنين، دعني حتى ترجع إلي نفسي فإني تركت عيالي علي حالة من القلق عظيمة ونالني

(١) المقعد الفريد.

(٢) عيون الأخبار، والطف الفريد.

من الخوف ما يتجاوز الحد والوصف، فانتظر هارون هنيهة ثم أنشده:
جَنَانٌ قَد رَأَيْنَاهَا وَلَمْ نَر مِثْلَهَا بِشَرًّا

فقال العباس بن الأحنف:

يَزِيدُكَ وَجْهَهَا حُسْنًا إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظْرًا

فقال الرشيد زدني فقال:

إِذَا مَا اللَّيْلُ سَالَ عَلَيَّ كَبِّ الْإِظْلَامِ وَاعْتَكَّرَا
وَدَجَ فَلَمْ تَرَقْمَرًا فَابْرَزَهَا تَرَقْمَرًا

فقال الرشيد: قد ذعرتك وأفزعتنا عيالك، وأقل الواجب أن نعطيك
ديتك. وأمر له بعشرة آلاف درهم.

دخل سهل بن هارون على الرشيد وهو يضاحك ابنه المأمون
فقال سهل يدعو للمأمون:

اللهم زده من الخيرات وابسط له من البركات حتى يكون كل
يوم من أيامه موفيا على أمسه مقصرا عن غده.

فقال الرشيد: يا سهل، من روى من الشعر أفصحه ومن الحديث
أوضحه، إذا رام أن يقول لم يعجزه القول؟ قال: يا أمير المؤمنين، ما
أعلم أحدا سبقني إلى هذا المعنى، قال: بلى سبقك أعشي همدان
حيث يقول:

رَأَيْتَكَ أَمْسَ خَيْرَ بَنِي مَعَدٍّ وَأَنْتَ الْيَوْمَ خَيْرَ مَنْكَ أَمْسَ
وَأَنْتَ غَدًا تَزِيدُ الضَّعْفَ خَيْرًا كَذَاكَ تَزِيدُ سَادَةَ عِبْدِ شَمْسٍ

وقال الرشيد: لو قيل للدنيا صفي لنا نفسك، وكانت ممن ينطق
ما وصفت نفسها بأكثر من قول أبي نواس:

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَبِيبَ تَكْشِفَتْ لَهُ عَدُوًّا فِي ثِيَابِ صَدِيقِ

وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين غريق
وكان من عادات الخلفاء أن يوقعوا على كل مظلمة بما يماثل
التعليق عليها، ومن ذلك كتب هارون:

إلى صاحب خراسان: دأو جرحك لا يتسع.

وإلى عامله على مصر: احذر أن تخرب خزائني وخزانة أخي
يوسف، فيأتيك مني ما لا قبل لك به، ومن الله أكثر منه.
وكتب في قصة رجل من البرامكة: أنبتته الطاعة، وحصدته
المعصية.

وإلى عامله في فارس: كن مني على مثل ليلة البيات^(١).

وفي قصة محبوس: من لجأ إلى الله نجا.

وفي قصة متظلم: لا يجاوز بك العدل، ولا يقصر بك دون
الإنصاف.

وكتب إلى والي السند إذ أظهر العصبية: كل من دعا إلى الجاهلية
تعجل إلى المنية.

وكتب إليه نفر متظلم من عامل الأهواز وكان هارون به عارفا: قد
وليناك موضعه فتنكب سيرته.^(٢)

دخلت امرأة على الرشيد وعنده جماعة من الوجهاء، فقالت: يا
أمير المؤمنين، أقرَّ الله عينك وفرَّحَكَ بما آتاك، وأتمَّ سعدك، لقد
حكمت فقسطت. فقال لها: من تكونين أيتها المرأة؟ فقالت: من آل
برمك؛ ممن قتلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نواهم. فقال: أما
الرجال فقد مضى أمر الله ونفذ فيهم قدره، وأما المال فمردود إليك.

(١) منتبهاً بقطاً.

(٢) المقدم الفرید.

ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال: أتدرون ما قالت المرأة؟ قالوا: ما نراها قالت إلا خيرا. قال: ما أظنكم فهمتم ذلك! أما قولها: أقر الله عينك، فتعنى: أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأما قولها: وفرحك بما آتاك، فأخذته من قوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً} ^(١). وأما قولها: وأتم الله سعدك، فأخذته من قول الشاعر:

إذا تم أمر بدا نقصه ترقب زوالا إذا قيل تــــم

وأما قولها لقد حكمت فقسطت فأخذته من قوله تعالى: {وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا} ^(٢).

فتعجب الحاضرون من بلاغة المرأة وفصاحتها، وذكاء الرشيد وفطنته.

هكذا كان الرشيد كيسا فطنا وأديبا مؤدبا، وباحثا مثقفا، وشاعرا فقيها، وخطيبا مفوها، يبذل وينهل، ذكي متقد الذهن، سريع البديهة، عاشق لكل جميل ومبهج، يجمع بين الفصاحة والبلاغة، شأنه شأن أعلام العرب، وكل هذه الصفات تجعله رقيق الحس، لين العريكة، عطوفا رحيمًا، واسع الثقافة، إنسانًا.

العطاء والسخاء:

الكرم خصلة من أفضل خصال العرب، ومن أعظم سجايابهم، وإن كان الكرم من الخصال النبيلة عند الإنسان على وجه العموم فإنها عند العرب أخص وأنبل؛ حيث إن حياة البدو وطبيعة الصحراء تفرض على أهلها الكرم والسخاء؛ وبذلك تغنى العرب، وعدوا

(١) الأنعام: ٤٤.

(٢) الجن: ١٥.

السخاء من أصول المحاسن، وظلت هذه الفضائل معهم أينما ذهبوا
وحيثما أقاموا.

قال الله تعالى: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} (١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تجاوزوا عن ذنب السخي؛
فإن الله أخذ بيده كلما عثر، وفتح له كلما أغلق.

وقال السلف: مَنعُ الموجود سوء ظن بالمعبود، وصاحب المعروف لا
يقع، وإن وقع وجد له متكأ، وإن تقتيرك على نفسك توفير لخزانة
غيرك، وكم من جامع لبعل حليلته. (٢)

دخل أبو العتاهية على الرشيد فأنشده:

الله هون عندك الدنيا وبعاضها إليك
فأبيت إلا أن تصغر كل شيء في يديك
ما هانت الدنيا على أحد كما هانت عليك

فقال الفضل للرشيد: يا أمير المؤمنين، ما مَدِحَتِ الخلفاء بأصدق
من هذا المدح.

فقال الرشيد: يا فضل، أعطه عشرين ألف درهم.

فأكمل أبو العتاهية:

إذا كنت متخذاً خليلاً فمثل الفضل فاتخذ الخليلاً
يرى الشكر القليل له عظيماً ويعطي من مواهبه جزيلاً
أراني حيثما يمت طرفي وجدت على مكارمه دليلاً

وإذا كان العطاء والسخاء من شيم النبلاء والعظماء وذوي القلوب
الرحيمة فإن الرشيد من النبلاء والعظام والأجاويد الكرام، وقد قيل
لشبيب بن شيبه عند باب الرشيد: كيف رأيت الناس؟ قال: رأيت

(١) آل عمران: ٩٢.

(٢) المستطرف في كل فن مستظرف.

الداخل راجياً والخارج راضياً.^(١)

دخل الرشيد مجلسه وهو متكدر النفس، وكان بالمجلس الأصمعي وابن أبي حفص الشطرنجي، فقال الرشيد: يا أصمعي. قال: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: فأيكما قال بيتا وأصاب فيه المعنى الذي في نفسي فله عشرة آلاف درهم. قال ابن أبي حفص: قد حضرني بيت يا أمير المؤمنين. قال: هاته. فأنشأ يقول:

مجلس يألف السرور إليه لمحِب رِيحانة ذمراك

فقال الرشيد: أحسنت والله، يا فضل، أعطه عشرة آلاف درهم، ثم قال ابن أبي حفص: قد حضرني بيت ثان يا أمير المؤمنين. قال: هاته. فأنشأ يقول:

كلما دارت الزجاجاة زادت له حنيناً ولوعة فبكاك

قال الرشيد: أحسنت والله، يا فضل، أعطه عشرة آلاف درهم، قال الأصمعي:

فنزل بي في ذلك اليوم ما لم ينزل قط مثله، أن ابن أبي حفص يرجع بعشرين ألف درهم، ويفخر ذلك المجلس، وأرجع صفراً منها جميعاً! ثم حضرني بيت ثالث، فقال: هاته. فأنشأ يقول:

لم ينلك المنى بأن تحضريني وتجافت أمنيته عن سواك

فقال الرشيد: أحسنت والله، يا فضل، أعطه عشرين ألف درهم، ثم قال هارون: قد حضرني الرابع، فقالوا: إن رأى أمير المؤمنين أن ينشدنا فعل، فأنشأ يقول:

فتمنيت أن يغشيني الله نعاساً لعل عيني تراك

فقالوا: يا أمير المؤمنين، أنت والله أشعر منا، فجوائزنا لأمير المؤمنين.

(١) العقد الفريد.

فقال الرشيد: جوائزكم كما لكم فانصرفوا.^(١)

وقدم هارون الرشيد الكوفة، فكتب قوماً من القراء، فأمر لكل واحد منهم بألفي درهم، فكان داود الطائي ممن كتب فيهم ودعى باسمه أين داود الطائي؟ فقالوا: داود يجيبكم؟ أرسلوا إليه. فقال ابن السماك وحماد بن أبي حنيفة: نحن نذهب إليه، قال ابن السماك لحماد وهما في الطريق: إذا نحن دخلنا عليه فانثرها بين يديه، فإن للعين حظها. فقال حماد: رجل ليس عنده شيء، يؤمر له بألفي درهم يردّها! فلما دخلوا عليه فنثروها بين يديه قال: سوءة، إنما يفعل هذا بالصبيان، وأبي أن يقبلها.^(٢)

في شهر رمضان سنة ١٩٠ هـ كان الرشيد قد فتح هرقله، وفي يوم العيد جلس يتلقى التهاني والتبريكات بالعيدين عيد الفطر وعيد الفتح، وكان من بين المهنئين شعراء كثر، وفيهم أشجع السلمي، فأنشده يقول:

لا زلت تنشر أعيادا وتطويها	تمضي لها بك أيام وتمضيها
ولا تقضت بك الدنيا ولا برحت	يطوي بك الدهر أياما وتطويها
ليهنك الفتح والأيام مقبلة	إليك بالنصر معقودا نواصيها
أمست هرقله تهوي من جوانبها	وناصر الله والإسلام يرميها
ملكتهما وقتلت الناكثين بها	بنصر من يملك الدنيا وما فيها
ماروعي الدين والدنيا على قدم	بمثل هارون راعيه وراعيتها

فاستحسن هارون، وأمر له بعشرة آلاف دينار، وقال: لا ينشد في أحد بعده شيء، فقال أشجع: والله لأمره ألا ينشده أحد من بعدي أحب إلي من صلته.^(٣)

(١) تاريخ بغداد.

(٢) وفيات الأعيان.

(٣) معجم البلدان.

ويذكر أن عهد هارون الرشيد كان عصر الكرم والسخاء. على الغني والفقير، القريب والبعيد، وكان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم، وإذا حج أحج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحج ثلاثمائة بالنفقة السابغة، والكسوة التامة، وكان يحب التشبه بجده أبي جعفر المنصور، إلا في العطاء، فإنه كان سريع العطاء جزيل، وكان يحب الشعراء ويبجل العلماء والفقهاء. ويعطيهم، ولا يضيع لديه بر ومعروف، وقيل عن ذمته: إنه ما مرت به سحابة عليه وأمطرت، وما أنبتت الأرض وأظهرت إلا وكانت تحت تصرفه^(١)، وعلى هذا السخاء والبذل والعطاء والعيشة الهنية الرغداء، فقد كان الرشيد تاركاً بيت المال عامراً وبه ٩٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار^(٢).

هذا هو عصر هارون الرشيد، عصر الثراء والرخاء والعطاء والسخاء، والعدل والازدهار والتقدم والعلم والتحضر، فمتى كان المجون والسفه والزندقة والاستعباد والمهرطقة، وتفشى الفساد وتغليب الأنا والمصلحة سبيل الحاكم لإرساء قواعد سليمة لأمة عظيمة؟

وهل كان هارون الرشيد ماجناً سفيهاً؟!

مجالس الرشيد ورجاله

كان يحيى بن خالد البرمكي وهو الذي بشره بالخلافة يقع للرشيد بمنزلة الأب والمرشد، وكان جعفر والفضل أبناء يحيى بن خالد البرمكي بمنزلة الأخ، وهما إخوته في الرضاع، وذلك قبل البرامكة والتي تحدثنا عنها.

وكان قصر الرشيد قبلة العلماء والحكماء ومجلس الندماء والفقهاء، ومهبط الشعر ومقلعه، وسوق الأدب ومرتعه، وكل من دخله يجد

(١) البداية والنهاية.

(٢) قصة الحضارة.

هواه ومغرمه، فكان قصرًا عامرًا تغدو إليه الناس وتروح، وقد نال كلَّ مطلبه.

يُعرف الرجل من صحبته، والسلطان من حاشيته وبطانته، فإذا كانت الصحبة كريمة كان الرجل نبيلًا، وإذا كانت حاشية السلطان وبطانته ذميمة كان عهده ظلمًا وجورًا، وأحكامه فاسدة، وعواقبه وخيمة.

وكان مجلس الرشيد يجمع أفاضل الرجال، وأجل العلماء، ولا يخلو من الندرة والفكاهة، وكانت حاشية الرشيد من النابهين ذوي العقول الراجحة، والقادة البارزين ذوي الشجاعة والبسالة النادرة، وكان القضاة من ذوي الفقه وأهل المعرفة، وبراءة الذمة وصدق النصيحة.

رأس الحكمة مخافة الله، والعدل أساس الملك، فإذا تولى القضاء رجل حكيم فقيه عاقل ينسب ذلك لمن ولاه وجعله فيما على العباد، ينفذ شرع الله، ويقيم حدوده، وينشر العدل فتستقيم الأمور، ويستتب الأمن، ويعم الرخاء والازدهار.

القضاء وأبو يوسف:

وقد ولي هارون الرشيد "أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب" أمر القضاء، وكانت الدولة الإسلامية قد اتسعت رقعتها، وفاض خيرها، وزاد خراجها، والحاكم الظالم المستبد يتحين مثل هذه الأوضاع فتزيد الأطماع، ويُسَخَّر أهل البلاد والأصقاع في خدمة أهوائه وتنفيذ أطماعه، فينهب ويستغل ويبتذ ويستحل، لكن الرشيد الكيس الأمين، العادل الرزين طلب من "أبي يوسف" أن يضع كتابًا من الشرع والسنة، يكون نبراسًا ومنهجًا لجمع الخراج، بحيث لا يظلم أحد أحدًا من الرعية على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم، ولا يغبن حق الدولة الراعية، فوضع أبو يوسف كتاب (الخراج).

ولم يكن أبو يوسف بالرجل الهين ولا المنافق اللين، فقد قدم في صدر الكتاب نصيحة للخليفة دون خوف ولا وجل، حدد فيها طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم، الراعي والرعية، ليستقيم الأمر ويعم العدل، وقال في مقدمة الكتاب:

" بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما كتب به أبو يوسف - أطال الله بقاءه - إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد:

أطال الله بقاء أمير المؤمنين، وأدام له العز في تمام من النعمة، ودوام من الكرامة، وجعل ما أنعم به عليه موصولاً بنعيم الآخرة الذي لا ينفد ولا يزول، ومرافقة النبي صلى الله عليه وسلم.

إن أمير المؤمنين أيده الله تعالى سألتني أن أضع كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج، والعشور والصدقات والجوالي^(١)، وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به، وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته، والصالح لأمرهم، وفق الله تعالى أمير المؤمنين، وسدده وأعانته على ما تولى من ذلك، وسلمه مما يخاف ويحذر، وطلب أن أبين له ما سألتني عنه مما يريد العمل به، وأفسره وأشرحه، وقد فسرت ذلك وشرحته.

يا أمير المؤمنين، إن الله - وله الحمد - قد قلدك أمراً عظيماً، ثوابه أعظم الثواب، وعقابه أشد العقاب، قلدك أمر هذه الأمة، فأصبحت وأمسيت وأنت تبني لخلق كثير قد استرعاكهم الله، وائتمنك عليهم وابتلاك بهم، وولاك أمرهم، وليس يلبث البنيان - إذا أسس على غير تقوى - أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه وأعان عليه، فلا تضيعن ما قلدك الله من أمر هذه الأمة والرعية؛ فإن القوة في العمل بإذن الله.

(١) الجوالي: جمع جالية، وهي الجماعة التي هجرت أرضها إلى أرض أخرى.

ولا تؤخر عمل اليوم إلى الغد؛ فأقم الحق فيما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهار؛ فإن أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راعٍ سعدت به رعيته، ولا تزغ فتزيع رعيته، وإياك والأمر بالهوى، والأخذ بالغضب؛ وكن من خشية الله على حذر، واجعل الناس عندك في أمر الله سواء القريب والبعيد، ولا تخف في الله لومة لائم؛ واحذر فإن الحذر بالقلب وليس باللسان، واتق الله فإنما التوقي بالتوقي، ومن يتق الله يقه، واعمل لأجل مفضوض، وسبيل مسلوك، وطريق مأخوذ، وعمل محفوظ، ومنهل مورود؛ فإن ذلك المورد الحق، والموقف الأعظم الذي تطير فيه القلوب، وتنقطع فيه الحجج لعزة ملك قهرهم جبروته، والخلق له داخرون، بين يديه ينتظرون قضاءه، ويخافون عقوبته، وكأن ذلك قد كان، فكفى بالحسرة والندامة يومئذ في ذلك الموقف العظيم لمن علم ولم يعمل، يوم تزلّ فيه الأقدام، وتتغير فيه الألوان، ويطول فيه القيام، ويشتد فيه الحساب، يقول الله تبارك وتعالى في كتابه: {وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} (١)، وقال تعالى: {هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ} (٢)، وقال تعالى: {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ} (٣)، وقال تعالى: {كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ} (٤)، وقال: {كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} (٥)، فيا لها من عشرة لا تُقال، ويا لها من ندامة لا تنفع، إنما هو اختلاف الليل والنهار، يُبليان كل جديد، ويُقربان كل بعيد، ويأتیان بكل موعود، ويجزي الله كل نفس بما

(١) الحج: ٤٧.

(٢) الرسائل: ٣٨.

(٣) الدخان: ٤٥.

(٤) الأحقاف: ٣٥.

(٥) النازعات: ٤٦.

كسبت إن الله سريع الحساب، فالله الله فإن البقاء قليل، والخطب خطير، والدنيا هالكة، وهالك من فيها، والآخرة هي دار القرار، فلا تلق الله غداً وأنت سالك سبيل المعتدين، فإن ديّان يوم الدين إنما يدين العباد بأعمالهم، ولا يدينهم بمنازلهم، وقد حذر الله فاحذر، فإنك لم تُخلَق عبثاً، ولن تُترك سدى، وإن الله سائلك عما أنت فيه وعما عملت به، فانظر ما الجواب.

واعلم أنه لن تزول غداً قدما عبد بين يدي الله تبارك وتعالى إلا من بعد المسألة، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لن تزول قدما عبد حتى يُسأل عن أربع: عن علمه وما عمل فيه، وعن عمره فيم أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسده فيم أبلاه".

فأعدّ يا أمير المؤمنين للمسألة جوابها، وإنني أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله، ورعاية ما استرعاك الله، وخاصم نفسك خصومة من يريد الفلج^(١) لها لا عليها.

ولا تنسَ القيام بأمر من ولاك الله أمره فلست تُنسى، ولا تغفل عنهم وعما يصلحهم فليس يُغفلَ عنك، ولا يُضيع حظك من هذه الدنيا في هذه الأيام والليالي كثرة تحريك لسانك في نفسك بذكر الله تسبيحا وتهليلا وتحميدا، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة، وإمام الهدى صلى الله عليه وسلم، وإن الله بمنه ورحمته جعل ولاة الأمر خلفاء في أرضه، وجعل لهم نورا يضيء للرعية ما أظلم عليهم من الأمور فيما بينهم، ويبين ما اشتبه من الحقوق عليهم، وإضاءة نور ولاة الأمر إقامة الحدود، وردها إلى أهلها بالثبوت والأمر البين، وإحياء السنن التي سنّها القوم الصالحون أعظم

(١) الفلج: الفلاح والغوز.

موقعاً، فإن إحياء السنن من الخير الذي يحيا ولا يموت، وجور الراعي هلاك للرعية، واستعانتة بغير أهل الثقة والخير هلاك للعامة، فاستقم ما آتاك الله يا أمير المؤمنين من النعم بحسن مجاورتها، والتمس الزيادة فيها بالشكر عليها، فإن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} (١).

وليس شيء أحب إلى الله من الإصلاح، ولا أبغض إليه من الفساد، والعمل بالمعاصي كفر النعم، وقل من كفر من قوم قط النعمة، ثم لم يفزعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم وسلط الله عليهم عدوهم، وإنني أسأل الله يا أمير المؤمنين الذي منَّ عليك بمعرفته فيما أولاك، أن لا يكللك في شيء من أمرك إلى نفسك، وأن يتولى منك ما تتولى من أوليائه وأحبائه، فإنه ولي ذلك والمرغوب إليه فيك.

وقد كتبت لك ما أمرت به وشرحته لك وبينته، فتفقهه وتدبره، وردد قراءته حتى تحفظه، فإني قد اجتهدت لك في ذلك ولم آلك والمسلمين نصحاً، ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه، وإنني لأرجو - إن عملت بما فيه من البيان - أن يوفر الله لك خراجك من غير ظلم مسلم ولا معاهد، ويصلح لك رعيته، فإن صلاحهم بإقامة الحدود عليهم، ورفع الظلم عنهم، والتظالم فيما اشتبه من الحقوق عليهم، وكتبت لك أحاديث حسنة، فيها ترغيب وتخصيص على ما سألت عنه، مما تريد العمل به إن شاء الله، فوفقك الله لما يرضيه عنك وأصلح بك وعلى يديك".

وقد ساق أبو يوسف بعض أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسنادها، والتي تهيب بالعدل والتقوى والحلم والجهاد في سبيل الله وجهاد النفس، وذم الغضب والجور والجهل والجهالة

(١) إبراهيم: ٧.

والإفراط والتفريط.

لم يكن كتاب "الخراج" سوى منهج اقتصادي إسلامي، اجتهد فيه أبو يوسف وهو صاحب الإمام أبي حنيفة وتلميذه، وقد أوصى أبو حنيفة تلميذه النجيب أبا يوسف وصية حري بنا أن نذكرها؛ لنعرف ذلك الرجل الذي وعى فأوعى، وعُلمَ فعلم، وعرف فترك الغث وتناول الطيب من الكلام والطعام.

قال أبو حنيفة: يا يعقوب، وقر السلطان وعظم منزلته، وإياك والكذب بين يديه، ولا تدخل عليه في كل حال ما لم يدعك حاجة علمية، فإنك إن أكثر الاختلاف إليه تهاون واستخف بك، وصغرت منزلتك في عينيه، فكن منه كما أنت من النار؛ تنتفع بها وتتباعدها، ولا تدن منها؛ فإنك تحترق وتتأذى منها، فإن السلطان لا يرى ما يرى لنفسه، وإياك وكثرة الكلام بين يديه، فإنه يأخذ عليك ما تفوه به، ليرى من نفسه بين يدي حاشيته أنه أعلم منك، وأنه يخطئك فتصغر بذلك في أعين قومه، ولتكن إذا دخلت عليه تعرف قدرك وقدر غيرك، ولا تدخل عليه وعنده من أهل العلم من لا تعرفه، فإنك إن كنت أدون حالاً منه لعلك تترفع عليه فيضرك، وإن كنت أعلم منه لعلك تنحط عنه فتسقط بذلك من عين السلطان، وإذا عرض عليك شيئاً من أعماله فلا تقبل منه إلا بعد أن تعلم أنه يرضيك، ويرضي مذهبك في العلم والقضايا؛ كي لا تحتاج إلى ارتكاب مذهب غيرك في الحكومات، ولا تواصل أولياء السلطان وحاشيته، بل تقرب إليه فقط، وتباعد عن حاشيته؛ ليكون محلك وجاهك باقياً ولا تتكلم بين يدي العامة إلا بما تُسأل عنه.

وإياك والكلام في المعاملة والتجارة، إلا بما يرجع إلى العلم؛ كي لا يوقف منك على رغبة في المال، فإنهم يسيئون الظن بك، ويعتقدون

ميلك إلى أخذ الرشوة منهم، ووسط اليد إليهم.

ولا تضحك فيما بين العامة، ولا تكثر الخروج إلى الأسواق، ولا تكلم الصبيان المراهقين فإنهم فتنة، ولا تمش في قارعة الطريق مع المشايخ من العامة، واعمل بما قاله رسولنا الكريم: "مَنْ لَمْ يُوقَرْ كَبِيرَنَا، وَلَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا فَلَيْسَ مِنَّا".

ولا تقعد على قارعة الطريق، وليكن مقعدك في المساجد، ولا تقعد على الحوانيت، ولا تلبس الديباج والحلي، ولا تكثر الكلام في بيتك مع أهلِكَ في الفراش، ولا تكثر لمسها ومسها، ولا تتزوج امرأة لها بعل أو أب أو أم أو بنت؛ فإن المرأة إذا كانت ذات مال يدعي أبوها أن جميع مالها له، وإياك أن تزف في بيتها؛ فإنهم يأخذون أموالك، وإياك أن تتزوج بذات البنين والبنات؛ فإنها تدخر جميع المال لهم، ولا تجمع بين امرأتين في دار واحدة، ولا تتزوج إلا بعد أن تعلم أنك تقدر على القيام بجميع حوائجها، واطلب العلم أولاً، ثم اجمع المال من الحلال ثم تزوج، فإنك إن اشتغلت بطلب المال في وقت التعلم عجزت عن طلب العلم، ودعاك المال إلى شراء الجواري والغلمان وتشتغل بالدنيا، وإياك أن تشتغل بالنساء قبل تحصيل العلم، فيضيع العلم، ويجتمع عليك الولد ويكثر عيالك؛ فحتاج إلى القيام بحوائجهم وترك العلم، واشتغل بالعلم في عنفوان شبابك ووقت فراغ قلبك وخواطرِك، ثم اشتغل بالمال ليجمع عندك؛ فإن كثرة العيال تشوش البال، فإن جمعت المال فاشتغل بالتزواج.

وعليك بتقوى الله، وأداء الأمانة، والنصيحة لجميع الخاصة والعامة، ولا تستخف بالناس، ووقرهم، ولا تكثر معاشرتهم قبل أن يعاشروك، وقابل معاشرتهم بذكر المسائل؛ فإنه إن كان من تعاشره من أهله اشتغل بالعلم، وإن لم يكن من أهله اجتنبك.

وإياك أن تكلم العامة في أصول الدين والكلام؛ فإنهم قوم يقلدونك فيشتغلون بذلك، ومن جاءك يستفتيك في المسائل فلا تجب إلا عن سؤاله، ولا تضم إليه غيره؛ فإنه يشوش عليه جواب سؤاله، وإن بقيت عشر سنين بلا كسب ولا قوت فلا تعرض عن العلم؛ فإنك إذا عرضت عنه كانت معيشتك ضنكاً على ما قال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا} (١)، وأقبل على متفقهتك كأنك اتخذت كل واحد منهم ابناً وولداً؛ لتزيدهم رغبة في العلم، ومن ناقشك من العامة والسوقة فلا تناقشه؛ فإنه يذهب ماء وجهك، ولا تحتشم أحداً عن ذكر الحق وإن كان سلطاناً.

ولا ترض لنفسك من العبادات إلا بأكثر مما يفعله غيرك ويتعاطاها؛ فإن العامة إذا لم يروا منك الإقبال عليها بأكثر مما يفعلونها اعتقدوا فيك سوء وقلة الرغبة فيها، واعتقدوا أن علمك لا ينفعك إلا ما نفعهم الجهل الذي هم فيه.

وإذا دخلت بلدة فيها أهل العلم فلا تتخذها لنفسك، بل كن كواحد من أهلها؛ ليعلموا أنك لا تقصد جاههم، وإلا يخرجوا عليك بأجمعهم ويطعنون في مذهبك، والعامة يخرجون عليك، وينظرون إليك بأعينهم فتصير مطعوناً عندهم بلا فائدة، ولا تفت إن استفتوك في المسائل، ولا تناقشهم في المناظرات والمطارحات، ولا تذكر لهم شيئاً إلا عن دليل واضح، ولا تطعن في أسأتهم؛ فإنهم يطعنون فيك، وكن من الناس على حذر، وكن لله في سر كما أنت في علانيتك، ولا يصلح أمر العالم إلا بأن يجعل سره كعلانيته، وإذا ولاك السلطان عملاً مما يصلح لك فلا تقبل ذلك منه إلا بعد أن تعلم أنك لو لم تقبله قبله غيرك، ويتضرر به الناس، وبعد أن تعلم أنه إنما يوليئك

(١) طه: ١٢٤.

وكن من الناس على حذر، وكن لله في سرّك كما أنت في علانيتك، ولا يصلح أمر العالم إلا بأن يجعل سره كعلانيته، وإذا ولاك السلطان عملاً مما يصلح لك فلا تقبل ذلك منه إلا بعد أن تعلم أنك لو لم تقبله قبله غيرك، ويتضرر به الناس، وبعد أن تعلم أنه إنما يوليئك ذلك لعلمك، وإياك أن تتكلم في مجلس النظر على خوف ووجل؛ فإن ذلك مما يورث الخلل في الألفاظ واللكن باللسان.

وإياك أن تكثر الضحك؛ فإنه يميت القلب، ولا تكثر محادثة النساء ومجالستهن؛ فإنه يميت القلب أيضاً، ولا تمش إلا على الطمأنينة والسكون، ولا تكن عجولاً في الأمور، ومن دعاك من خلفك فلا تجبه؛ فإن البهائم تنادي من الخلف، وإذا تكلمت فلا تكثر صياحك، ولا ترفع صوتك، واتخذ لنفسك السكون وقلة الحركة عادة؛ كي يتحقق عند الناس ثباتك، وأكثر ذكر الله تعالى فيما بين الناس؛ ليتعلموا منك ذلك، واتخذ لنفسك ورداً خلف الصلوات، تقرأ فيه القرآن، وتذكر الله تعالى وتشكره على ما أودعك من الصبر، وما أولاك من النعم، واتخذ لنفسك أياماً معدودة من كل شهر تصوم فيها؛ ليقتدي غيرك بك في ذلك، ولا ترض لنفسك من العبادات بما ترضى به العامة، وراقب نفسك، وحافظ على العلم؛ لتنتفع في دنياك وآخرتك بعلمك، ولا تشتت بنفسك ولا تبع، بل اتخذ لك غلاماً مصلحاً يقوم بأشغالك، وتعتمد عليه في أمورك، ولا تطمئن إلى دنياك وإلى ما أنت فيه، فإن الله عز وجل سائلك عن جميع ذلك، ولا تشتت الغلمان الرد، ولا تظهر من نفسك إلى السلطان وإن قربوك؛ فإنهم يرفعون إليك الحوائج، فإن قمت بها أعانوك، وإن لم تقم بها أهانوك.

ولا تتبع الناس في خطاياهم، بل اتبعهم في صوابهم، وإذا عرفت

الدين فاذا ذكر ذلك ولا تبال جاهه، فإن الله تعالى معينك وناصرك وناصر الدين، فإذا فعلت ذلك مرة هابوك، ولن يتجاسر أحد على إظهار البدعة في الدين، وإذا رأيت من سلطانك ما لا يوافق العلم فاذا ذكر ذلك مع طاعتك إياه، فإن يده أقوى من يدك، تقول له: أنا مطيع لك في الذي أنت مسلطن فيه علي، غير أنني أذكر من سيرتك ما لا يوافق العلم، فإذا فعلت ذلك مع السلطان مرة كفاك؛ لأنك إذا واطبت عليه ودمت لعلمهم يقمعونك فيكون في ذلك قمع الدين، وافعل ذلك مرة أو مرتين؛ ليعرف منك الجد في الدين، والحرص في الأمر بالمعروف، فإذا فعل ذلك مرة أخرى فادخل عليه وحدك في داره وانصحه في الدين، وناظره إن كان مبتدعا، وإن كان سلطانا فاذا ذكر له ما يحضرك من كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا قبل ذلك منك وإلا فاسأل الله تعالى أن يحفظك منه.

واذا ذكر الموت، واستغفر لأساتذتك ومن أخذت عنهم العلم، وداوم على تلاوة القرآن، وأكثر من زيارة القبور والمشايخ والمواضع المباركة، واقبل من العامة ما يعرضون عليك من رؤيائهم في النبي صلى الله عليه وسلم وفي رؤيا الصالحين في المساجد والمنازل المباركة والمقابر، ولا تجالس أحدا من أهل الأهواء، إلا على سبيل الدعوة إلى الدين والصراف المستقيم، ولا تكثر اللعن والشتم، وإذا أذن المؤذن فتأهب لدخول المسجد؛ كي لا يتقدم عليك العامة.

ولا تتخذ دارك في جوار السلطان، وما رأيت على جارك فاستره عليه، فإنه أمانة عندك، ولا تظهر أسرار الناس، ومن استشارك في شيء فأشر عليه بما تعلم أنه يقربك إلى الله تعالى.

واقبل وصيتي هذه، فإنك تنتفع بها في أولائك وأخراك إن شاء الله تعالى، وإياك والبخل؛ فإنه يفتضح به المرء، ولا تك طماعا ولا كذابا،

ولا صاحب تخاليط، بل احفظ مروءتك في الأمور كلها.

والبس من الثياب البيض في الأحوال كلها، وكن غني القلب مظهرًا من نفسك قلة الحرص والرغبة في الدنيا، وأظهر من نفسك الغنى، ولا تظهر الفقر وإن كنت فقيرًا، وكن ذا همة، فإن من ضعفت همته ضعفت منزلته، وإذا مشيت في الطريق فلا تلتفت يمينا وشمالا، بل داوم النظر إلى الأرض، وإذا دخلت الحمام فلا تساو الناس في أجرة الحمام والمجلس، بل أرجح ما تعطي العامة، لتظهر مروءتك بينهم فيعظموك، ولا تسلم الأمتعة إلى الحائك وسائر الصناع، بل اتخذ لنفسك ثقة يفعل ذلك، ولا تماكس بالحبات والدوانق، ولا تنز الدراهم بل اعتمد على غيرك، وحقر الدنيا المحقرة عند أهل العلم، فإن ما عندك خير منها، وولّ أمورك غيرك ليتمكنك الإقبال على العلم، فذلك أحفظ لجاهك، وإياك أن تكلم المجانين، ومن لا يعرف المناظرة والحجة من أهل العلم والذين يطلبون الجاه، ويستوقون بذكر المسائل فيما بين الناس، فإنهم يقصدون تخجيلك، ولا يبالون منك وإن عرفوك على الحق، وإذا دخلت على قوم كبار فلا تترفع عليهم ما لم يرفعوك، لئلا يلحق من العامة بك منهم أذية، وإن كنت في قوم فلا تتقدم عليهم في الصلاة ما لم يقدموك على وجه التعظيم.

ولا تدخل الحمام إلا وقت الظهيرة أو بالغدوات، ولا تخرج إلى النظارات، ولا تحضر مظالم السلاطين إلا إذا عرفت أنك إذا قلت شيئا ينزلون على قولك في الحق، فإنهم إن فعلوا ما لا يحل وأنت عندهم ربما لا تملك منعهم، ويظن الناس أن ذلك حق؛ لسكوتك فيما بينهم وقت الإقدام عليه، وإياك والغضب في مجلس العلم، ولا تقص على العامة؛ فإن القاص لا بد له أن يكذب، وإذا أردت مجلس العلم لأحد من أهل العلم، فإن كان مجلس فقه فاحضر بنفسك، واذكر فيه

ما تعلمه كي لا يغتر الناس بحضورك، فيظنون أنه على صفة من العلم وليس هو على تلك الصفة، فإن كان يصلح للفتوى فاذا ذكر منه ذلك وإلا فلا تقعد أنت ليدرس بين يديك، بل اترك عنده من أصحابك ليخبرك بكيفية كلامه وكمية علمه، ولا تحضر مجالس الذكر أو من يتخذ مجلس عظة بجاهك وتزكيتك له، بل وجه أهل محلّتك وعامتك الذين تعتمد عليهم مع واحد من أصحابك، وفوض أمر الخطبة في المناكح إلى خطيب ناصيتك، وكذا صلاة الجنائز والعيدين.

ولا تنسني من صالح دعائك، واقبل هذه الموعدة مني وإنما أوصيك لمصلحتك ومصلحة المسلمين.^(١)

لله در الرجلين الواسي والمستوصي، فهذا هو أبو حنيفة، يضع للرجل وصية لو عمل بها الخاصة لكانوا رفقاء للأنبياء والصدّيقين، ولو اجتزأها العامة لصاروا من اتقى الناس وأقربهم إلى الله، ولو صارت سمة عامة في المجتمع لأصبح من أرقى المجتمعات، وها هو أبو يوسف وعى الوصية وعمل بها فصار قاضي القضاة، وكان أول من ولاه القضاء الهادي أخو الرشيد، واستبقاه الرشيد لما عرف فيه من صفات، فقدم للرشيد وصية هي منهاج ودستور لكل حاكم، لم يدهن أو ينافق، وطالبه بأن يقيم حكمه على أسس من التقوى، وأن يعمل شرع الله، وأن يقيم العدل بين الرعية دون محاباة، وطالبه بالروية في الحكم، وأن يحكم بالعقل ويبتعد عن الأهواء والأحقاد والضغائن، وأن يضع قدرة الله أمام عينيه، وأن يحسن اختيار معاونيه والمبادرة إلى أعمال الخير ومعرفة قيمة الوقت، فإنه لا عمل بعد أجل، وأن يكون للرعية المثل والقُدوة "فالناس على دين ملوكهم"، فإذا

(١) حسن التقاضي في سيرة الإمام أبي يوسف القاضي.

زاغ الحاكم زاغت الرعية، وإذا استقام استقاموا، وإن أسعد الحكام وأقربهم إلى الله من سعدت بهم رعاياهم.

وقال الإمام أبو حنيفة -وهو العالم الجليل- عن أبي يوسف: إنه أعلم أصحابه، وقال الحسن بن الوليد: كان أبو يوسف إذا تكلم يدهش الإنسان، ويحير من دقة كلامه، وكان علي بن صالح إذا حدث عن أبي يوسف يقول: حدثني أفقه الفقهاء، وقاضي القضاة، وسيد العلماء، أبو يوسف.

ومن كلام أبي يوسف: "من طلب المال بالكيما^(١) أفلس، ومن تتبع غرائب الحديث كذب، ومن طلب العلم بالكلام تزندق"^(٢).
وقيل عنه الكثير ممن بجلوه ووقروه وأعلوا شأنه.

هذا هو أبو يوسف الذي كان يؤم الرشيد ويحج معه على بعير واحد، ويدخل عليه راكباً بغلته، ويقول الرشيد لمن ينقده: هاتوا إلي بمثله، ورغم ذلك لم يسلم أبو يوسف من الحسد والحقد، وعندما حضره الموت دعا الله قائلاً:

"اللهم إنك تعلم أنني نظرت في كل حادثة وقعت في كتابك، فإن وجدت الفرج وإلا نظرت في سنة نبيك عليه الصلاة والسلام، فإن وجدت الفرج وإلا نظرت في أقاويل الصحابة، فإن وجدت الفرج وإلا جعلت أبا حنيفة جسراً بيني وبينك.

اللهم وإنك تعلم أنني ما اختصم إلي اثنان؛ ضعيف وقوي إلا سويت بينهما، ولم يمل قلبي إلى القوي، اللهم وإن كنت تعلم ذلك فاغفر لي، يا ليتني لم أدخل القضاء، على أنني بحمد الله تعالى ما تعمدت جوراً، ولا حابيت خصماً على خصم من سلطان أو سوقة.

(١) الكيما: الاشتغال بتحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة.

(٢) البداية والنهاية.

اللهم إنك تعلم أنني لم أجُر في حكم حكمت به بين عبادك متعمداً، وقد اجتهدت في الأحكام بما يوافق كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم.

ولما احتضر أبو يوسف قيل له: في نفسك شيء من هذا الأمر؟- يعني القضاء- قال: لا والله، إلا شيئاً واحداً، ادعى نصراني مرة على الرشيد ضيعة، فدعوت بالرشيد والنصراني، فجاء الرشيد ومصلى يُحمل له فجلس عليه، ولم أدع للنصراني بمثله، فذاك في نفسي.

ذاك هو قاضي القضاة أبو يوسف الذي تولى القضاء في عام ١٦٦هـ في خلافة الهادي، واستقر قاضي القضاة في عصر الرشيد حتى توفي عام ١٨٢هـ، لازم فيها الرشيد يُذكره إذا غفل، فكان نعم الرفيق والصديق في الحِلِّ والترحال.

مات أبو يوسف في عام ١٨٢ هـ وهو يناهز ٦٩ عاماً وقد ولي القضاء ١٥ عاماً.

بعد أن توفي أبو يوسف تولى القضاء أبو عبد الله محمد بن الحسن الشيباني، وهو من أصل شامي من دمشق، ولد عام ١٣٢هـ، ونشأ بالكوفة وسمع من أبي حنيفة وسفيان الثوري، وأصبح الفقيه والملازم للرشيد في سفره وحجه، ويقول عنه الشافعي: سمعت محمد بن الحسن يقول: "قمت على باب مالك ثلاث سنين وكسر، وسمعت منه لفظاً أكثر من سبعمائة حديث"، وكان إذا حدث عن مالك امتلاً منزله وكثر الناس عليه، وقيل عنه: "هو من أعلم الناس".

سئل المزني عن أهل العراق، فقيل له: ما تقول في أبي حنيفة؟ قال: سيدهم.

فأبو يوسف؟ قال: أتبعهم للحديث.

فمحمد بن الحسن؟ قال: أكثرهم تفريراً.

فزفر؟ قال: أحدهم قياساً.

وقال المزني: سمعت الشافعي يقول: أمنُّ الناس عليَّ في الفقه محمد

بن الحسن.^(١)

هذا هو القضاء في عهد الرشيد، تولاه رجال لا يخشون إلا الله ولا

يعرفون إلا الحق، لا يفرقون بين الخليفة والرعية، المسلم والذمي.

(١) تاريخ بغداد.

رجال حول الرشيد

ما كان الرشيد نبياً ولا رسولاً ولا ملاكاً يمشي على الأرض، بل هو إنسان يخطئ ويصيب، ولكنه كان يحاول أن يكون إنساناً قيماً وخليفة عادلاً، وقد جمع حوله رجالاً من كل صنف ولون، ودعونا نذكر منهم الصحبة الطيبة.

عبد الله بن مبارك: ذلك العالم الجليل الذي سمع الإمام أبا حنيفة وتلمذ على يده، فجمع العلم والفقه والأدب والنحو واللغة والزهد والشجاعة، والشعر والفصاحة، وقام الليل وصام النهار، حج واعتمر وغزا، ابتعد عن زيف الحديث وصلابة الرأي، ولم يبحث عن الخلاف مع أصحابه.

كانت لهذا الرجل عند الرشيد مكانة عالية، وقال ابن عساكر: أمر هارون بقتل أحد الزنادقة، قال الزنديق: ولم تضرب عنقي؟ قال هارون: أريح الناس منك.

قال الزنديق: فأين أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله وما فيها حرف نطق به؟

قال الرشيد: فأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري وعبد الله بن المبارك، فينخلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً.^(١)

عندما مات ابن المبارك، وبلغ خبره الرشيد قال: مات سيد العلماء، ثم جلس للعزاء، وكان العلماء يعزونه في وفاة عبد الله بن

(١) تاريخ الخلفاء.

المبارك.

الفضيل بن عياض:

من علماء وفقهاء مكة المكرمة، كانت به صلة قوية بهارون الرشيد وتعددت لقاءاتهم، قال الفضل بن الربيع: حج هارون الرشيد، فبينما أنا نائم في داري إذ سمعت قرع الباب، فقلت: من هذا؟ فقال الطارق: أجب أمير المؤمنين، فخرجت مسرعاً، فإذا به أمير المؤمنين، فقلت: يا أمير المؤمنين، لو أرسلت إليّ أتيتك، فقال: ويحك، قد حاك في نفسي شيء لا يخرج به إلا عالم، انظر لي رجلاً أسأله. فقلت: ههنا سفيان بن عيينة.

فقال الرشيد: امض بنا إليه، فأتيناه، فقرعت عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعاً، وقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ أتيتك.

قال الرشيد: جد لنا ما جئنا له، فحادثه ساعة، ثم قال له: عليك دين؟ قال سفيان: نعم، فقال الرشيد: يا عباس، اقض دينه، ثم انصرفنا.

قال الرشيد لابن الربيع: ما أغنى عني صاحبك شيئاً، فانظر لي رجلاً أسأله، فقلت: ههنا عبد الرازق بن همام، فقال: امض بنا إليه نسأله. فأتيناه، فقرعت عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعاً، وقال: يا أمير المؤمنين، لو أرسلت إليّ أتيتك. فقال الرشيد: جد لنا ما جئنا إليه، فحادثه ساعة، ثم قال له: عليك دين؟ فقال عبد الرزاق: نعم، فقال الرشيد: يا عباس اقض دينه. ثم انصرفنا.

فقال الرشيد: ما أغنى عني صاحبك شيئاً، فانظر لي رجلاً أسأله، فقلت: ههنا الفضيل بن عياض، فقال: امض بنا إليه، فأتيناه، فإذا هو

قائم يصلي في غرفته يتلو آية من كتاب الله ويردها، فقرعت الباب،
فقال: من هذا؟

فقلت: أجب أمير المؤمنين.

فقال الفضيل: ما لي وأمير المؤمنين؟

فقلت: سبحان الله، أما عليك طاعته؟

فقال: أوليس قد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:
"ليس للمؤمن أن يذل نفسه"؟ ونزل ففتح الباب، ثم أطفأ السراج،
ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة، فجعلنا نجول عليه بأيدينا -
نتحسس مكانه- فسبقت كف الرشيد كفي إليه، فقال الفضيل: أواه
من كف ما أليتها إن نجت من عذاب الله تعالى، قال: فقلت في
نفسي: ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب تقي.

قال الرشيد: جدُّ لنا ما جئنا له يرحمك الله.

قال الفضيل: وفيما جئت؟ حملت على نفسك، وجميع من معك
حملوا عليك، حتى لو سألتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم أن
يحملوا عنك جزءاً من ذنب ما فعلوه، ولكن أشدهم حباً لك أشدهم
هرباً منك.

ثم قال: إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد
الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة، فقال لهم: إني قد
ابتليت بهذا البلاء، فأشيروا علي، فعدَّ الخلافة بلاءً وشرًّا، وعددتها
أنت وأصحابك نعمة، فقال سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غداً
من عذاب الله فصم عن الدنيا، وليكن إفطارك فيها الموت، وقال محمد
بن كعب: إن أردت النجاة من عذاب الله غداً فليكن كبير المسلمين
-الشيخ- لك أباً، وأوسطهم عندك أخاً، وأصغرهم ولدًا، فعليك أن
تبرَّ أباك وترحم أخاك وتَمُنَّ على ولدك، وقال له رجاء بن حيوة: إذا

أردت النجاة من عذاب الله غداً فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك،
واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم متى شئت مت، وإني لأقول لك هذا،
وإني أخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام، فهل معك رحمك
الله من مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا؟

فبكى الرشيد بكاءً شديداً، حتى غشي عليه، فقال الفضل بن
الربيع: ارفق بأمر المؤمنين، فقال الفضيل بن عياض: يا ابن أم الربيع
قتلت أنت وأصحابك، وأرفق به أنا! ثم أفاق الرشيد، وقال: زدني.
فقال: يا أمير المؤمنين، إن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم
جاءه فقال: يا رسول الله، أمّرني على إمارة، فقال له النبي صلى الله
عليه وسلم: "يَا عَبَّاسُ، يَا عَمَّ النَّبِيِّ، نَفْسٌ تُحِبُّهَا خَيْرٌ مِنْ إِمَارَةٍ لَّا
تُحِبُّهَا، إِنَّ الْإِمَارَةَ حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَّا
تَكُونَ أَمِيرًا فَافْعَلْ".

فبكى هارون بكاءً شديداً، ثم قال: زدني يرحمك الله، فقال: يا
حسن الوجه، أنت الذي يسألك الله تعالى عن الخلق يوم القيامة، فإن
استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإيال أن تصبح وتمسي
وفي قلبك غشٍ لرعيتك، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ
أَصْبَحَ لَهُمْ غَاشًّا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ".

فبكى الرشيد بكاءً شديداً، ثم قال: عليك دين؟

قال الفضيل بن عياض: نعم، دين لربي لم يحاسبني عليه، فالويل
لي إن ناقشني، والويل لي إن لم يلهمني حجتي.

قال الرشيد: إنما أعني دين العباد.

قال الفضيل: إن ربي لم يأمرني بهذا، وأمرني أن أصدق وعده
وأطيع أمره، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)}
مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ

ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ^١!

قال الرشيد: هذه ألف دينار فأنفقها على عيالك، وتقو بها على عبادة ربك.

قال الفضيل: سبحان الله، أنا أدلك على النجاة وتكافئني بمثل هذا! سلمك الله ووفقك، ثم صمت ولم يكلم أحداً.

خرج الرشيد ومن معه، ثم قال: لابن الربيع: إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا، هذا إمام وسيد المسلمين اليوم.

عاصر الرشيد رهطاً من أعظم فقهاء الإسلام، وقد أجلهم وسمع منهم وحضر مجالسهم، وتفقه على أيديهم هو وأبناؤه.

الإمام مالك بن أنس:

أحد الأئمة الأربعة، ومن أصحاب المذاهب المتبعة، وإمام دار الهجرة، ومن رواة الحديث وصاحب كتاب "الموطأ" الذي همّ الرشيد أن يعلقه على أستار الكعبة لولا أن رفض مالك، وقد شد الرشيد إليه الرحال ومعه ولداه الأمين والمأمون، وقد أكثر من زيارته، وكان للإمام مالك هبة وخشية ووقار في قلب الرشيد.

ويذكر أن دخل الرشيد على مجلس الإمام مالك وكان مجلس علم، وعندما دخل الرشيد أخذ مجلسه بجوار الإمام مالك، فقال مالك للخليفة: من تواضع لله رفعة، ومن تكبر وضعه، فقال الرشيد: ماذا صنعت؟ فقال مالك: إن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم في مجلس علمه، فقم واجلس بين يدي. فأسرع الرشيد ممتثلاً.

وكان المهدي والد هارون وموسى الهادي قد ألح على الإمام مالك أن يأتي إلى قصره ليعلم ولديه، غير أن الإمام مالك قال للمهدي: لا

(١) الذاريات: ٥٦ - ٥٨.

يا أمير المؤمنين، العلم يؤتى ولا يأتي، فأرسل الخليفة ولديه إلى الإمام مالك ليتلقيا العلم على يديه، فكانا يقفان عند الباب حتى يأذن لهما وهما أمراء وأبناء الخليفة، وما زال هارون متعلقاً بمالك أستاذه ومعلمه حتى ولى الخلافة، فكان كثير التردد عليه كلما زار المدينة المنورة يأنس إليه ويشاوره في الأمر، وقد بعث الإمام مالك برسالة إلى هارون الرشيد عندما تولى الخلافة قال فيها:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْمُرْسَلِينَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ..

أما بعد:

فإني كتبت إليك بكتاب لم آلك فيه رشداً، ولم أدخرك فيه نصحاً، تحميداً لله وأدباً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتدبر بعقلك، وردّ فيه بصرك، وأعره سمعك، ثم اعقله بقلبك، وأحضر فهمك، ولا تُغَيِّبَنَّ عنه ذهنك، فإن فيه الفصل في الدنيا، وحسن ثواب الله تعالى في الآخرة.

اذكر نفسك في غمرات الموت وكربه، وما هو نازل بك منه، وما أنت موقوف عليه بعد الموت من العرض على الله سبحانه وتعالى، ثم الحساب، ثم الخلود بعد الحساب، وأعد الله عز وجل ما يسهل به عليك أهوال تلك المشاهد وكربها، فإنك لو رأيت أهل سخط الله تعالى، وما صاروا إليه من ألوان العذاب، وشدة نقمته عليهم، وسمعت زفيرهم في النار، وشهيقهم مع كلوح وجوههم وطول غمهم، وتقلبهم في دركاتهما على وجوههم لا يسمعون ولا يبصرون، ويدعون بالويل والثبور، وأعظم من ذلك إعراض الله عنهم، وانقطاع رجائهم، وإجابته إياهم بعد طول الغم بقوله: {اٰخِسْتُوۡا فِيْهَا وَلَا تَكَلِمُوۡنَ} (١)، لم

(١) المؤمنون: ١٠٨.

يتعاطمك شيء في الدنيا إن أردت النجاة من ذلك، ولا أمنك من هوله، ولو قدمت في طلب النجاة منه جميع ما ملك أهل الدنيا كان في معابنتك ذلك صغيراً، ولو رأيت أهل طاعة الله تعالى وما صاروا إليه من كرم الله عز وجل، ونضرة وجوههم ونور ألوانهم وسرورهم بالنعيم المقيم، والنظر إليه والمكانة منه، لتقلل في عينك عظيم ما طلبت به صغير ما عند الله، ولصغر في عينك جسيم ما طلبت به صغير ذلك في الدنيا، فاحذر على نفسك حذراً غير تغرير، وبادر بنفسك قبل أن تُسبَق إليها، وما تخاف الحسرة عند نزول الموت، وخاصم نفسك على مهل وأنت تقدر بإذن الله على جر المنفعة إليها، وصرف الحجة عنها، قبل أن يتولى الله حسابها، ثم لا تقدر على صرف المكروه عنها، واجعل من نفسك لنفسك نصيباً بالليل والنهار، وصلِّ من النهار اثنتي عشرة ركعة، وقرأ فيهن ما أحببت، إن شئت صلهن جميعاً، وإن شئت متفرقات، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مَنْ صَلَّى مِنَ النَّهَارِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ" -سوى الفريضة- وصلِّ من الليل ثمان ركعات بجزء من القرآن، وأعط كل ركعة حقها، والذي ينبغي فيه من تمام الركوع والسجود، وصلهن مثنى مثنى؛ فإنه بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يصلي من الليل ثمان ركعات، والوتر ثلاث ركعات سوى ذلك، يسلم من كل اثنين.

وعليك أن تصوم ثلاثة أيام من كل شهر: الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ"^(١).

وأعط زكاة مالك طيبة بها نفسك حين يحول عليها الحول، ولا تؤخرها بعد حلها، وضعها فيمن أمر الله تعالى، ولا تضعها إلا في

(١) الترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه.

أهل ملتك من المسلمين، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَرْضَ مِنَ الصَّدَقَةِ بِحُكْمِ نَبِيِّ وَلَا غَيْرِهِ^(١)، حَتَّى حَدَّثَهَا هُوَ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَجْزَاءٍ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ}^(٢)، واحجج حجة الإسلام من أطيب مالك وأزكاه عندك، فإن الله تعالى لا يقبل إلا طيبًا، وقال تعالى: {فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ}^(٣)."

وعليك أن تأمر بطاعة الله، وأحبب إليها، وأنه عن معاصي الله تعالى وأبغض إليها، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِتَرْكِهِمْ نَهْيَهُمْ عَنِ الْمَعَاصِي، وَلَمْ يَنْهَهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ، فَمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْزَلَ بِكُمْ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ، فَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لَأَيُّقَدُّمُ أَجَلًا وَلَا يَقَطُّعُ رِزْقًا"، أَحْسِنِ إِلَى مَنْ خَوْلَكَ اللَّهُ تَعَالَى وَاشْكُرْ تَفْضِيلَهُ إِيَّاكَ عَلَيْهِمْ، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يصلي فانصرف وقال: "أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَنْطُ، وَمَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا عَلَيْهَا جَبْهَةٌ مَلَكٍ سَاجِدٍ"^(٤) فمن كان له خول^(٥) فليحسن إليه، ومن كرهه فليستبدل، ولا تعذبوا خلق الله، والزم الأدب، ومن وليت أمره فأدبه، ومن وجب عليك النظر في أمره؛ فإنه بلغني عن النبي

(١) أبو داود.

(٢) التوبة: ٦٠.

(٣) البقرة: ٢٠٣.

(٤) الترمذي وأحمد وابن ماجه والحاكم.

(٥) الخول: العبيد والإماء، والحاشية.

صلى الله عليه وسلم أنه قال للفضل بن العباس: "لَا تَرْفَعْ عَصَاكَ عَلَى أَهْلِكَ، وَأَخْفِهِمْ مِنَ اللَّهِ"^(١)، ولا تستسلم إلى الناس واستجرهم في طاعة الله، ولا تغمص^(٢) الناس، واخفض لهم جناحك، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أَلَا أَحَدْتُكُمْ بِوَصِيَّةِ نُوحٍ لَابْنِهِ، قَالَ: أَمْرُكَ بِأَثْنَيْنِ وَأَنْهَاكَ عَنْ اثْنَيْنِ، أَمْرُكَ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ فِي كِفَّةِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي كِفَّةٍ وَزَنَّتْهَا، وَلَوْ وَضَعْتَهَا عَلَى حَلْقَةٍ قَسَمْتَهَا"، وقل: سبحان الله وبحمده؛ فإنها عبادة الخلق، وبها تقطع أرزاقهم، فإنهما يكثران لمن قالهما الولوج على الله عز وجل، وأنهاك عن الشرك والكبر فإن الله محتجب عنهما".

وسألني بعض أصحابي: أمن الكبر أن يكون لي الدابة النجيبه؟ قال: لا، قالوا: أمن الكبر أن يكون لي الثوب الحسن، قال: لا، قالوا: أمن الكبر أن يكون لي الطعام أجمع عليه الناس؟ قال: لا، إنما الكبر أن تسفه الحق، وتغمص الخلق، وإياك والكبر والزهو فإن الله عز وجل لا يحبهما.

وبلغني عن بعض العلماء: يحشر المتكبرون يوم القيامة في صور الذر^(٣) يطوهم الناس بتكبرهم على الله عز وجل.

ولا تأمن على شيء من أمرك من لا يخاف الله، فإنه بلغني عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: شاور في أمرك الذين يخافون الله.

واحذر بطانة السوء وأهل الردى على نفسك، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مَا مِنْ نَبِيٍّ وَلَا خَلِيفَةٍ إِلَّا وَلَهُ

(١) عن ابن عمر للعسكري.

(٢) تغمص: تحقر.

(٣) الذر: صغار النمل.

بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَبِطَانَةٌ لَهَا تَأْلُوهُ خَبَالًا^(١)، وَهُوَ مَعَ الَّتِي اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَقِيَ بِطَانَةَ السُّوءِ فَقَدْ وَقِيَ"، وَاسْتَبَطْنَ أَهْلَ التَّقْوَى مِنَ النَّاسِ.

وأكرم ضيفك فإنه يحق عليك إكرامه، وارع حق جارك ببذل المعروف، وكف الأذى عنه فإنه يبلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ"^(٢).

وتكلم بخير أو اسكت، فإنه يبلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيْمْسِكْ"^(٣)، واتفق فضول المنطق فإنه بلغني عن ابن مسعود أنه قال: أنذركم فضول المنطق.

وأكرم مَنْ وادك، وكافئه بمودته، وإساک والغضب في غير الله، ولا تأمر بخير إلا بدأت بفعله، ولا تنه عن سوء إلا بدأت بتركه، دع من الأمر ما لا يعينك، فإنه يبلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ"^(٤).

يا أمير المؤمنين: صل من قطعك، واعف عمن ظلمك، وأعط من جرمك، فإنه يبلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إِنَّهَا أَفْضَلُ أَخْلَاقِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ".

واتق كثرة الضحك، فإنه يدعو إلى السفه، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم: أَنَّ ضَحِكَهُ كَانَ تَبَسُّمًا^(٥).

(١) الخبال: الفساد.

(٢) مسلم والترمذي.

(٣) مسلم والترمذي.

(٤) الترمذي وابن ماجه وأحمد في المسند.

(٥) الترمذي وأبو داود.

لا تمزح فتندم نفسك، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إِنِّي لَأَمْزَحُ وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا"، ولا تخالف إلى ما نهيت عنه، وإذا نطقت فأوجز، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "وَأَهْلُ يَكْبُ النَّاسِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ"، ولا تصعر خدك إلى الناس، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ كُلُّ هَيِّنٍ لَّيِّنٍ سَهْلٌ طَلِقٌ".

اترك من أعمال السر ما لا يحسن بك أن تعمله في العلانية، واتق كل شيء تخاف منه تهمة في دينك ودنياك؛ فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَقِفُ مَوَاقِفَ التُّهْمِ"، وأقلل من طلب الحوائج من الناس، فإن في ذلك غضاضة، وبلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لَا تَسْأَلِ النَّاسَ".

وليكن مجلسك بيتك أو مسجدك، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الْمَسَاجِدُ بُيُوتُ الْمُتَّقِينَ"، ولا تكثر الشخوص من بيتك إلا في أمر لا بد منه، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "سِتَّةٌ مَجَالِسُ الْمُسْلِمِ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ مَا كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْهُنَّ: فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَفِي بَيْتِ اللَّهِ، أَوْ فِي عِيَادَةِ مَرِيضٍ، وَشُهُودِ جَنَازَةٍ أَوْ جُمُعَةٍ، أَوْ عِنْدَ إِمَامٍ مُقْسِطٍ يُعَزِّرُهُ وَيُوقِرُهُ".

وأحسن خلقتك مع أهلك، فإنه بلغني عن بعض العلماء من الصحابة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك.

وأحسن البشر إلى عامة الناس، واتق شتمهم وغيبتهم، فإن الله تعالى قال: {أَيُّجِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا} ^(١)، وبلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لَا تَشْتُمِ النَّاسَ".

(١) الحجرات: ١٢.

واتق أهل الفحش ومجالسة أهل الردى، ومحادثة الضعفة من الناس؛ فإنه بلغني عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: اعتبر الناس بأخذانهم، فإنما يخادن الرجلُ الرجلَ مثله. وقيل: "المرءُ على دينِ خليلِهِ".

أكرم اليتيم وارحمه واعطف عليه، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مَنْ كَفَلَ يَتِيمًا لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ كُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ"^(١)، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى فضمهما.

واعرف لابن السبيل حقه، واحفظ وصية الله تعالى فيه، وأعِن المظلوم وانصره ما استطعت، وخذ على يد الظالم، وادفعه عن ظلمه، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مَنْ مَشَى مَعَ مَظْلُومٍ حَتَّى يُثَبِّتَ لَهُ حَقَّهُ ثَبَّتَ اللَّهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الْأَقْدَامُ"^(٢).

واتق اتباع الهوى في ترك الحق، وأنصف الناس من نفسك ولا تستطل عليهم، واغضض بصرك عن محارم الله، واتق المطعم الوبي^(٣)، والمشرب الوبي، والملبس الوبي؛ فإن ذلك يذهب أنفته وتبقى عاقبته، وإن الله سبحانه وتعالى أدبَ رسله، فقال: {كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا}^(٤)، وقال صلى الله عليه وسلم: "مَنْ أَكَلَ بِإِخِيهِ الْمُسْلِمِ أَطْعَمَهُ اللَّهُ مَكَانَهَا أَكَلَهُ مِنْ نَارٍ، وَمَنْ سَمِعَ بِإِخِيهِ الْمُسْلِمِ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَيْسَ بِإِخِيهِ الْمُسْلِمِ ثَوْبًا أَلْبَسَهُ اللَّهُ مَكَانَهُ ثَوْبًا مِنْ نَارٍ"^(٥).

(١) البخاري والترمذي وأبو داود.

(٢) المصادر السابقة.

(٣) المسبب للمرض.

(٤) المؤمنون: ٥١.

(٥) أبو داود وأحمد في المسند.

واقبل عذر من اعتذر إليك وارجع عما كرهت، ولتكن يدك العليا على كل من خالطت، واصحب الأخيار؛ فإنهم يعينونك على أمر الله عز وجل، وصل رحمك وإن قطعك، ولا تكافئه بمثل ما أتى إليك، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم "أن رجلاً قال له: إن لي أقرباء أعفو ويظلمونني، وأصل ويقطعونني، وأحسن ويسيثونني، أفأكافئهم؟ فقال صلى الله عليه وسلم: إِذَنْ تَتْرُكُوا جَمِيعًا، وَلَكِنْ إِذَا أَسَاءُوا فَأَحْسِنْ؛ فَإِنَّهُ لَنْ يَزَالَ لَكَ عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ".

وارحم المسكين المضطر، والغريب المحتاج، وأعنه ما استطعت على أمره؛ فإن كل معروف صدقة، واعطف على السائل وارده من بابك بفضل معروف بالبذل منك ولا تستصغره، وإياك والرياء؛ فإنه بلغني أنه يصعد عمل المرآئي إلى الله عز وجل ولا يزيكه عنده، وإياك وسوء الخلق؛ فإنه يدعو إلى المعاصي، وقال صلى الله عليه وسلم: "خِيَارُكُمْ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا"^(١)، واخضع لله إذا خلوت بعملك، ولا تظلم الناس فيديلهم^(٢) الله عليك، واحذر البغي؛ فإنه عاجل العقوبة، ولا تحلف بغير الله في شيء، وارحم الناس يرحمك الله، وأحب طاعة الله يجيبك الله إلى خلقه.

وقال بعض العلماء: ما أسرَّ عبد قط سريرة خيراً إلا ألبسه الله رداءها. وليكن عليك السكينة والوقار في منطقتك ومجلسك ومركبك، وأعط دابتك إذا ركبها حظها من الأرض، وحظها من المقصد عليها.

وعليك بالحلم والإغضاء عما كرهت، ولا تتبع ذلك من أحد بلغك عنه أذى، ولا تكافئه؛ فإن في ذلك الفضل في الدنيا والآخرة،

(١) أحمد والترمذي.

(٢) يجعل لهم الغلبة عليك.

بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْحَلِيمَ الْحَيَّ الْعَفِيفَ الْمُتَعَفِّفَ" (١). وادفع بالتّي هي أحسن، إذا غضبت من شيء من أمر الله فاذا ذكر ثواب الله على كاظم الغيظ؛ قال عز وجل: {وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ} (٢).

وإذا وعدت موعداً في طاعة الله فلا تخلفه، وإذا قلت قولاً فيه رضا الله فأوف به ودم عليه؛ فقد بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "مَنْ تَكْفَلَ لِي بِسِتِّ أَتَكْفُلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ: إِذَا حَدَّثَ لَمْ يَكْذِبْ، وَوَعَدَ لَمْ يُخْلَفْ، وَإِذَا اتُّمِنَ لَمْ يَخُنْ، وَغَضَّ بَصْرَهُ، وَحَفِظَ فَرْجَهُ، وَكَفَّ يَدَهُ".

وعليك إذا حلفت على يمين ليست من طاعة الله فلا تهين بها وكفرها؛ فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لَا نَذَرَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ" (٣). وكفارتها كفارة يمين، والنذر يمين، وإذا حلفت على يمين، ثم رأيت غيرها خيراً منها، فأت الذي هو خير، وكفر عن يمينك، وإياك والتزيد في القول، وأن تقول قولاً وأنت تعلم أنه لم يكن؛ فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "ثَلَاثَةٌ لَّا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْإِمَامُ الْكَاذِبُ، وَالْعَائِلُ الْمَزْهُوُّ، وَالشَّيْخُ الزَّانِي" (٤).

وما زال مالك بن أنس يسوق للخليفة هارون الرشيد الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، ويسدي إليه النصيحة، وما زال الخليفة يقرأ ويعي وكأنه طالب في محراب العلم.

(١) مسلم وأحمد.

(٢) آل عمران: ١٣٤.

(٣) مسلم والنسائي وأبو داود.

(٤) مسلم والنسائي عن أبي هريرة.

يا أمير المؤمنين: بر والديك وخصهما منك بالدعاء في كل صلاة، وأكثر لهما الاستغفار، وابدأ بنفسك قبلهما، فإن نوح عليه السلام قال: {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ} ^(١)، وبلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي عُمُرِهِ وَيُزَادَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، فَلْيَتَّقِ رَبَّهُ وَلْيَصِلْ رَجْمَهُ" ^(٢). واشكر الناس متى أتوا إليك من خيرهم، وكافئهم إن قدرت عليه، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ".

وإذا أكلت وشربت فاذكر الله، وقل كما كان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَجَعَلَنَا مُسْلِمِينَ".

ولا تسافر ما استطعت إلا في يوم الخميس كما كان يستحب ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا أصابك كرب فقل: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث؛ فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك عند الكرب، واحترس ممن يقرب إليك بالنميمة، وبلغ الكلام عن الناس، بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مَلْعُونٌ مَنِ لَعِنَ أَبَاهُ، مَلْعُونٌ مَنِ لَعِنَ أُمَّهُ، مَلْعُونٌ مَنِ غَيَّرَ الْأَرْضَ، مَلْعُونٌ كُلُّ صَقَّارٍ"، وهو النمام.

ولا تجر ثيابك؛ فإن الله لا يحب ذلك ولا ينظر إليك يوم القيامة، ولا تطع الناس في معصية الله، وأطع الله في معصية الناس؛ فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وإذا أصابك حزن أو سقم أو ذلة أو داء فقل: الله ربي، لا أشرك به شيئاً. ثلاث مرات، واصبر على ما

(١) إبراهيم ٤١.

(٢) مسلم.

أصابك من فجائع الدنيا وأحزانها، لقول الله تعالى: {إِنَّمَا يُؤَفِّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} (١)، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وإذا هممت بأمر من أمور الدنيا ففكر في عاقبته، فإن كان رشداً فأمضه، وإن كان غيياً فانتبه عنه، هكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لا تمارينَّ أحداً وإن كنت محقاً، وإياك والتجريد خالياً، فإنه ينبغي لك أن تستحي من الله إذا خلوت، وإياك أن تدخل الحمام إلا بإزار، ولا يدخل معك أحد الحمام إلا بإزار، وإلا فغض طرفك عن كل أحد كان مكشوفاً.

وأفش السلام، وإن استطعت أن لا يسبقك أحد إليه فافعل، تُعْطَ بذلك فضلاً عن الناس، وبلغني عن ابن مسعود أنه قال: السلام اسم من أسماء الله، وضعه فيكم فأفشوه فيكم، فإن الرجل إذا سلم كتب له عشر حسنات.

لا تفش على أحد سراً أفشاه إليك، فإنما هي أمانة استودعكها، وائتمنك عليها، إلا أن يكون إفشاؤها خيراً له في دنياه وآخرته فأفشها عليه وانصحه فيها؛ فقد بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "مِنْ حَقِّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ إِذَا اسْتَنْصَحَهُ أَنْ يَنْصَحَهُ"، وإذا تعلمت علماً من طاعة الله فليُرَ عَلَيْكَ أثره، وليُرَ فيك سمته، وتعلم الذي تعلمه، وتعلم له السكينة والحلم والوقار؛ فإنه بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "العلماء ورثة الأنبياء."

قال تعالى: "وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها" (٢).

(١) الزمر: ١٠.

٢- النساء: ٧٦.

فإذا جاءك كتاب فيجب أن ترد عليه، فإنه كرد السلام، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: أرى رجوع الكتاب عليّ حقاً كما أرى رجوع السلام.

وعليك أن تلزم الحياء فإنه خلق الإسلام؛ فقد بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لكل شيء خلقٌ، وخلق الإسلام الحياء"، وهو شعبة من شعب الإيمان، وإيّاك وظلم الضعيف، ومن لا يستعين عليك إلا بالله؛ بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ثلاث لا تُردُّ دعوتهم، الامام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم فإنها تصعد فوق الغمام، فيقول الله لها: وعزتي وجلالي لأنصرك ولو بعد حين".^(١)

وإذا حضرت أمراً ليس لله بطاعة ولا تقدر على أن تدفعه، فقم عنه ولا تقعد؛ بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يمنعن أحدكم مخافة الناس أن يقول الحق إذا شهدته أو علمه"، عليك أن تفشي الصدقة، فإنها تدفع ميتة السوء، وليكن ذلك من أطيب مالك، فإن الله عز وجل لا يقبل إلا الطيب، وقد بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن أحدكم ليتصدق بالتمر إذا كانت من طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فيجعلها في كفه فيريها كما يربي أحدكم فلوه"^(٢) حتى تكون في يده مثل الجبل".

يا أمير المؤمنين؛ إذا نزلت بك كربة من كرب الدنيا فليكن مفزعك فيها إلى الله عز وجل متي تنزل بك، فقد بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لن ينزل بعبد قط أمر مفزعه فيه إلى الله إلا فرج الله عنه"، ولا تضطجع على بطنك إذا نمت، ولا في غير

١- الترمذي وأحمد وابن ماجه.

٢- الفلوه: المهر الصغير.

نومك؛ فإنها لضجعة يبغضها الله.

واتق كثرة التزكية لنفسك، أو ترضى بها من أحدٍ يقولها لك في وجهك، فقد بلغني أن رجلاً امتدح رجلاً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (النبي): "ويحك قطعت عنقه، ولو سمعها ما أفلح أبداً".^(١) وإياك ومدح الناس والثناء عليهم في وجوههم؛ فقد بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "احثوا التراب في وجوه المداحين"، واکره لكل أحد ما تكرهه لنفسك، وإياك والحسد والشرة؛ بلغني أنهما خلقان مرديان لصاحبهما في الدنيا والآخرة، وقال صلى الله عليه وسلم: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل أتاه الله مالاً وسلطه على إنفاقه في الحق، ورجل أتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها".^(٢)

واقصد في أمورك رأي ذوي الأنصاف من أهل التقوى؛ فقد بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "خياركم شبانكم المتشبهون بشيوخكم، واعلم أن شراركم شيوخكم المتشبهون بشبانكم"، ولا تحقر أحداً، ولا تجالس مأبوناً^(٣)، فإن الوحدة خير من جليس السوء، عليك بمعالي الأخلاق وكرمها، واتق رذائلها وما سفف منها؛ فقد بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله يحب معالي الأخلاق ويكره سفافها".

وإذا غضبت وأنت قائم فاقعد، وإن كنت قاعداً فاضطجع؛ ولا تطيرن من شيء تراه أو تسمعه، ولا تتوضأ بشيء مما تأكل من الطعام، ولا تدلك به في الحمام؛ فإن ذلك من الحناء، ولا تغيرن

١- الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه.

٢- الإمام أحمد عن ابن مسعود.

٣- مأبوناً: متهماً بالشر.

أظفارك بالحناء وبيديك إذا دخلت الحمام؛ فإنه ليس من شيمة أهل الفضل.

ولا تحلف بالطلاق ولا بالعتاق؛ فإنهما من أيمان الفساق؛ بلغني عن عمر رضي الله عنه أنه قال: أربع جائزة إذا تكلم بهن، الطلاق، والعتاق، والنكاح، والنذر، وأربعة يمسون والله عليهم ساخط ويصبحون والله عليهم غضبان؛ المتشبهون من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال، ومن أتى بهيمة، أو عمِلَ عَمَلَ قوم لوط.

ولا تطيبن بشيء من الطيب يظهر لونه، فقد بلغني عن النبي صلي الله عليه وسلم قال: "طيبُ الرجال ما بطنَ لونه وظهر ريحه، وطيبُ النساء ما ظهر لونه وبطن ريحه"^(١)، وإذا تنخمت في المسجد فادفنه، وإذا نمت فقل عند نومك: اللهم أنت القائم الدائم لا تزول، خلقت كل شيء لا شريك لك، علمت كل شيء بغير تعلم، اغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

وإذا أتيت الحاجة فلا تستقبل القبلة بفرجك ولا تستدبرها، ولا تستنج بيمينك، فقد بلغني عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه كان يأمر أصحابه ألا يستقبلوا القبلة ولا يستنجوا بأيمانهم، ولا يستنجوا بعظم ولا روث.

وإذا انصرفت من الصلاة فقل: اللهم إني أسألك من الخير كله، ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله ما علمت منه وما لم أعلم، اللهم إني أسألك من الخير ما سألك عبادك الصالحون، اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار.

١- الترمذي والطبراني.

وإذا كنت مسافراً أو مقيماً فامسح إن شئت علي خفيك؛ فإن كنت مسافراً ثلاثة أيام ولياليهم، وإن كنت مقيماً فيوماً وليلة.

لا تشتم عبداً لك ولا أمة بزنا؛ فإنه بلغني عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال: "من قذف أمة أو حرة أو يهودية أو نصرانية فلم يضرب في الدنيا ضرب يوم القيامة ثمانين جلدة"، وإذا صافحك أحد، فلا تنزع عن يدك عن يده حتى يكون هو الذي ينزع يده عن يدك، فإذا أقبل عليك رجل بوجهه يحدثك، فلا تصرف وجهك عنه حتى يكون هو الذي يصرف وجهه عنك.

وإذا جلست إلى جنب رجل، أو جلس إلى جانبك رجل فلا تقوم من بين يديه، ولا تتجاوزن ركبته؛ فقد بلغني عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه لم تتجاوز ركبته ركة جليس له، وإذا عطست في الخلاء فاذكر اسم الله خفياً، ولا تدهن في مدهن ذهب ولا فضة، ولا تستجمر في مجامر الذهب والفضة، وبلغني عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه نهى عن الشرب في إناء من الذهب أو الفضة، ولا تم علي الحرير والديباج؛ فإنه لبسة النساء، وقد نهى رسول الله صلي الله عليه وسلم عن لبس الحرير والديباج إلا للنساء.

إذا رأيت امرأة في أهلِكَ وخاصتك مما ينبغي تغييره فلا تحابين منهم أحداً، وقم فيه بالذي يحق عليك؛ بلغني عن رسول الله صلي الله عليه وسلم أنه قال: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً" ^(١) ولا تستحي إذا دعيت لأمر ليس بحق أن تقول: لا؛ فإن الله تعالى يقول: {وَاللَّهُ لَأَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ} ^(٢) ولا تخلون بامرأة ليست لك بمحرم؛ بلغني عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ما خلا رجل بامرأة

١- البخاري والترمذي والإمام أحمد.

٢- الأحزاب ٥٣

ليست له بمحرم إلا كان ثالثهما الشيطان.

إذا قضيت الحاجة فلا تبدأ بشيء حتى تغسل فرجك؛ بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأهل مسجد قباء: "إنما نزلت هذه الآية فيكم، {فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ}." (١) فأنبئوني ما هذا التطهير الذي ذُكِرْتُمْ به؟ فاثبتوا عليه"، قالوا: والذي بعثك بالحق نبيا ما منا امرأة ولا رجل يأتي الخلاء فيبدأ بشيء دون غسل فرجه بالماء.

ولا تداو بشيء، لا يحل لك أكله ولا شربه، ولا تبعه، ولا تشتريه، ولا تعطه ولا تطعمه أحداً، ولا تسقه ولا تداو به أحداً صغيراً ولا كبيراً، ولا بهيمة ولا غيرها، بلغني أن بعض العلماء الصحابة أنه نعت لبعير له خمر: لا والله لا أوجره خمرًا. ولا تأكل لحم شيء من السباع، ولا ذي مخلب من الطير من الطير، بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع.

ولا بأس أن تأكل جنباً وإن كنت لم تتوضأ إذا غسلت يديك، ولا بأس بمصافحة الجنب ومباشرته، بلغني عن ابن مسعود أن قال: أربعة ليس عليهم جنابة: الإنسان والماء والثوب والأرض، ولا بأس بمصافحة اليهودي والنصراني والصلاة في بيوتهم.

واعلم أنه لا شفاعاة فيمن وجب عليه حد من حدود الله إذا أنهى إلى الإمام ولا تحل دونه، ولا بأس أن تشفع قبل ذلك، قال ذلك بعض علماء الصحابة وقد تشفع في سارق، فقيل له: أتشفع فيه وأنت من الصحابة؟ فقال: لا بأس به قبل أن يبلغ الإمام، فإذا بلغه فلا عفا الله عنه إن عفا عنه.

وإذا دعيت إلى تحمل شهادة فإنك مخير، فإن شهدت فلا يسعك الامتناع، إذا دعيت إلى الأداء، لا تَمْتَنَّ علي أحد بإحسانك؛ فإنه يبطل أجرك، قال عز وجل: {لَا تُبْطِلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى} (١)، ومن أدى لك معروفاً وعجزت عن مكافأته إلا بالثناء فأثن عليه واذكره به قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من أولى معروفاً فلم يقدر على مكافأته إلا بالثناء فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره".

لا ترفع صوتك في مسجد جماعة، ولا تشهر فيه سلاحاً؛ فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، ولا تعجل على أحد بعقوبة ولا تتهمه حتى تحقه، وإذا عملت عملاً لله فأحسنه لقوله تعالى: "ليبلونكم أيكم أحسن عملاً" (٢).

لا تصافح امرأة ليست بزوجة لك ولا ملك يمينك، ولا تضع يدها على شيء من جسديك، ولا تضع يدك على شيء من جسدها، ولا تُقَبِّلْ يدك ولا شيئاً من جسديك، ولا تعانق رجلاً، ولا تقبله ليس بذئبي رحم لك، واصنع ذلك بذئبي رحمك، ولا تأت أهلك، أو جاريتك وغيرها يراك أو يسمع حسك، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "استحيوا من الله حق الحياء"، قالوا: كيف نستحي من الله حق الحياء؟ قال: "احفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، واذكروا الموت والبلوى، وذروا زينة الحياة الدنيا" (٣).

لا تَتَوَمَّنْ أحداً في بيته ولا في سلطانه إلا أن يأذن لك، وذلك أنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يَتَوَمَّنُ الرجلُ الرجلَ في بيته ولا في سلطانه إلا بإذنه"، ولا تحب الناس أن يمثلوا

١- البقرة ٢٦٤

(١) هود ٧ .

(٢) مسند الإمام أحمد وابن حبان والترمذي.

لك قياماً، فقد بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من سره أن يمثّل له ابن آدم قياماً وجبت له النار"، وأجب الدعوة إذا دعيت، فعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لو دعيت إلى كراع لأجبت".

وإذا عدت مريضاً فأخفف العيادة، وأقلل اللبث، وإذا مررت بالمقابر فقل: السلام عليكم أهل الدار من المؤمنين والمسلمين، وأنا إن شاء الله بكم لاحقون، أنتم لنا فرط ونحن لكم تبع، أسأل الله لنا ولكم العافية، ولا بأس أن تمشي أمام الجنائز، مشى النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وابن عمر أمامها، وإذا كنت راكباً فلا تسبقها، ولا تنزل حتى توضع عن عواتق الرجال، بلغني ذلك عن بعض الصحابة.

لا تنفخ في الطعام والشراب فإنه جفاء، ولا تمضغ العلك ولا تحلل إزارك ولا تجرد ولا تحذف، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنها من أخلاق قوم لوط"، وإذا حلفت على شيء وحلف والذاك أو أحدهما على خلافه فأطعهما ما لم يكن معصية.

وارفع يدك في عشرة مواطن: إذا دعوت عند افتتاح الصلاة والعيدين والقنوت والتكبير، وعند استلام الحجر وعرفة وجمع الحصى، والصفة والمروة والجمار، روى ذلك عن ابن عباس، عند افتتاح الصلاة والقنوت والعيدين ترفعهما حتى تحاذي إبهامك أذنك، وتبسطهما عند صدرك في باقي ذلك، واجمع الصوامع عند فطرك على طعامك، قال عليه الصلاة والسلام: "من فطر صائماً كان له مثل أجره، ولا ينقص من أجر الصائم شيء" (١).

(٢) الترمذي والإمام أحمد وابن ماجه.

واعلم رحمك الله أن الله تعالى خصك من موعظتي بما نصحتك
وأتهيت إليك منه ما أرجو أن يكون سعادة لك وسبباً إلى الجنة،
فليكن منك فيما كتبت إليك من القيام بأمر الله تعالى، واتباع ما
هو أهله ما ترجو به القربة عند الله تعالى، ولا يكن ذلك مما تظلف
أي تكف عنه نفسك، وتعاهدتها بالأخذ والتأديب عليه إن شاء الله
حتى توقفها على الذي لا ينبغي لك التقصير بها عنه إن شاء الله
تعالى، والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب.^(١)

الإمام الشافعي

هو محمد بن إدريس بن عثمان بن شافع، وينتهي نسبه إلى عبد
المطلب بن عبد مناف بن قصي القرشي، نال حقه من العلم والفقہ
فارتفع ذكره وعرف قدره وعظم شأنه، فأصبح ثالث الأئمة الأربعة،
خرج مع مصعب بن عبد الله قاضي هارون الرشيد على اليمن،
فجلس على كرسي القضاء، فأمر بالمعروف ونهي عن المنكر ومعه
الشافعي، وتصادف أن قام بعض الطالبين (أبناء أبو طالب) بالخروج
على الخليفة والثورة ضده، فأرسل مطرف بن مازن عامل هارون
الرشيد على اليمن إلى الرشيد يقول له: إذا أردت اليمن لا يفسد
عليك، ولا يخرج من يدك، فأخرج محمد بن إدريس، وذكر له بعض
الطالبين، وقد وصف الشافعي بأنه رجل يعمل بلسانه ما لا يقدر
عليه المقاتل بسيفه، فأسرع الرشيد واستدعى محمد بن إدريس
الشافعي والطالبين الذين ذكرهم مطرف، وعقد لهم محكمة، وكان
قاضي القضاة محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة، وقاضي
القضاة بعد أبي يوسف.

(٣) مشكاة الموعظ: إبراهيم عبد الباقي.

أُعِدِّمَ الطالبيون بعد أن أقروا بعصيانهم والخروج على الخليفة، واستدعى الخليفة الإمام الشافعي فدخل على هارون قويّ العزيمة مرفوع الرأس، شامخاً بعلمه وتقواه، هادئ النفس؛ فهو لم يسع إلى هدم الدولة ومعاداة العباسيين، ولم يوال الأمويين، وعندما سئل أمام الرشيد قال: يا أمير المؤمنين، لست بطالبي ولا علوي، وإنما دخلت في القوم بغياً عليّ، وإنما أنا رجل من بني عبد المطلب بن عبد مناف بن قصي، ولي مع ذلك حظ من العلم والفقهاء، والقاضي يعرف ذلك - يقصد محمد بن الحسن الشيباني - أنا محمد بن إدريس بن عثمان بن شافع.

ووقف الشافعي يدفع عن نفسه التهمة التي ألصقت به ظلماً، وقد ذكر نسبه الذي يعود إليه نسب الرشيد، وقد شهد بذلك قاضي القضاة الذي أقر بعلم الشافعي وفقهه، وكان الرشيد يقدر العلم والعلماء، وبعد سماعه وتبرئة ساحته أمر الرشيد بعتاء قدره خمسون ألفاً، لينفقها الشافعي على العلم ونسخ الكتب، وكانت تلك اللقطة من الرشيد إقراراً، وشهادة قاضي القضاة تتويجاً لمكانة الشافعي، الأمر الذي جعله يستمر في مسيرته العلمية ليصبح ثالث الأئمة الأربعة وصاحب المذهب الشافعي الذي ينهل منه المسلمون حتى يومنا هذا، وإلى أن يشاء الله.

حافظ هارون الرشيد على صلته بالشافعي وكثرت لقاءاتهم، وكان الرشيد يقول له: "كثر الله في أهل بيتي من أمثالك"، وكان يدعوه بالحجازي، تعظيماً لمكانته، وذات يوم وقد طال غياب الشافعي على هارون، فقال هارون للفضل بن الربيع: علي بهذا الحجازي.

استقبل الرشيد الإمام الشافعي وكانت أمارات السرور بادية عليه وقبّل بين عينيه، وقال له: لم لا تزورنا أو تكون عندنا؟ وجالسه

يحدثه الساعة، ثم أمر له ببدره دنانير، وطلب من الفضل بن الربيع أن يرافقه الشافعي إلى داره إكراماً له.

قال الفضل: عندما خرج الشافعي من عند الرشيد، أخذ ينفق ما في البدره يمّنة ويسرة، حتى رجع إلى منزله وما معه دينار.

ذاعت شهرة الشافعي ببغداد بعد أن جعلها مقره، وذات يوم طلبه الرشيد لمناظرة بينه وبين محمد بن الحسن الشيباني وبشر المرسى، على أن تكون المناظرة بقصر الرشيد وحضوره.

قال محمد بن الحسن: هات مسألة يا شافعي نتكلم عليها.

فقال الشافعي: سلوني عما أحببتم، فتجرد بشر المرسى وقال له: لولا أنك في مجلس أمير المؤمنين، وطاعته فرض، لننزلن بك ما تستحقه، فليس أنت في كنف العمر، ولا أنت في ذمة العلم فيليق بك هذا، وأنشأ يقول:

أهابك يا عمرو ما هبتني وخاف بشرك إذ هبتني
فإن تك أمي غرابية من أبناء حمام بها عبتني

وأجابه الشافعي:

ومن هاب الرجال تهيبوه ومن حقر الرجال فلن يهابا
من قضت الرجال له حقوقا ولم يقض الحقوق فما أصابا

فأجابه بشر: هذا أوان الحرب، فاشتدي زيم.

فأجابه الشافعي:

سيعلم ما يريد إذا التقينا بشط الراب أي فتى اكون

فقال بشر: يا أمير المؤمنين دعني وإياه، فقال هارون: شأنك وإياه. فسأله بشر أسئلة، فأجابه الشافعي إجابات تدل على سعة علمه وتبحره في الفقه والحديث وفنون العلوم، وانبسط الشافعي في الكلام، فتكلم بكلام حسن، فأعجب به الرشيد وقربه من مجلسه ورفعته

عليهما، وقال الرشيد: يا شافعي، أنا أمير المؤمنين وأنت القدوة، فلا يدخل عليّ أحد من الفقهاء قبلك.

وجعل الرشيد من الشافعي نديمه وواعظه، وجلس يوماً وقد سأله عن الكتاب والسنة والشعر وأنساب العرب وعلوم اللغة، وكان مجلس علم، فقال له: هل من موعظة؟ فقال الشافعي: إنك تخلع رداء الكبر عن عاتقك، وتضع تاج الهيبة عن رأسك، وتنزع قميص التجبر عن جسدك، وتفتش نفسك، وتنشر شرك، وتلقي جلباب الحياء عن وجهك، مستكيناً بين يدي ربك، وأكون واعظاً لك عن الحق، وتكون مستمعاً بحسن القبول، فينفعني الله بما أقول، وينفعك بما تسمع.

فقال له الرشيد: أما إنني قد فعلت، وسمعت الله ورسوله والواعظين بعدهما، فعظ وأوجز، فحلّ الشافعي عنه إزاره، وحسر عن ذراعيه، وقال: يا أمير المؤمنين، اعلم أن الله جل ثناؤه امتحنك بالنعم، وابتلاك بالشكر، ففضل النعمة أحسن لتستغرق بقليلها كثيراً من شكرك، فكن لله تعالى شاكراً ولآلائه ذاكراً، تستحق منه المزيد، واتق الله في السر والعلانية تستكمل الطاعة، وأسرع لقائل الحق وإن كان دونك تشرف عند الله، وتزد في عين رعيّتك، واعلم أن الله سبحانه وتعالى يفتش شرك، فإن وجدته بخلاف علانيتك شغلك بهم الدنيا، وفتق لك ما يزلق عليك، واستغني الله والله غني حميد، وإن وجدته موافقاً لعلانيتك أحبك وصرف هم الدنيا عن قلبك، وكفاك مثونة نظرك لغيرك، وترك لك نظرك لنفسك، وكان المقوي لسياستك، ولن تطاع إلا بطاعة الله تعالى، فكن له طائعاً تكسب بذلك السلامة في العاجل، وحسن المنقلب في الآجل: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} (١).

واحذر الله حذرَ عبدٍ عَلمَ مكانَ عدوه، وغاب عنه وليه، فتيقظ
خوف السرى، لا تأمن من مكر الله لتواتر نعمه عليك، فإن ذلك
مفسدة لك، وذهاب لدينك، وأسقط المهابة في الأولين والآخرين،
وعليك بكتاب الله الذي لا يضل المسترشد به، ولن تهلك ما
تمسكت به، فاعتصم بالله تجده تجاهك، وعليك بسنة رسوله الكريم
صلى الله عليه وسلم، تكن على طريق الذين هداهم الله فبهداهم
اقتده.

وما نصب الخلفاء المهديون في الخراج والأرضين، والسواد والمساكن
والديارات، فكن لهم تبعاً وبه عاملاً راضياً مسلماً، واحذر التلبيس
فيه؛ فإنك مسئول عن رعيتك، وعليك بالمهاجرين والأنصار:
{وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ} ^(١) فاقبل من محسنهم وتجاوز عن
مسيئتهم، وآتهم من مال الله الذي آتاك، ولا تكرههم على إمساك عن
حق، ولا خوض في باطل، فإنهم الذين مكنوا لك البلاد،
واستخلصوا العباد، ونوروا الظلمات، وكشفوا عنك الغمة، ومكنوا
لك في الأرض، وعرفوك السياسة وقلدوك الرياسة، فنهضت بثقلها
بعد ضعف، وقويت عليها بعد الفشل.

كل ذلك يرجوك من كان من أمثالهم لعفتهم طمع الزيادة لهم،
فلا تطع الخاص تقرباً إليهم بظلم العامة، ولا تطع العامة تقرباً إليهم
بظلم الخاصة لتستديم السلامة، وكن لله كما تحب أن يكون لك،
ولأوليائك من العامة من السمع والطاعة، فإنه ما ولى أحد على
عشرة من المسلمين فلم يحطهم بنصيحة إلا وجاء يوم القيامة ويده
مغلولة إلى عنقه، وأنت أعرف نفسك.

(١) الحشر ٩

كان الرشيد قد أسلم أذنه للشافعي وأفرغ قلبه واستحضر عقله ففاضت عيناه بالدمع، فكان يبكي دون أن يسمع له صوت، وعندما انتهى الشافعي من موعظته، أجهش بالبكاء وعلا نحيبه وأبكى جلساءه.

فقال أحدهم: يا هذا، احبس لسانك عن أمير المؤمنين، فقد قطعت قلبه حزناً، وقال الشيباني: اغمد لسانك يا شافعي عن أمير المؤمنين فإنه أمضى من سيفك. وكان الرشيد ما زال يبكي.

أقبل الشافعي على محمد بن حسن الشيباني ومن معه وحوله فقال: أخرسكم الله، لا تذهبوا بنور الحكمة، يا معشر عبيد الرماح وعبيد السوط والعصا، أخذ الله أمير المؤمنين منكم لتلييسكم الحق عليه، وهو يرى كم الملك لديه، أما والله ما زالت الخلافة بخير ما صدف عنها أمثالكم، ولن تزال بشرّ ما اعتصمت بكم، فرفع الرشيد رأسه وأشار إليهم أن كفوا.

وأقبل الرشيد على الشافعي فقال: قد أمرت لك بصلة، فأريك في قبولها موقف، أي باختيارك. فقال الشافعي: كلا، والله لا يراني الله قد سودت وجه موعظتي بقبول الجزاء عليها. ثم نهض وخرج.

هؤلاء هم بعض الذين عاصروا الرشيد، علموه وأدبوه وشاورهم وأشاروا عليه، رافقهم في الحج وجالسهم وسمع منهم وأخذ منهم وأخذ عنهم.

- قاضي القضاة وصاحب كتاب الخراج القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب، والذي تتلمذ على يد أبي حنيفة أحد الأئمة الأربعة، وقد ذكرنا موعظته لهارون في مقدمة كتاب الخراج.

- القاضي أبو عبد الله محمد بن الحسن الشيباني والذي تولى القضاء بعد وفاة أبي يوسف وقد صاحب أبا حنيفة وسمع عن سفيان الثوري وتقرب للإمام مالك بن أنس، فكان من أئمة أهل الرأي.

- الفضيل بن عياض العالم الجليل الذي كان يهجع إليه الرشيد كلما حزبه أمر، فكان الناصح الأمين، وكان من علماء مكة، وقد التقى به الرشيد وأكثر من زيارته إليه كلما وفد أم القرى.

- عبد الله بن المبارك: كان ذا منزلة عظيمة عند هارون؛ لما كان يتصف به من زهد وورع وشعر وفصاحة وكرم وشجاعة.

- الإمام مالك بن أنس أستاذ الرشيد في علوم الفقه والحديث، وأحد الأئمة الأربعة الذين يؤخذ عنهم، وصاحب كتاب الموطأ، جلس الرشيد بين يديه تلميذاً وطالب علم وهو غرّ صغير، فأجلّه واحترمه وتأدب على يديه، وسمع منه وشد الرحال إليه ليؤدب ولديه الأمين والمأمون، وما زالت هيبة الرجل وخشيته في قلب هارون وهو خليفة وأمير المؤمنين، وقد أرسل إليه مالك رسالة أوردناها كاملة لما فيها من عظة وموعظة للمسلمين كافة وللخليفة خاصة، يبين فيها منهج الحياة الصحيحة والعقيدة السليمة والإيمان الخالص الصادق، وقد توفي مالك في حياة الرشيد فحزن عليه حزناً شديداً.

- الإمام الشافعي: صاحب أحد المذاهب الأربعة، وقد التقى بالرشيد وهو على حافة الموت، فرفع عنه الرشيد الظلم وأغدق عليه، وكان كمن قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً"، ف قيل: يا رسول الله نعرف كيف ننصر أخانا مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ فقال: "امنعه عن ظلمه"، فكان الشافعي نعم النصير ونعم الناصح الأمين لهارون الرشيد، وقد أوردنا عظته الجامعة للرشيد، والتي كانت لشدة قسوتها في منتهى الرأفة

والرحمة لأنها تهدي إلى الحق والعدل وهما السبيل لجنة الخلد لكل ولي أو حاكم.

- محمد بن الليث الخطيب، ويكنى أبا الربيع ويعرف بالفقيه، وكان بليغاً متكلماً وكاتباً مترسلاً وخطيباً بارعاً، استأثر به هارون الرشيد بعد أن أرسل إليه رسالة موعظة وجعله كاتبه، ولنا معه وقفة عند التحدث عن البرامكة، ورسالته التي أرسلها الرشيد للإمبراطور قسطنطين وهي بليغة في الأدب والفقه وعلوم الدين والدنيا.

هؤلاء بعض من الرجال الذين أحاطوا بهارون، رجال مخلصون وعلماء عاملون، حياتهم إسلام، وسلوكهم إيمان، بعضهم بالنصح والتوجيه، وآخرون بالمجالسة والمراسلة والتنبيه.

هارون الرشيد - الشجرة الطيبة

بزغ نور النبوة والهدى الإسلامي بمكة قلب الجزيرة العربية في أوائل القرن السادس الميلادي، وما أن حل القرن الثامن الميلادي - الثاني الهجري، إلا وكانت راية الإسلام ترفرف على نصف العالم المأهول، واتسعت العاهلية الإسلامية وجمعت أجناساً شتى ولغات مختلفة وقوميات وثقافات متباينة، وبلغت من الثراء مداه، ومن العظمة أوجها، ومن المنعة أقصاها، ومن القوة أشدها، ومن العزة مجدها.

كان عصر الرشيد يمثل ذروة كل هذا، واجتمع في عصره الثراء والرفاهة والرخاء مع القوة والمجد والمنعة، وقد أينعت الشجرة الوارفة وطابت ثمارها، وصارت بغداد الدولة الأقوى في العالم كله سياسياً واقتصادياً وعسكرياً.

ويعتبر عصر هارون الرشيد اللبنة الأخيرة التي اكتمل بها البناء الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للدولة العباسية، وبها اكتمل بهاؤها وثراؤها، وضربت الشجرة بجذورها عمق الأرض لتظل ثابتة قوية لأمد بعيد، وقد تعرض هذا العصر المجيد للدولة الإسلامية للطعن والتشويه، ووجهت لهارون التهم جزافاً، ولم تسلم بعض كتب التاريخ من ثلب لأخلاقه واتهامه في دينه وتشكيك في جهاده.

وقد أثبت لنا التاريخ أن هناك من يولد عظيمًا ويعيش ذليلاً، وهناك من يولد وضيعاً ويحيا عظيمًا، وهناك من يولد ذليلاً ويعيش وضيعاً، وهناك من يولد عظيمًا ويحيا عظيمًا ويموت عظيمًا، ومن

الخلفاء من يروم من الخلافة متاعها من السلطان والشراب والقنص ومعانقة النساء ومعاقرة الخمر، ومحاسبة خازن المال، ومن الخلفاء من ينشد طاعة الله ورضاه ويتبع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ويستقيم على منهجه.

وكان هارون من الرجال الذين ولدوا عظماء وعاشوا عظماء ورحلوا عن الدنيا عظماء، رجل وهبه الله القوة فعمل على رفع راية الإسلام، وحماية حدودها من عواصم وثغور، ووهب الجراة فهاجم الروم في عقر ديارهم، وذل ملوكهم وزلزل إمبراطورياتهم، ووهب الفحولة فاهتم بهندامه وبما ملكت يدها بحكم الشرع، واتقد ذكائه فتعلم وعلم وبصر واستبصر، واتسع صدره فتأجج قلبه بمباهج الحياة فسمع الشعر وقرضه، وطابت نفسه وزادت تقواه فأعرض عن الرذائل، فكان ذخراً للإسلام والمسلمين.

كان انقلاب هارون الرشيد على البرامكة بسبب جنوحهم عن الإسلام الصحيح، ونصرتهم للحركة الشعبية والتي نادى بالعودة إلى التراث الفارسي القديم، وشيوع الزندقة والإباحية والبدع المرذولة، ومزج الموروث الثقافي الفارسي بالعقيدة الإسلامية، الأمر الذي جعله يقسو عليهم ويستأصل شأفتهم ويبطل حركتهم، وكان له ما أراد وتمكن من القضاء عليهم، فما كان من أتباع هذه الحركة التي تريد أن تهدم العقيدة الإسلامية إلا أن سعت لتشويه صورة رمز الدولة الإسلامية، والتي كانت في قمة مجدها، وليس من الإنصاف الحكم على الإنسان من أقوال خصومه، وهم يملكون الحول والطول وما يسهل عليهم مهمة تجريجه والقذف به، والظعن في أعلام الإسلام ظعن في الإسلام، لذا كان الظعن والتشويه الموجه إلى الرشيد إنما هو ظعن وتشويه ضد ذروة الحضارة العربية الإسلامية، وهو ما يشبع

نهم الحاقدين ويشفي غليلهم، أولئك الذين نذورا أنفسهم لمهاجمة الدين الإسلامي.

لقد كرم الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم، ورغم ذلك تعرض للدسائس والمؤامرات، وقتل عمر بن الخطاب الخليفة العادل، وقتل عثمان بن عفان السخي التقى، وقتل علي بن أبي طالب بوابة العلم، ومات الحسين شهيداً وغيره من التابعين.

لقد تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظ كتابه الكريم معجزة زمانه وكل زمان، ولم يتمكن أحد مهما أوتي من قوة من اختراقه، والطعن فيه، فصار الطعن في التراث الإسلامي هو السبيل لزعزعة العقيدة وتشويش الفكر، بدأ من فتنة الجمل.

وفي عهد الرشيد كانت الدولة الإسلامية قد وصلت إلى ذروة قوتها وعزتها، بدأ الدس والخوض في سيرة العباسة أخت هارون، وولاية الأمين والمأمون، ثم حياة هارون الرشيد وشخصيته، فكانت خيالات وأساطير ألف ليلة وليلة، ووصم بالعريضة والزندقة والمجون، فتحول القائد والموجه لأعظم دولة في ذاك الوقت إلى قائد مسلوب الإرادة، الأمير الذي حارب الروم وانتصر عليهم وهو في سن السابعة عشر يخضع لإرادة وزرائه من البرامكة، الرجل الذي عرف أئمة الفقه وجالسهم وتعلم منهم وبادلهم الرأي وكان يحج عاماً ويغزو عاماً، رمي باللواط ومجالسة الزنادقة والمنحرفين، والانسياق وراء إشباع غرائزه ومطاردة الجوارى.

تستمد الدولة سلطانها وقوتها من قوة حاكمها وقدرته على إدارة البلاد، وما كان الروم يخشون حاكماً ماجناً، ولا يسعون لعقد صلح أو هدنة مع حاكم سفیه العقل رذيل الخصال، لقد كسبت دولة الرشيد مكانتها من إسلام حي وشريعة مدنية وعقيدة قوية وخليفة

مؤمن صالح تقي ملتزم بشرع الله وسنة نبيه، فكان الطعن في شخصية الخليفة وتسفيه فكره ورأيه طعن في الفكر الموجه والمدير لأمر الدولة.

لم تكن دولة الرشيد القوية الحاكمة القادرة على تهديد القسطنطينية عاصمة الروم هي دولة الشعراء الزنادقة من أمثال أبي نواس والغانيات والحواري، وإنما كانت دولة أبي يوسف قاضي القضاة العالم الفقيه ومحمد بن الحسن الشيباني وعبد الله بن المبارك والفضيل بن عياض ومالك بن أنس إمام دار الهجرة والإمام الشافعي، علماء في الفقه وعلوم الدين، ومن العلماء جابر بن حيان (أبو الكيمياء)، والحسن بن الهيثم عالم البصريات، والفلكي الشهير إباد الله البناني والحوارزمي أبو الرياضيات وفخر الإنسانية لما قدمه في سبيل رقي البشرية، وعالم النباتات أبو حنيفة الدينوري والبيروني، أولئك هم بعض رجال دولة الرشيد في مجالات العلوم الدينية والإنسانية، الذين تدين لهم البشرية فيما وصلوا إليه من رقي وتحضر، وكانوا فروعاً مثمرة يانعة في شجرة هارون الطيبة.

لم تكن دولة الرشيد دولة الخمّارات والمراقص ودور البغاء، دولة الرشيد هي دولة بيت الحكمة (دار الحكمة)، التي بناها الرشيد لتكون مكتبة عظيمة ومنهلاً لعلماء عصره، ونهراً فياضاً لمن جاء بعدهم، وكان راتب الناسخ ألفي دينار في الشهر، وهو الذي يقوم فقط بالنسخ، مما يدل على سعة النفقة على العلم والعلماء الذين كانوا النهر الذي كان يروي الشجرة الطيبة لتظل وارفة تظل البشرية.

لم تكن دولة الرشيد عالة على البشرية، ففيها تقدمت الصناعة لتخدم كل أوجه الحياة في دولة الإسلام، وفي جميع المجالات، في الطب كان التشريح وأدوات الجراحة وصناعة الأدوية والعمليات

الجراحية وإنشاء المستشفيات، وصاحب ذلك نهضة في تصنيع السفن والأسلحة والمعدات، وكانت هذه النهضة بمثابة سياج يحمي بستان الخليفة، ونسيمه يحمل رذاذ الخير ليرطب أوراق الشجرة الطيبة.

كانت بلاد الرشيد أغنى بلاد العالم وأكثرها خيراً وثراءً، ولم يكن بالسلطان الجائر أو الحاكم الظالم، الجابي للخراج دون الاهتمام بأحوال البلاد والعباد، فما كان يريد لخزينة الخلافة خراجاً إلا بعد اكتفاء الأمصار لحاجتها، وكان عهده عهد رخاء لكل الأمصار والأقاليم، وأضاف إلى ذلك بأن أعطى كل إقليم الحق في اختيار الولاية دون تعصب لمذهب أو عرق، فهدأت الخواطر وطابت النفوس وازدهرت البساتين واخضرت المراعي، واكتفت الأنام من إنسان وحيوان، ورف الطير ليحط على الشجرة الطيبة آمناً سالماً.

تلك هي دولة الرشيد، بستان عامر، طيب الثرى، نقي الهواء، وها هو الرشيد شجرة طيبة جذورها تضرب في أعماق التاريخ، لا تقصفها رياح، ولا تقلعها عواصف، ولن يجتثها الحقد والغل والنزور والبهتان.

وفاة الرشيد

قام الرشيد فزعاً لرؤية غمته، فأصبح على غير عادته، وعندما دخل عليه جبريل بن بختيشوع طبيبه وكان نصرانياً، وعندما رآه على حاله سأله: ماذا بك يا أمير المؤمنين؟ فقال: رأيت كفا فيها تربة حمراء خرجت من تحت سريري، وقائلاً يقول: هذه تربة هارون. فهوّن عليه جبريل بن بختيشوع الأمر وقال: هذه أضغاث أحلام، ومن حديث النفس، فتناسها يا أمير المؤمنين.^(١)

في عام ١٩٣هـ وكان هارون في طريقه إلى خراسان، وعندما حل بطوس^(٢) اعتل وشعر بوطأة المرض، ونظر حوله فهاله ما يرى من طبيعة الأرض ولون تربتها وتذكر رؤياه، فاستدعى جبريل وقال له: ويحك، أما تذكر ما قصصته عليك من الرؤيا؟ فقال: بلى. فدعا مسروراً الخادم وقال: انتني بشيء من تربة هذه الأرض، فعاد ويده تربة حمراء، ومدها لهارون، فلما رآها قال: والله هذه الكف التي رأيت، والتربة التي كانت فيها.

قال جبريل: فوالله ما أتت عليه ثلاثة حتى توفي.

وعندما شعر هارون بدنو أجله وكان في دار حميد بن أبي غانم الطائي، فأمر بحفر قبر له في براح الدار، وبعد الانتهاء من حفره نظر إليه وقال: يا ابن آدم، تصير إلى هذا، ثم أمر أن يقرأوا القرآن في قبره،

١ - البداية والنهاية.

٢ - طوس مدينة بالقرب من نيسابور.

فقر، وه حتى ختموه، وهو على محفة على شفير القبر، ولما حضرته الوفاة احتبى بملاءة، وجلس يقاسي سكرات الموت، فقال له بعض من حضر: لو اضجعت كان أهون عليك، فضحك ضحكاً صحيحاً ثم قال: أما سمعت قول الشاعر:

وإني من قوم كرام يزيدهم شماساً وصبراً شدة الحدثن^(١)

ومما قاله عندما حضره الموت: اللهم انفعنا بالإحسان، واغفر لنا الإساءة، يا من لا يموت ارحم من يموت^(٢) وقال:

إن الطبيب بطبه ودوانه لا يستطيع دفاع محذور القضا

ما للطبيب يموت بالداء الذي قد كان يشفي مثله فيما مضى^(٣)

وفي ليلة السبت لأربع خلون من جمادى الآخر من سنة ثلاث وتسعين ومئة من الهجرة الموافق السابع والعشرين من مارس عام ٨٠٨ ميلادية، فاضت روحه وصعدت إلى بارئها، ودفن في قرية يطلق عليها (سناباذ) وصلى عليه ابنه صالح، عن عمر يناهز الخامسة والأربعين عاماً، وخليفة للمسلمين ثلاثة وعشرين عاماً.

ويذكر أنه قد مات بمرض الدم، وقيل: بالسل، وقد كتم جبريل ما به من علة ولم يطلع عليها الرشيد، فأراد أن يعرف سبب علته، فطلب من أحد أعوانه أن يأخذ ماءه (البول) وأن يذهب به إلى جبريل، فإياه إياه دون أن يعلمه بصاحبه، وعندما عرضه على جبريل، قال لأحد مساعديه: هذا مثل ماء ذلك الرجل، فعرف حامل

١ - البداية والنهاية.

٢ - تاريخ بغداد.

٣ - مروج الذهب.

الكارورة ماذا يعني، فقال الرجل: بالله عليك أخبرني عن حال صاحب هذا الماء، فإن لي عليه مالاً، فإن كان به رجاء، وإلا أخذت مالي منه، فقال جبريل: اذهب فتخلص منه، فإنه لا يعيش إلا أياماً، فلما جاء وأخبر الرشيد بعث الرشيد إلى جبريل ليحضر إليه، فلم يوافه وتغيب عنه حتى مات.

وقال الرشيد وهو في هذه الحال^(١):

إنني بطوس مقمّم مالي بطوس حميم
أرجو إليه لمابي فإنه بي رحيم
وليس إلا رضائي والصبر والتسليم

وفي رثاء الرشيد لأبي الشيص قال:

غربت في الشرق شمس فلها عيني تدمع
ما رأينا قط شمساً غربت من حيث تطلع

سبحان من له الدوام، وتعددت الأسباب، والموت واحد، فلكل أجل كتاب، ولم يكن هارون الرشيد بالملك الظالم أو السلطان الجائر أو الزنديق الفاجر، وقد تعرض في حياته، وبعد وفاته لافتراءات وأكاذيب وشائعات، ونسجت حوله الأساطير والخيالات، ويرجع ذلك إلى الفترة التي تولى فيها خلافة دولة الإسلام، وقد كانت في ذروة عنفوانها وقوتها، وتأثيرها على المجتمع الدولي، وقد جاهد في سبيل رفع راية الإسلام، ونشر الدعوة أميراً ثم خليفة، فطبقت شهرته الآفاق وصار درة الدولة العباسية وتاجها.

توفي الرشيد وهو في الخامسة أو السادسة والأربعين من عمره، ولم يكن سقمه ومرضه طويلاً، ولم تكن علته واضحة، الأمر الذي دفع إلى إثارة الشكوك حول وفاته، إن كانت طبيعية أم مات مقتولاً، أم

١ - البداية والنهاية، النجوم الزاهرة.

كان هناك إهمال في علاجه وسرعة تطيبه.

لقد تضاربت الأقوال ونسجت الروايات، وتعددت الكتب واختلفت المصادر في تحديد سبب الوفاة، كأن تأمر عليه البرامكة بعد نكبتهم واتصالهم بجبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد وكان مقرباً للبرامكة، وجعله يعمل على قتل هارون، وينفي ذلك الزعم روية هارون وفطنته، فلا يسلم حياته لأحد أعوان خصومه، وثانيها أن جبريل ظل الطبيب الخاص لابنه الأمين.

الرواية الثانية: ^(١) أن هارون قد اعتل فجأة وهو في طريقه إلى خراسان، وفي طوس زادت به العلة ومات.

الرواية الثالثة: ^(٢) أن هارون كان منذ زمن به علة يخفيها على جميع من حوله خوفاً من ابنه الأمين والمأمون، وقد أفضى بذلك الصباح الطبري، ورواها ابنه محمد، وأن الأمين والمأمون يترصدان بوالدهم الموت والخلاص بعد أن طال زمن خلافته، وكيف لمعتل مريض ويخشى تربص أبنائه به أن يخرج من بغداد إلى خراسان، وكان أولى به أن يركن إلى الراحة والسكينة، ويروعه المرض والسقم، وخاصة أن الأمين والمأمون كانا له جناحين يخلق بهما في سماء دولة الإسلام، ولم تورد أيّ من المصادر ما يدل على أن الأمين والمأمون كانا يترصدان موت أبيهما خاصة في هذا السن.

وهناك قصص وروايات جاءت في بعض المصادر عن رغبة هارون بقتل جبريل بن بختيشوع وأنه همّ بذلك، وبعض المصادر تورد بأنه قام (الرشيد) بقتله وتمزيق أوصاله.

١ - الطبري.

٢ - تاريخ الخلفاء.

لقد كان جبريل الطبيب الخاص لهارون لزمان طويل، وكان يشرف على كل ما يدخل جوف هارون من طعام وشراب، وظل كذلك في عهد الأمين، الأمر الذي جعل انقلاب هارون على جبريل أو تأمر جبريل لقتل هارون أمراً مستبعداً.

وأغلب الظن أن هارون الخليفة القوي المتزن خرج إلى ميدان القتال، في رحلة طويلة وشاقة من العراق إلى بلاد ما وراء النهر تحتاج سلامة البدن وشفاء الذهن، وإن كانت به علة لأناب أحد أبنائه أو قادته البارزين.

وفي الطريق أصابته علة أو مرض عضال عجز أمامه جبريل ولم يساعده الزمان أو المكان في إيجاد دواء نافع، أو ترياق شافٍ، وكان قضاء الله نافذاً.

وصدق القائل:

إن الطبيب بطبه ودوائه لا يستطيع دفع محذور جرى
ما للطبيب يموت بالداء الذي قد كان يشفي مثله فيما مضى

قالها الرشيد وكأنه يصف حال موته وعجز الطبيب أن يرد قضاء الله.

سقوط الأئمة

العداء للإسلام ورموزه قائم، وسيظل إلى ما شاء الله، ويعتبر هارون الرشيد أحد أعلام الإسلام البارزة كخليفة مسلم فرض سلطانه وحافظ على راية الإسلام خفاقة، وكان عهده أزهى عصور دولة الإسلام.

وحفلت كتب التاريخ بحكايات وقصص عن هارون الخليفة؛ منها التي جعلت منه الرجل المؤمن الورع الملتزم بدينه الثابت على عقيدته، المحب لله ورسوله، المجاهد الغازي، يحب في الله ويكره في الله، والذي يدافع عن الحق ويعادي كل ظالم وجهول، المتفقه في دينه والمعظم لشرائع الله.

ومنها من جعلت منه الخلفية الماجن الهزل، المعاصر للخمر وريب اللهو، والمتعبد في محراب الغرائز والزندقة والغزل، والمصاحب للشعراء الماجنين والرجال المخنثين.

وقد حاولنا أن نطرق عهد هارون الرشيد وسيرة حياته، فوجدناه هادئاً مطمئناً سديد الرأي قوي الشكيمة، دمث الخلق، يحب الغلم والعلماء ويصاحب الفقهاء، وهذا ما يتفق مع قوة الدولة وسلامة الحكم وحب الرعية ومهابة دول الجوار وحماية حدود الدولة، ولكنه تعرض لهجمات شرسة من قبل أعدائه وأعداء الإسلام الذين أوقفوا حياتهم على مهاجمة الإسلام وتشويه رموزه والخط من قدرهم، ونعتهم بكل ما هو مشين ومهين.

ونجد معظم أولئك الذين قاموا بتشويه سيرة هارون الرشيد من العجم والمدعين للشعبوية، واتبعهم الغاؤون من العلمانيين والمستشرقين، وقد تقولوا عليه زوراً وبهتاناً.

وكلما كانت الشجرة مثمرة تعرضت للقذف والاهتزاز وللرغبات الانتهازية والافتراء والاعتداء، وكان عصر هارون الرشيد أزهى عصور دولة الإسلام، فتعرض للهجوم ووصم بكل كره ومخز، وتعرض هارون كرمز لدولة الإسلام للأكاذيب والافتراءات وهو صاحب السيرة العطرة والمؤمن الملتزم بإسلامه، المحب لرسوله صلى الله عليه وسلم، والكاره للزندقة، والمحب للعلم والعلماء.

كان هارون الرشيد صاحب شخصية مستقرة لا يخشى في الله لومة لائم، يكره في الله، ويحب في الله، وكان مرهف الحس، متذوقاً للأدب والفن والشعر، وحفظ لكتاب الله مكانته ولسنة نبيه كيانها.

الرشيد الذي نقش على خاتمه: "لا إله إلا الله"، وعلى آخر: "الله ثقني به آمنت"^٢، وقد قال منصور النمري في الرشيد^٣:

جعل القرآن إمامه ودليله لما تخير القرآن ذماما

وأمام هذا الظلم لهذا الخليفة المؤمن التقي وجب على كل مؤمن مثقف أن يبحث في أسباب تشويه هذه السيرة العطرة ومن وراء هذا التشويه.

١ - البداية والنهاية.

٢ - تاريخ الموصل.

٣ - تاريخ الخلفاء.

كيف شوّهت دولة هارون الرشيد

ألف ليلة وليلة

الليالي العربية (ليالي الأندلس)، وهي مجموعة من القصص المصنوعة، فارسية الأصل^(١) وهي الهزار نامة، أو الهزار أستا (ألف خرافة)، وهي نسخ مفقودة، الأمر الذي جعل من العسير توثيقها، ولكنها تقوم مقام الأساطير الخرافية والتي كانت تسرد، وكانت تمثل التسلية عند كل الشعوب القديمة، فأخذها مؤلف مجهول، وأقمصها حياة الرشيد وجعلها تعبر عن حياته، وتلقفتها أيدي المستشرقين وقاموا بترجمتها باسم (الليالي العربية)، وانتشرت في أنحاء الغرب لتكون وسيلة التندر على العرب والمسلمين.

في جو خيالي بعيد عن الواقع، وشخصيات غريبة وأسطورية، وحياة تقوم على الابتذال والتنطع وارتكاب كل ما هو محرم، وضعت هذه القصص، ليهفو إليها القارئ الذي يبحث عن كل غريب وعجيب، وانطبع في ذهن القارئ في شرق الأرض وغربها أن المسلم يحيا عبداً لغرائزه، وفي سبيل الحصول على شهواته يرتكب كل المعاصي.

ونشط المستشرقون في الغرب وقاموا بترجمة ألف ليلة وليلة، فانتشرت في دول أوروبا وأصبحت مادة ثرية للخيال والإبداع وصناعة

١ - ابن النديم المتوفى عام ٤٣٨هـ.

الأفلام، وما زالت إلى الآن تظهر قصص ألف ليلة وليلة في كتب مصورة منها الكتب الأدبية والكتب المخلة بالأدب.

كان عصر الرشيد في الشرق متزامناً مع عصر شارلمان في الغرب، وكانت حروب وغزوات الرشيد وانتصاراته على الروم البيزنطيين، الأمر الذي جعله مسار إعجاب الغرب وقصصه وجولاته ومغامراته، ومادة للسمر والحديث بين شعوب الغرب، وعرفوا ما لعصر الرشيد ودولة الإسلام من ثراء وترف فربطوا بين قصر شارلمان وما به من شراب وفسق وفجور وما يجب أن يكون عليه قصر الرشيد وهو الأكثر ثراء ورفاهية، فأصبح الرشيد بطل قصص ألف ليلة وليلة، ويعج قصره بالجواري والمغنيات، وهو الذي لم يسمع عن ألف ليلة وليلة؛ حيث إن من المعلوم أن ترجمة ألف ليلة وليلة من الهندية والفارسية لم يتم إلا خلال القرن الثالث الهجري، غير أنه أصبح عصر الرشيد وهو رمز العصر الذهبي لدولة الإسلام هو العصر الذي ماج بالفجور والمعاصي، وتُروى عنه الأساطير والحكايات العجيبة والعشق الماجن.

كان لنشاط الحركة الشعبية التي بُعثت من فارس وتم تصديرها إلى بلاد الهند والسند وبلاد الترك أثر كبير في الافتراء والكذب على هارون الرشيد وعصره، وفي زمن سبق الطباعة بكثير، وكان الشعر وحكاية الأساطير هي مواد التسلية وقضاء وقت ممتع، وكثيراً ما يضيف الراوي والشاعر خيالات من بنات أفكاره ليجعل شعره أو روايته مشوقة ممكنة تجذب وتشد الانتباه، وانتشر ذلك في الشرق والغرب أثناء العصور الوسطى، وكثيراً ما كانت القصص والروايات والأشعار تبث على لسان غير معروف مجهول الهوية، يخلق الأكاذيب والافتراءات، وعندما تنتقل الراوية من جمع إلى آخر يضاف إليها،

وبمرور الزمن يختفي الراوي الأول، وتنطمس المعالم الحقيقية للرواية، وتختلط الأكاذيب بالحقائق، ويصبح من العسير التفريق بين الغث والطيب من الكلام، والصحيح والمعتل من الخبر.

وإمعاناً في تشويه رموز الإسلام والطعن في نزاهتهم وإنقاصاً من قدرهم، وتلطيح سمعتهم، ألصق بهارون الرشيد علاقته بأبي نواس ذلك الشاعر الماجن، وتم الترويج لهذه الافتراءات بأقلام عربية وأجنبية معتمدين في ذلك على كتاب الأغاني للأصفهاني، وهو كتاب أدبي مأخوذ من الموروث العربي والأعجمي من الشعر والقصص الروائي.

ويذكر أن أبا نواس اشتهر بالشعر الماجن، واتسمت شخصيته بالانحلال ومعاقرة الخمر ومطاردة النساء والسلوك المشين، وهذه الشخصية لا تتفق أبداً مع سيرة الرشيد الذي كان حاكماً لأعظم دولة ويدير شئونها، ولا يستقيم ذلك مع خليفة يحج عاماً ويغزو عاماً، ويجالس الفقهاء والعلماء.

وقد يكون أبو نواس بحكم تزامنه مع هارون ضمن الشعراء الذين كانوا يتوافدون على قصر الخلافة، ولكن نستبعد أن يكون أبو نواس نديم الخليفة والمقرب إليه، ويذكر المحققون أن أخبار الرشيد مع أبي نواس موضوعات لا تصح، وأن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط.

ومما يجعل الأمر مخلوطاً ومغلوطاً أن نسب لأبي نواس شعر ماجن ليس له، وأفعال لم يأتها، وأخبار وأحداث لم تحدث إلا بعد وفاته بزمان، وقد خلط بين شعره وشعر بشار بن برد؛ الأمر الذي يؤكد أن حركة الشعوبية المناهضة للحكم العربي قامت بالكثير من أعمال الدس والوضع والافتراء على الخليفة المؤمن هارون الرشيد.

وعلى ذلك نذكر شعراً للحسن بن هانئ (أبي نواس) الذي قال:
يارب إن عظمت ذنوبي كثرةً فلقد علمت بأن عفوك أعظم

إن كان لا يرجوك إلا محسن
أدعوك ربي كما أمرت تضرعاً
فمن الذي يدعو ويرجو المجرم
فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم
مالي إليك وسيلة إلا الرجا

وقد كتب على قبر أبي نواس:
يـانـواس تـوقـر
وتعزى وتـصـير
إن يكن ساءك دهر
و الله من ذنبك أكبر
يا كبير الذنب عـف

وإن كان بعض ما نسب لأبي نواس مدسوس عليه، فمن المعقول أن صلته بهارون العاقل الرشيد الذي عرف بثقافته الدينية وصحيح عقيدته مرفوضة ولا صحة لها.

وقد طعن الكثير من العلماء والأدباء في كتاب الأغاني للأصفهاني والذي اتخذ مرجعاً لربط حياة الرشيد بأبي نواس، ومنهم:

قال الخطيب: حدثني أبو عبد الله الحسين بن محمد بن طباطبا العلوي، سمعت أبا محمد الحسين بن النوبختي كان يقول: كان أبو الفرج الأصفهاني أكذب الناس، كان يشتري شيئاً من الصحف ثم تكون رواياته كلها منها، ثم قال العلوي: وكان أبو الحسن البتي يقول: لم يكن أحد أوثق من أبي الفرج الأصفهاني، وعندما نبحت من هو أبو الحسن البتي الذي شهد هذه الشهادة نجده ماجناً خليعاً تُرفض شهادته.

ومن كتب أبي الفرج الأصفهاني: أخبار القيان، كتاب الممالك والشعراء، كتاب أدب الغرباء، كتاب أخبار الطفيليين، كتاب الخمارين والخمارات، كتاب الغلمان والمغنيين، كتاب مناجيب الخصيان، هذا هو أدب الأصفهاني وثقافته المريضة، وفكره المنحط، وطبيعته الشاذة، وجاء في (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب): إنه كان (أبو الفرج) وسخاً قدرأ لم يغسل ثوبه منذ فصله إلى أن قطعه، ثم

ذكر ما ذكره ياقوت الحموي^(١) عن غرامياته ومجونه، وجاء في لسان الميزان بشأن الأصفهاني (الأصبهاني) أنه شيعي يأتي بالأعاجيب يحدثنا ويخبرنا.

ومن المؤسف أن يعكف بعض الأدباء على كتاب الأغاني ويأخذون منها الأعاجيب والروايات، وجعلت من نوادر أبي نواس. وجعلت من نوادر أبي النواس مرجعاً تاريخياً لعصر يعتبر من أزهى عصور الدولة الإسلامية ويتم الخلط بين الواقع التاريخي الحقيقي والإسفاف والمجون، فيكون السم الذي يوضع في العسل، فكيف تكون حياة الخلفاء العباسيين مغلقة باللهو والعبث والمجون.

وشتان بين الدكتور عبد المنعم ماجد^(٢) في كتابه العصر العباسي الجزء الأول^(٣) والأستاذ أحمد أمين في كتابه هارون الرشيد،^(٤) فالأول مؤرخ أكاديمي يبحث في السبب والعللة ويستوثق الخبر ويشرح الحدث ونتائجه، وكل ذلك من منظور إسلامي وعقيدة صحيحة وفكر معتدل وموروث عربي إسلامي، ولسنا في حل أن الحكم على أحد العرب بالانسياق إلى دروب المستشرقين أو العلمانيين المحسوين على الإسلام.

وأحمد أمين صاحب كتاب ضحى الإسلام هو إلى الأدب أقرب من التاريخ، وقد أخذ عليه ميوله إلى الاستشراق^(٥) وهو الأزهري الذي اتبع منهج طه حسين وهو أيضاً أزهري له أراؤه الصادمة أحياناً

-
- ١ - معجم الأدباء.
 - ٢ - أستاذ التاريخ الإسلامي.
 - ٣ - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٣.
 - ٤ - هارون الرشيد د/ شوقي خليل - دار الفكر.
 - ٥ - كتاب الهلال عدد أغسطس ١٩٥١.

والتي لا تبعد عن الاستشراق كثيراً.

وعلى ذكر السم في العسل قال أحمد أمين عن هارون الرشيد: إنه رجل عاطفي ذواق، يخضع للمؤثرات الوقتية، فيصلي مائة ركعة كل يوم، ويحج ماشياً، وبهيم من ناحية أخرى بالجمال والغناء ومجالس الشرب، ويحدثه أبو العتاهية حديث الزهد فيبكي حتى تخضل لحيته، ويقول له ابن مريم نكتة فيضحك حتى يستلقي على قفاه.

ويعود أحمد أمين فيصف نكبة البرامكة بأنها نقطة سوداء في تاريخ الرشيد، فبعد أن أعطى البرامكة فتك بهم، وإن هذه النكبة زلزلت الشرق والغرب، حيث إن البرامكة كانوا يحسنون معاملة الرعية ويتولون كل شئونهم ويتقربون من الشعراء، واعتبر الغربيون أن هارون لم يكن عادلاً وعاقب البرامكة دون محاكمة، ولا سمعت أقوالهم، ولا عرفت أسباب النكبة عليهم، وعلق على ذلك بأن هذا هو عيب الحاكم المستبد دائماً، فهو يعمل أقصى الخير وأقصى الشر، ثم عاد ليقول: مما خلد هارون الرشيد مجالس الأدب والعلم ومجالس الغناء، وإن تجاوز الدين وأوامره بسبب اتصاله بشارلمان، وعزى قصر عمره إلى إفراطه في الشرب والشهوات.

وإذا عدنا لسيرة هارون للوقوف على الصحيح من هذه الادعاءات الكاذبة والافتراءات الزائفة والتي يروج لها المغرضون نجد أن الشراب هو (النبيد).

يختلف النبيد الحلو عن الخمر المسكر الذي نعرفه الآن، فقد جاءت في كتاب "بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع" ^(١) : وما يتخذ من الزبيب شيثان: نقيع ونبيد، أما النقيع، فأن ينقع الزبيب في الماء أياماً حتى تخرج حلاوته إلى الماء، ثم يطبخ أدنى طبخ، فما دام حلواً

١ - الإمام علاء الدين الملقب بملك العلماء.

يحل شربه، وإذا تم غليه واشتد وقذف بالزبد يحرم، أي يخمر، وأما النبيذ فهو الذي يؤخذ من ماء الزبيب، إذا طبخ أدنى طبخ، يحل شربه ما دام حلوًا، فإذا غلا واشتد وقذف بالزبد يحل شربه ما دون السكر عند أبي حنيفة وأبي يوسف، وعند محمد والشافعي لا يحل شربه، كما يحل عند أبي حنيفة وصاحبه أبي يوسف نبيذ التمر ما دام حلوًا، ويحرم إذا أسكر، وكذلك الشراب المتخذ من خلط العسل بالماء دون تخمر، وكذلك الأشربة المتخذة من الشعير والدخن والذرة والتين والسكر، وأبو حنيفة يميز الوضوء بالنبيذ عند انعدام الماء، عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "نبيذ التمر وضوء من لم يجد ماء".

وعلى ذلك يكون نبيذ هارون الرشيد ليس نبيذ هذه الأيام المسكر، وقال ابن خلدون: لم يعاقر الرشيد الخمر؛ لأنه يصحب العلماء والأولياء، ويحافظ على الصلوات والعبادات، ويصلي الصبح في وقته، ويغزو عامًا ويحج عامًا، وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق، وفتاواهم فيها معروفة، وأما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه بها، ولا تقليد الأخبار الواهية بها، فلم يكن الرجل (هارون) بحيث يواقع محرماً من أكبر الكبائر عند أهل الملة. ويقول ابن حزم عن الرشيد: أراه كان يشرب النبيذ المختلف فيه، لا الخمر المتفق على حرمتها.^(١)

ويراوغ أحمد أمين في ذلك فيقول: ونحن على اتفاقنا في الرأي مع ابن خلدون في أن الرشيد لم يشرب الخمر، إنما المعروف عنه أنه شرب النبيذ،^(٢) ولكنه لم يذكر صفة النبيذ الذي كان يشربه هارون.

١ - سير أعلام النبلاء.

٢ - ضحى الإسلام.

وترك القارئ يعتقد أن هارون كان يشرب الذي يعرفه أصحاب القرن العشرين.

وما كان العلماء والفقهاء والأتقياء الأصحاء، كالفضيل بن عياض، وأبي يوسف، والإمام مالك وغيرهم يتركون الرشيد يرتكب أحد الكبائر دون نصح أو تنبيه أو مقاطعة وابتعاد، وقد استعرضنا مسائلهم ونصائحهم ومواعظهم للخليفة دون أن نجد إشارة إلى الإقلاع عن الخمر والبعد عن المحرمات.

كان الشعر والغناء من أكثر وسائل التسلية والترفيه والتسرية عن النفس، وقد أباح أهل الحرمين الغناء وحرموا النبيذ، وأباح أهل العراق النبيذ وحرموا الغناء، وكان هارون الرشيد من الشخصيات المرهفة الحس، فكما كان يخشع للقرآن كان يسمع الشعر ويطلب للغناء، وكما كان يبحث عن الفقهاء ويرتحل إليهم ويحضر مجالسهم، كان يجزل العطاء لأصحاب القول الجميل في الشعر.

عمد أحمد أمين إلى تصوير حياة الرشيد بأنها حياة ترف وثراء، واحتشد حوله الشعراء والغانيات والحواري والسراري، وسار على نهج الأصفهاني، وابتعد عن شخصية هارون الحقيقية؛ ذلك المجاهد المسلم الذي أدار وحكم دولة مترامية الأطراف، وواجه الفتن والمؤامرات، وأخضع الإمبراطورية الرومانية وهدانه شارلمان، ولم يكن ذلك إلا من حاكم شديد البأس، قوي العزيمة صحيح البدن، رشيد العقل والفكر، وإن لم يكن كذلك لتكالب عليه أعداء الأمة الإسلامية ونحروه مخموراً.

لقد خلط أحمد أمين حين تحدث عن هارون الهزل من حياته وإن كانت شذرات، وصورها على أنها حياة مزرية وضيقة، وجعل منه شخصية مزدوجة تفعل في الليل عكس ما تفعله بالنهار.

وقال أحمد أمين: إن نكبة البرامكة نقطة سوداء في حياة الرشيد. في كتابه ضحى الإسلام، وعاد فقال: كان وراء الثقافة الفارسية ووراء العلماء الفرس قوى تحميها وتدفعها، هذه القوى ظاهرة أحياناً، وخفية أحياناً، وتنطوي على ما فيه خير أحياناً، وما فيه سوء أحياناً، منهم من يريد خدمة العلم والعمل على نشره، لا يريد بذلك إلا وجه الله والعلم، ومنهم من يريد الكيد للإسلام وأهله، ومنهم من يريد الشعبوية، ومنهم من ينشر الزندقة، ومنهم من يغلو في التشيع لأهل البيت وهو يضمّر السوء للمسلمين.

ثم عاد يقول: وقد كان من أعظم من يحمي الثقافة الفارسية وينشرها البرامكة الذين هم من أصل فارسي - وقد بينا ذلك عند الحديث عن البرامكة ونكبتهم - وما لهم من مال وفير وخير وكرم واسع يحقق رجاءهم، ويبسط نفوذهم، روى الجاحظ عن ثمامة قال: كان أصحابنا يقولون: لم يكن يُرى لجليس خالد بن يحيى البرمكي دار إلا خالد بناها له، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له، ولا ولد إلا وخالد ابتاع أمه إن كانت أمة، أو أدى مهرها إن كانت حرة، ولا دابة إلا وخالد حمله عليها. (١)

وعاد ليقول: كان هؤلاء البرامكة وأمثالهم يعملون على نشر الثقافة الفارسية، واتَّهموا بالزندقة، وكان البرامكة يحسنون إلى محمد بن الليث الخطيب، ويقدمونه وكان ممن يرمى بالزندقة، وكان هشام بن الحكم الرافضي منقطعاً إلى يحيى بن خالد البرمكي، وكان القسيم بمجالس كلامه.

وذكر أحمد أمين فقال: رأى الفرس أن انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين لم يحقق مطالبهم، فقد انتقلوا من يد عربية هي اليد

١ - نقلها أحمد أمين عن الجهشباري - تاريخ بغداد.

الأموية، إلى يد عربية أخرى هي اليد العباسية، وطمع نفوسهم أن تكون الحكومة فارسية وظهرها وحقيقتها في سلطتها ولغتها ودينها، ورأوا ذلك لا يتحقق والإسلام في سلطانه، فأخذوا يعملون لنشر المانوية والزرادشتية والمزدكية ظاهراً إن أمكن، وخفية إذا لم يمكن.

وبذلك يكون أحمد أمين قد ساق لنا وهو لا يدري أو يدري من الأسباب أقلها يقضي بضرورة القضاء عليهم والتنكيل بهم واستئصال شأفتهم، فقد كان البرامكة بوصفه وبما وصلنا إليه، كالسوس الذي ينخر دعائم دولة الإسلام، وإن كان هارون الرشيد لم يفعل في حياته سوى القضاء على البرامكة لكان ذلك كافياً ليخلد ذكره.

وحين وصف أحمد أمين هارون الرشيد بأنه حاكم مستبد، يعمل أقصى الخير وأقصى الشر نقول له: إن الماء والبخار لا يحويهم إناء كما أن الخير والشر لا يجتمعان في قلب مؤمن، وقد ذكرنا من وجوه الخير للرشيد الكثير، فأين أقصى الشر، إلا إذا اعتبر أحمد أمين القضاء على فتنة البرامكة شرّاً، أما عن حديثه بأن هارون الرشيد ما خلد إلا مجالس الشعر والغناء، فنقول له: إن المسلمين على جميع مذاهبهم وطوائفهم يذكرون لهارون الرشيد قوله المشهورة حين وقف يخاطب إحدى السحب المارة فوق رأسه قائلاً: فلينزل ماؤك أني شئت فسيأتيني خراجك، مما يدل على سعة ملكه، ويذكرون له (بيت الحكمة)، وإخضاعه الإمبراطورية الرومانية (أو نسي كلب الروم) وكثير من الصناعات المتقدمة التي أدخلها العرب في عصره، ومنها الساعات الرقاقة والأصطرلاب، وصناعة السفن، هذا بخلاف عدله وسعة علمه وتبسطه مع الرعية والنظام الاقتصادي الذي وضعه أبو يوسف في عصره (كتاب الخراج).

عندما تناول أحمد أمين حياة الرشيد حاول التركيز على الجوانب السيئة إن وجدت، أو الأخذ بالأقوال الرديئة التي تشبع في نفسه محاولة النيل من أحد أعلام دولة الإسلام والظعن عليه.

إن المؤمن الحق يسعى للشخصية البارزة ويبحث في سيرتها بارقة نور، يغوص بداخلها ويظهر ما بها من محاسن، ولا نقول أن يدعى الخير في هذه الشخصية بغير حق، ولا أن يظهر الحق ويخفي الباطل، ولكنه يظهر الحق حقاً، والباطل يحاول أن يجد له أعذاراً، فلا تسير على الأرض ملائكة، وليس هناك بشر معصوم إلا الأنبياء، ولكننا نقول: إن الغيرة على الإسلام إحدى سمات المسلم الحق.

وهناك كتب أخرى سعت للنيل من الرشيد وزادت على سوء طبيعته بأنه ديوس يغفل عن الفحشاء في أهل بيته، ومنهم دياب الإتيدي في كتابه "هارون الرشيد" ^(١) وهو صاحب كتاب "إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس"، وهو من القرن الحادي عشر الهجري، وبينه وبين هارون تسعمائة عام، وفي كتابه "هارون الرشيد" سلط الضوء على قصة مختلقة عن العباسية أخت هارون الرشيد تلك المرأة الفاضلة وقد سبق وتكلمنا عنها، وقال عنها الصولي: لا أعرف لخلفاء بني العباس بنتاً مثلها، وكانت أكثر أيام طهرها مشغولة بالصلاة ودراسة القرآن ولزوم المحراب، وكانت متزوجة من موسى بن عيسى العباسي. ^(٢)

وقد جاء الأتيدي بقصة قد روجها المؤرخون الأقدمون ويستغربها العقلاء النابهون، وقد اعتمد فيها على كتاب الأغاني للأصفهاني الذي أوردنا ذكره وفندنا رأيه، وقد تعددت الروايات التي تعتمد

١ - طبعة دار الهلال - ١٩٥١.

٢ - الإعلام.

على نص واحد ألا وهو أن الرشيد في مجلس من مجالس السكر والعريضة والمجون زوج أخته العباسة من جعفر البرمكي، دون الدخول بها حتى تتمكن من مشاركتهم جلساتهم، غير أن الفتاة ابنة الخليفة وأخت الخليفة - في قصة أغرب من الخيال - تذهب إلى أم جعفر، وتطلب منها أن تمكنها منه ليوافقها، وتقوم أم جعفر تشاركها الرأي وتنتظر حتى يكون ابنها في حالة سكر شديد لا يميز فيه بين النساء، فتدخل عليه العباسة لتحمل ولدًا بل اثنين، وترسل بهما إلى الحجاز بعيداً عن أخيها هارون - إلى هنا نقف قليلاً، إذا كان جعفر هو الذي طارد العباسة يكون الأمر معقولاً ومقبولاً، وإذا كانت الرواية على قولهم، فكيف أخفت العباسة حملها، وإذا تمكنت من إخفاء حملها مرة، فكيف كانت الثانية، والأعجب أن في رواية الأتليدي أن العباسة ولدت من جعفر ثلاث بنين، وأبسط العالمين يعرف أن الحمل والفصال في عامين أي أن هارون الرشيد غفل عن زواج أخته ست سنوات وهو الملازم لهما، وقد جعل الأتليدي من قصة العباسة سبباً في نكبة البرامكة، وقد تلقف أعداء الإسلام هذا الكتاب وترجم إلى الفرنسية على يد (لا هارب) وإلى الألمانية على يد (فون هامار).

وفي مطلع القرن العشرين جاء جرجي زيدان، وكأنه تخصص في البحث عن قصص العشق الإسلامية، وأنشأ لذلك دار نشر ببيروت، وأثرى المكتبة العربية والإسلامية بأكثر من عشرين رواية غرامية ومن بينها قصة العباسة، واعتمد في مصادره على كتاب الإتليدي (كمرجع ومصدر للبحث).

وقد أبدع جرجي زيدان وتفنن ونسج خياله قصة العباسة وغرامها بجعفر، وخاض في عرض أخت هارون الرشيد، وأغلب الظن

أنه كان يسعى للطعن على الرشيد ونزاهته وطهارة آل العباس الذين ينسبون لآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وأهله، وكان عنوان القصة (العباسة بنت المهدي).

لقد عمد جرجي زيدان إلى بعث روايات كتاب إعلام الناس للإتليدي، وعمل على نشر هذه القصص ليطعن في التراث الإسلام ويشوه حياة أحد أعلام الإسلام البارزين هارون الرشيد.

قيام دولة وهوان أمة

انتقلت الخلافة من البيت الأموي إلى البيت العباسي في حين كان الطالبيون والعلويون يهفون إليها، ويريدونها ولكنهم لم يعملوا لها، واكتفوا بالندم على ما فات والتحسر لما هو قائم والخوف مما هو آت.

لذا أصبح الطالبيون والعلويون في المعسكر المعادي للدولة العباسية، ويتمنون زوالها والقضاء عليها، وهم يرونها تزداد قوة ورونقاً، وثراء وترفاً، فأخذوا يكيدوا لها ويعينون عليها كل معتدي، أو الدس عليها وتشويه أعمالها وطمس أعمالها.

وجاء كتاب محمد بن طباطبا "الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية" محملاً بكل فنون الافتراء والكذب على الدولة العباسية وعهدها، ويذكرنا هذا بالحضارات القديمة ودولها المتعاقبة، وحتى في العصر الحديث، فأى دولة تقوم على أنقاض دولة أخرى يكون جل همها تشويه العصر الذي سبقه وإظهاره على أنه عصر استبدادي ظالم، وإن كان عهداً قوياً عابوا عليه ثراه وترفه، ووصموه بكل ما هو مشين.

نعود لـ "الآداب السلطانية والدول الإسلامية" والذي بعثه من مرقده وطبع ببيروت، والكتاب يهدف إلى تشويه عصر الدولة العباسية وعلى الأخص عصر الرشيد، ووصفه بأنه لا يخاف الله، ولم يرع أهل بيت النبوة وأولاد بنت نبيه صلى الله عليه وسلم.

وتضارب الرأي يدل على هوان الفكر وسوء المنطق وشروذ الذهن، فالكتاب نفسه الذي وصف الرشيد بأنه لا يرى الله ولا يخافه هو نفسه يصف الرشيد في موقع آخر من الكتاب ويقول عنه: كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم، كان يحج عاماً ويغزو عاماً، ويقر بأنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة، وأنه الخليفة الوحيد الذي حج ماشياً، وكان إذا حج حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة، والكسوة الظاهرة، وكان يتشبه في أفعاله بالمنصور، إلا في بذل المال، فإنه لم يُرَ خليفة أسمح منه بالمال.^(١)

وقال في نفس الكتاب: وكانت دولة الرشيد من أحسن الدول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً، وأوسعها رقعة مملكة.

كيف يقول هذا ثم يعود ليناقض نفسه ويتضامن مع البرامكة ويعلي الطالبين وينصرهم على الدولة العباسية، وقد أورد في نفس الكتاب فصلاً كاملاً عن دولة البرامكة وقال عنها: اعلم أن هذه الدولة كانت غرة في جبهة الدهر، وتاجاً على مفرق العصر، ضربت بكمارها الأمثال، وشدت إليها الرحال، ونيطت بها الآمال، وبذلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها، ومنحتها أوفى إسعادها، فكان يحيي وينوه كالنجوم زاهرة، والبحور زاخرة، والسيول دافعة، والغيوث ماطرة، أسواق الأدب عندهم نافقة، ومراتب ذوي الحرمات عندهم عالية، والدنيا في أيامهم عامرة، وأبهة المملكة ظاهرة، وهم ملجأ اللهف (المضطر) ومعتصم الطريد.

وكيف يستقيم هذا مع ذلك، فدولة داخل دولة، دولة باطنة ودولة ظاهرة، يكون الحاكم الظاهر فيها عكس شخصية هارون التي أوردتها

١ - الفخري في الآداب السلطانية.

وقال عنه أنه كان من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم وغير ذلك من الصفات النبيلة، غير أنه لم يذكر دوره حين كان أميراً وخروجه في الصوائف والشواتي وحروبه التي انتصر فيها على الروم. وكونه يحفظ الود ويعظم معلميه ويرفع قدرهم كما فعل مع يحيى البرمكي الذي كان يدعوه بأبتي تقديراً له وعرفاناً، فذلك يبرز سمو خلقه وطيب نفسه ورجاحة عقله، وعندما عرف بما تضرر نفوسهم التي تغيرت وآمالهم التي ظهرت، هبت فيه نخوة الرجال وحب الإسلام وقوة الإيمان فحاصرهم وهدم آمالهم، وفرق جمعهم وشتت شملهم، وقضى على سلطانهم، وحفظ للإسلام عقيدته، ولدين الله نزاهته، ولسنة نبيه طهارتها وعزتها.

عمد الرشيد منذ بدء خلافته إلى القضاء على ما تبقى من خلافات عالقة بين المسلمين، ومنها ما كان منذ عهد الأمويين، ومنها ما كان منذ عهد العباس وأبي جعفر المنصور والمهدي والهادي، وأخذ يللمم شتات المسلمين الخارجين منهم والمعترضين، وهو أول خليفة يمنح الولاية صلاحيات الخليفة في حكم الولاية (الحكم الذاتي) على أن يضمن ولاء الوالي لدولة الإسلام، الأمر الذي أدى إلى نزع فتيل المقاومة والحركات الشعبية وانقسام الدولة إلى شيع ومذاهب وانفراط العقد الإسلامي.

وعندما ظهرت بعض الجيوب والحركات المناوئة تعامل معها بهدوء الخليفة الواثق من قدرته على فض المنازعات ورأب الصدع وتجميع الشمل، ولم يعتمد القوة الغاشمة.

أما عن الغرب فقد تمت المواجهة بين هارون والدولة البيزنطية الشرقية والمثلة في الإمبراطورة إيرين ثم قسطنطين ثم نقفور ونعته بكلب الروم، الأمر الذي جعل الغرب ينظر إلى هذه الرسالة وهذا

النعته بعصبية وانفعال شديدين لم يفترأ حتى الآن، وتناسى الغرب والشرق المسيحي أن إمبراطور الروم حين ذاك قد نقض العهد وطالب برد الجزية، ورد عليه هارون برسالته المشهورة، وبعد هزيمته وأخذه الأمان من هارون عاد ونقض عهده وخان المسلمين وقتل منهم الكثير، فعاد هارون وهدم عليه هرقله وجعله يفر منها.

وكان من الخارجين على الخلافة العباسية يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فندب إليه الفضل بن خالد بن يحيى البرمكي لإخضاعه وإعادةه إلى حظيرة الإسلام، فاشترط يحيى بن عبد الله أن يكتب له الرشيد بخط يده عهد أمان، فكتب الرشيد عهد الأمان، وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بني هاشم ومشائخهم، وأمنه في العودة إلى بغداد، فعاد وأقام بها.

وكان هناك موقف من الرشيد تجاه موسى الكاظم بن جعفر الصادق، والذي حدد الرشيد إقامته في منزله اتقاء الفتنة بين المسلمين، وعندما أمن له الرشيد رفع عنه الحجر وأجزل له العطاء، وقال له: إن أحببت المقام قبلنا فلك عندي ما تحب، وإن أحببت المضي إلى المدينة فالإذن في ذلك لك.

تلك هي سياسته مع الخارجين عليه والمناوئين لحكمه، أما القول بأن الرشيد هو الذي حصد شجرة النبوة، واقتلع غرس الإمامة، فذلك قول دون سند، وافترأ دون قرينة، تثبته سيرة هارون الرشيد، صاحب الجاه والسلطان والقوة والنفوذ، ولكنه كان كريماً حليماً، إلا فيما ندر، وعندما يتعلق الأمر بدين الله وحرمة المقدسات والتأول على أهل العلم والفقهاء.

الخلاصة

إن هارون الرشيد كغيره من الأعلام، قد تعرض للتشويه والطعن

من بعض الأقلام التي لها أهداف واضحة، ألا وهي الطعن في الإسلام، ولكنهم يمحرون ويمكرون والله خير الماكرين.

سهام غربية

تعرض الغرب في عهد الرشيد لهزات سياسية وحربية عنيفة، أقضت مضاجعهم وزلزلت كياناتهم، وهدمت قلاعهم، حتى أنهم بعد سلسلة من الهزائم هرعوا لمهادنته وسعوا لقيام سفارات وتبادل الزيارات والرسالات.

أسفرت مواجهات الرشيد مع الإمبراطورة إيرين عن إخضاع الروم البيزنطيين، ودفع الجزية، ثم تمكن نقفور من عزل الإمبراطورة إيرين وأصبح إمبراطور الروم البيزنطيين، ونقض العهد وطالب برد الجزية، فأرسل إليه هارون رسالته المشهورة ونعته فيها بكلب الروم.

وعلى الجانب الآخر من العالم في جهة الغرب كان شارلمان الذي تمكن من جمع مسيحيي الغرب تحت لوائه وناصر دولة الروم البيزنطيين في الشرق العداء، فسعى للتقرب من الدولة العباسية لإحكام الخناق على نقفور وزعزعة الباقي من إمبراطوريته في الشرق (القسطنطينية)، وفي نفس الوقت يفرق بين المسلمين في الشرق ودولة المسلمين في الأندلس.

لم يكن الرشيد يفكر في حرب دولة الأمويين في الأندلس ولم يكن ليعاديهم وينصر عليهم شارلمان، رغم ما حدث من تقارب وتبادل للسفارات والرسائل.

كانت دولة الإسلام في عهد الرشيد هي القوة العظمى في العالم، والنند القوي المسيطر والمهيمن، وتخشاها الدول المجاورة، وبادل الأمويين بالأندلس احترامه لهم، فلم يدع أمراء الأندلس خلافة المسلمين ولم ينازعوا الخلافة صاحبها في بغداد.

كان شارلمان يعتبر نفسه صاحب الحق والولاية على مسيحيّ العالم وراعي كنيستهم، لذا نجد في مراسلاته إلى هارون الرشيد بها من التفخيم والتعظيم ما يعلي شأنه بين قومه، ويوحى بأنه إمبراطور الروم الذي يخاطب خليفة المسلمين، وكان ذلك من أسلوب دعائي يساعده في رأب صدع الدولة المسيحية في الغرب والتي كانت على شفا حفرة.

ولذا نرى المؤرخين الغربيين يقارنون بين الرشيد وشارلمان من حيث حياة القصور والحاشية والمحظيات، وقد ظن المؤرخون أن حياة القصور العربية تشابه حياة القصور الغربية وما بها من شرب الخمر ومضحك السلطان، وغير ذلك من عادات وتقاليد أوربية وهي مغايرة تماماً، وكأن الثراء والرفاهية والملك لا يكتمل إلا بالخمر والنساء والليالي الماجنة، فأخذوا شذرات من حياة هارون الرشيد واتسع خيالهم فكانت الليالي العربية الحمراء..

وقد أدى ذلك إلى تشويه صورة هارون الرشيد في أذهان الغرب، وانتشرت الروايات البيزنطية والكنيسة الغربية، أضيف إليها وحذف منها لخلط الأمور ولتصوير العرب والمسلمين على أنهم عبيد شهواتهم، وإذا كان هذا الحال مع أقوى دولة إسلامية فما هو الحال بعد أن أصبحنا من دول العالم الثالث...

خاتمة

كل نفس ذائقة الموت، ولكل أجل كتاب وكل مخلوق إلى فناء، وكل سلطان زائل، ولا يغني جاه ولا سلطان عن السؤال، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، ولا يستوي على الصراط إلى من أتى الله بقلب سليم وعمل صالح.

تولى هارون الرشيد خلافة دولة الإسلام في أزهى عصورها، رقيًا وترفاً وثراء وثقافة وقوة واستقراراً واتساعاً، وترك كل ذلك ورحل عن الدنيا على غير ميعاد ولم يصحبه إلا ما كسبت يدها، ونحسبه عند الله من الصالحين، وندعو الله أن يتجاوز عن سيئاته، وأن يزد في حسناته، ولا نزكيه على الله فهو أرحم الراحمين، وهو الأعم بالمتقين ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

لم يرسل الله سبحانه وتعالى ملائكة تمشي بين الناس، ولا كمال لبني البشر إلا لسيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم نبي الملحمة ورسول الرحمة، والبشر فيهم المخطئ ومنهم المصيب، ومن يرضى عنه الله ويجعل نفسه لوامة تعيده عند الجموح وتردعه عند الجنوح، وتصوبه إذا أخطأ وتزرعه إذا أسرف، وإذا فاض عليه من كرمه هياً له سبل الهداية والرشاد، وقيض له من يعينونه على الخير والصلاح.

ولد الرشيد عام سبع وأربعين ومائة من الهجرة، وبويع له بالخلافة، وأصبح خليفة للمسلمين بعد أخيه موسى الهادي عام سبعين ومائة وهو ابن الثالثة والعشرين من عمره وظل أمير المؤمنين ثلاثة وعشرين

عاماً أي نصف عمره، وتوفي عام ثلاث وتسعين ومائة من الهجرة. ولد أميراً ونشأ في قصر الخلافة، وتأدب على يد فقهاء عصره، وصاحبه أباه في حله وترحاله، واتصل بفقهاء الحجاز وبأئمة الإسلام في مصر والشام، وتولى قيادة الجيوش وهو ابن السادسة عشرة، وخاض المعارك في الصوائف والشواتي، وأقام الثغور وشيد العواصم، انتصر وانكسر وعرف من الدنيا خيرها وشرها، وصبر واحتسب، وأحب في الله وغضب لله ورسوله، وحافظ على عرى الإسلام ووحدة الدولة، ولم يفرغ لسلطان القوة إلا على الغادر والناقم والمخالف لشرع الله والخارج على سنة نبيه.

جاهد في سبيل الله ورفعته الإسلام، ولُقّب بالحاج الغازي، حيث كان يحج عاماً لتطهير النفس من أدران الدنيا، وقام الليل ليتطهر من أوزارها، وغزا في سبيل الحفاظ على كيان الدولة ونشر الدعوة، وسالم وهادن في سبيل إفشاء السلام ونشر الأمان وإقرار الأمن، وأقام السفارة ومد العمارة وقدم الموعظة على القتال والدماء.

عرف الشعر والأدب، فسامر الشعراء ونادم الأدباء، قدر العلم والعلماء فأجزل العطاء وأظهر السخاء، سعى إلى الفقهاء وتقرب إلى الأتقياء، اتسع صدره وأعمل فكره، فكان كالشجرة الطيبة الوارفة المثمرة، ومثالا طيباً للحاكم العادل.

كان هارون الرشيد يمثل رمزاً لعظمة الإسلام في أروع صورته الإنسانية، فتعرض لكثير من أقوال ذوي النفوس الضعيفة والأحقاد الدفينة والشعوبيين، والذين يستنفذون طاقتهم وقدراتهم لمهاجمة الإسلام ورموزه لتنال من شخوصهم طعناً في العقيدة وإهداراً للسنن المطهرة، وارتفعت أبواب الحقد الأعمى.

وصار هارون الرشيد هدفاً، وكالوا له من سيئ الصفات وقبيح
النعوت.

كيف يجتمع الكفر والإيمان في قلب واحد، وكيف تكون الزندقة
والتقوى وجهين لعملة واحدة، وكيف يتفق الكرم والسخاء مع
الدناءة والخسة، وكيف يوضع الطيب والخبيث في إناء واحد، وكيف
لمن يسعى لرفع راية الإسلام أن يحط من كرامة الإنسان.

الحق من أسماء الله وصفاته، فلا بد من أن يظهرها على رءوس
الأشهاد مهما طال زمن الظلم وهو الكاشف لستر أصحاب الإفك.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وعليه قصد السبيل.

رسالة أبي الربيع محمد بن الليث من هارون الرشيد إلى قسطنطين ملك الروم

ما كاد القرن الثاني الهجري ينتصف حتى كانت راية الإسلام ترفرف على أكثر عواصم المعمورة في آسيا وأفريقيا وأجزاء من أوروبا، وكانت الإمبراطورية الفارسية قد ذابت في مجتمع دولة الإسلام، ولم يتبق من الإمبراطورية الرومانية الشرقية إلا فلول وجيوب متناثرة هنا وهناك، وكانت الحرب سجالا بين الروم البيزنطيين وبين كروفر، وظلت عاصمتهم القسطنطينية صامدة أمام جيوش الإسلام وضرباتهم، غير أنهم وتحت الحصار فرضت عليهم الجزية، وقد سبق وأشرنا إلى الإمبراطورة إيرين التي ظلت تحكم باسم ابنتها قسطنطين حوالي عشرين عاماً، حتى انقلب عليها واستولى على العرش، ثم عادت إلى العرش، وقامت بسمل عيني ابنتها وجعلته أعمى.

وهذه الرسالة التي بين أيدينا أرسلها أمير المؤمنين هارون الرشيد إلى الملك قسطنطين، وهو إمبراطور الروم، وقام بكتابتها أبو الربيع محمد بن الليث، وكنا قد عزمنا على أن نقطف من هذه الشجرة اليانعة بعض الثمار، أو نقبس منها بعض الفقرات، أو نخزها في عدة أسطر.

وعندما هممت بذلك وقرأتها ثم أعدت قراءتها وجددتني مشدوداً إليها، فهي دراسة عميقة في علم مقارنة الأديان، ونهر فياض من

البلاغة، ونور ساطع في الفقه، ومنهل لكل طالب علم، ورغم أنها كتبت لأحد أباطرة الروم تدعوه بالحسنى إلى كلمة سواء لنشر السلام والمحبة دعوة عيسى عليه السلام، وتجنب الحرب وإراقة الدماء، وإرساء قواعد الأخوة في الإنسانية، وأن الدين لله، ولا إجبار لأحد لتغيير دينه وملته، وذلك عكس ما يراد بالإسلام، وأنه انتشر بحد السيف، فإن الرسالة جلية واضحة، وبلغه أهل زمانها، ولكنني وجدت أن مسلمي اليوم أحق بقراءتها وأولى؛ ليتعرفوا سماحة دينهم الحنيف بعد أن تركوا الأصول واختلفوا في الفروع، فتشتت شملهم، وذهبت ريجهم، وضاعت هيبتهم، وهانوا في أعين أنفسهم، فهانوا على الناس، وتقطعت بهم السبل، ولذلك فقد رأيت أن أنقلها كاملة بغير نقصان، فليس فيها ما يمكن حذفه أو الالتفاف حوله، والله أسأل أن يتغمد صاحبها وكل من عمل على نشرها برحمته، ولكل من قرأها وتدبرها سعادة الدارين.

أما عن كاتبها فهو محمد بن الليث الخطيب، وقد ذكرت ترجمته وصفاته ضمن رجال الرشيد.

رسالة أبي الربيع محمد بن الليث

قام الرشيد بعدة صوائف ضد الروم منذ أن كان أميراً وولياً للعهد، وعندما ولي الخلافة استمر في مجابهة الروم، ويذكر أن الصوائف التي تمت في عهد الرشيد كانت أقسى الصوائف وطأة على الروم البيزنطيين، وأكثرها إذلالاً لهم، وكثيراً ما كان يقود هذه الصوائف بنفسه.

أحدثت هذه الصوائف زلزالاً في الكيان الروماني، الأمر الذي دفع الروم في عهد الإمبراطورة إيرين وابنها الأمير قسطنطين السادس الذي انقلب على أمه، واعتلى العرش في ظل الهدنة مع الدولة الإسلامية،

وقبل أن تعود الإمبراطورة، وتستولي على العرش، وتسمل عيني ابنها، في ظل هذا التخبط والصراع الثلاثي على عرش الروم: بين الإمبراطورة إيريني، وابنها قسطنطين، والملك نففور الذي قاد حركة انقلاب على الإمبراطورة.

كان هارون قد حاصر الروم في قلاعهم، وأجبرهم على دفع الجزية، ولما كان الأصل في الخلافة ليس الجباية وأخذ المال بالباطل، وإنما نشر دين الإسلام، وحماية مقدساته، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وإظهار دين الله، وبث دعوة محمد عليه الصلاة والسلام بين البشر، طلب هارون الرشيد من كاتبه أبي الربيع محمد بن الليث القرشي أن يكتب إلى الملك قسطنطين ملك الروم رسالة تعتبر من أهم ما قيل في علم مقارنة الأديان.

وهذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلى قسطنطين عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، فإنني أحمد الله الذي لا شريك معه، ولا ولد له، ولا إله غيره، الذي تعالى عن شبه المحدودين بعظمته، واحتجب دون المخلوقين بعزته، فليست الأبصار بمدركة له، ولا الأوهام بواقعة عليه، انفراداً عن الأشياء أن يشبهها، وتعالى أن يشبهه شيء منها، وهو الواحد القهار الذي ارتفع عن مبالغ صفات القائلين، ومذاهب لغات العالمين، وفكر الملائكة، فليس كمثل شيء، وله كل شيء، وهو على كل شيء قدير.

أما بعد:

فإن الله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه قال لنبيه صلى الله عليه وسلم فيما أنزل من آيات الوحي إليه: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ

بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ {١} الآية.

فراي أمير المؤمنين من أحسن قوله وأفضل فعله أن يكون إلى
سبيل ربه داعياً، وبرسوله صلى الله عليه وسلم متأسياً، ولقوله:
{وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ
الْمُسْلِمِينَ} ٢ موافقا.

وقد رجا أمير المؤمنين استماعك لموعظته، وانتفاعك بمجادلته
انتفاع بشر كثير، وخلق عظيم قد بثت بأوزارهم مع وزرك،
واحتملت من آثامهم إلى إثمك، فأحب أن يدعوك ومن رجا أن ينتفع
بدعوته معك إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله، ولا
نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا أربابا من دون الله، فإن توليتم
عن ذلك رغبة عنه أو تركتموه زهادة فيه، فاشهدوا بأنا مسلمون،
واستمعوا ما أمير المؤمنين واصف لكم، ومحتج به إن شاء الله بقلوب
شاهدة، وأذان واعية، ثم اتبعوا أحسن ما تسمعون، ولا قوة إلا بالله.

فإن الله عز وجل يقول فيما أنزل من كتابه، واقتصر على عباده:
{فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ
الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ} ٣ الآية

إن الله تبارك اسمه وتعالى جده وصف فيما أنزل من آياته وشرع
من بيناته الأمم الماضية والقرون الخالية والملل المتفرقة، الذين يجعلون
مع الله آلهة أخرى لا برهان لهم بها، ولا حجة لهم فيها، فقال: {يَا
أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا

١ - النحل ١٢٥.

٢ - فصلت ٣٣.

٣ - الزمر: ١٧، ١٨.

الْمَسِيحُ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ^١ الْآيَاتِ.

قالت العرب الذين يعبدون الملائكة، وأهل الكتاب الذين يقولون ثالث ثلاثة: بأيّتا آية يا محمد تزعم أن الله إله واحد؟

فأنزل الله عز وجل في ذلك آية تشهد بها العقول وتؤمن بها القلوب وتعرفها الأبواب، فلا تستطيع لها رداً، ولا تطيق لها جحداً، ذكر فيها اتصال خلقه وإتقان صنعه، ليقون الجاهلون من العرب والضالون من أهل الكتاب أن الله إله السماء والأرض وما بينهما: من الهواء والخلق، واحد لا شريك له، خالق كل شيء، معه، فقال: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ} ^٢ الْآيَةَ.

فنفكر في تفسير هذه الآية من كلام الرب عز وجل وما أوضح فيها من بيان الخلق، فإنه ما من مفكر ينظر فيما ذكر الله فيها مما بين السماء والأرض إلا رأى من اتصال بعض ذلك ببعض، مثل ما رأى في تدبيره نفسه، وعرف من اتصال خلقه فيما بين ذواته شئون رأسه إلى أطراف أنامل قدمه، وفي ذلك أوضح آية وأبين دلالة على أن الذي خلقه وصنعه إله واحد لا إله معه، ولا من شيء، ابتدعه أولاً على مثال صنعه.

١ - النساء: ١٧١، ١٧٢.

٢ - البقرة: ١٦٤.

قد ترون بعيونكم وتعلمون بعقولكم أن الله عز وجل خلق
للأنام الأرض، وجعلها موصولة بالخلق، فليس يدحوها إلا لهم، ولا
يديها إلا معهم، وجعل ذلك الخلق متصلاً بالنبت لا يقوم إلا به،
ولا يصلح إلا عليها، وجعل هذا النبت الذي جعله متاعاً لكم،
ومعاشاً لأنعامكم، متصلاً بالماء الذي ينزل من السماء بقدر معلوم،
لمعاش مقسوم، فليس ينجم النبت إلا به، ولا يحيا إلا عنه، وجعل
السحاب الذي يبسطه كيف يشاء متصلاً بالريح المسخرة في جو
السماء، تثيره من حيث لا تعلمون، وتسوقه وأنتم تنظرون، كما قال
عز وجل: {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَثِيرُ سَحابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ
مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ} ^١ الآية.

ووصل الرياح التي يصرفها في جو السماء بما يؤثر في خلق الهواء
من الأزمنة التي لا تثبت الهواجر إلا بثباتها، ولا يزول عنه برد إلا
بزوالها، ولولا ذلك لظل راکداً بالحر المميت، أو مائلا بالبرد القاتل،
ووصل الأزمنة التي جعلها متصرفة متلونة بمسير الشمس والقمر
الدائبين لكم، المختلفين بالليل والنهار عليكم، وجعل مسيرهما
الذي لا تعرفون عدد السنين إلا به، ولا موقع الحساب إلا من قبله،
متصلاً بدوران الفلك الذي فيه يَسْبَحَان، وبه يأفلان، ووصل مسير
الفلك بالسماء للناظرين سواء، فهذا خلق الله عز وجل ما فيه تباين،
ولا تزايل، ولا تفاوت، كما قال سبحانه تعالى: {مَا تَرَى فِي خَلْقِ
الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ} ^٢ الآية.

ولو كان لله شريك أو معه ظهير عليه يمسك منه ما يرسل، ويرسل
منه ما يمسك، أو يؤخر شيئاً من ذلك عن وقت زمانه، أو يعجل قبل

١ - فاطر: ٩.

٢ - الملك: ٣.

مجيء إبانة؛ لتفاوت الخلق، ولتباين الصنع، ولفسدت السماوات والأرض، ولذهب كل إله بما خلق.

كما قال عز وجل وكذبَ المِيطِلين، فقال: {بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ}١ الآيات.

والعجب كيف يصف مخلوق ربه، أو يجعل معه إلهاً غيره وهو يرى فيما ذكر الله من هذه الأشياء صنعة ظاهرة، وحكمة بالغة، وتأليفاً متقناً، وتدبيراً متصلاً من السماوات والأرض، لا يقوم بعضه إلا ببعض، متجلياً بين يديه، مائلاً نصب عينيه، يناديه إلى صانعه، ويدله على خالقه، ويشهد له على وحدانيته، ويهديه إلى ربوبيته، {فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لَأ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ}٢، حقاً ما كرر هؤلاء الجاهلون بربهم الضالون عن أنفسهم في خلق الله النظر، ولا رجعوا - كما قال الله عز وجل - الفكر، ولو أعملوا فكرهم وأجهدوا نظرهم فيما تسمع آذانهم، وترى أبصارهم من حوادث حالات الخلق، وعجائب طبقات الصنع؛ لوجدوا في أقرب ما يرون بأعينهم من التأليف لتركيب خلقهم، والأثر في التدبير بصنعهم؛ ما يدهم على توحيد ربهم، ويقف بهم على انفرادهم بخلقهم، فإنهم يرون في أنفسهم بأعينهم، ويجدون بقلوبهم أنها مخلوقة بعد صنعة، ومحولة طبقة عن طبقة، ومنقولة حالاً إلى حال: سلالة من طين، ثم نطفة من ماء مهين، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظماً كساه الله عز وجل لحماً، ونفخ فيه روحاً فإذا هو خلق آخر، فتبارك

١ - المؤمنون: ٩٠، ٩١.

٢ - الأعراف: ١٩٠، ١٩١.

الله أحسن الخالقين، الذي خلق في قرار مكين، من ماء قليل ضعيف ذليل، خلقاً صورته بتخطيط، وقدره بتركيب، وألفه بأجزاء متفقة، وأعضاء متصلة، من قدم إلى ساق إلى فخذ، إلى ما فوق ذلك من مفاصل يعلن أو عجائب ما يبطن، ليعلم الجاهلون ويوقن الجاحدون أن الذي صنع ذلك وخلقهم ودبره وقدره وهياً ظاهره وباطنه إله واحد لا شريك معه، فلا يذهبن ذكر هذا صفحا عنكم، ولا تسقط حكمته جهلاً به عليكم، وفكروا في آيات الرسل وبينات النذر؛ فإن في ذلك فكراً للمبصرين وبصراً للمعتبرين وذكرى للعابدين، والحمد لله رب العالمين.

وأمر المؤمنين واصف لكم ومقتصر من ذلك إن شاء الله عليكم ما فيه شهادات واضحات وعلامات بينات، ومبتدئ بذكر آيات نبينا صلى الله عليه وسلم فيما أنزل الله منها في الوحي إليه، فإنه ما أحد يقرع بآيات النبوة قلبه، ويحصن بينات الهدى عقله إلا قاداته حتى يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، لا يجد إلى إنكار ما جاء به من الحق سبيلاً، فأردت أن تكونوا على علم ومعرفة ويقين وثقة من أمر محمد صلى الله عليه وسلم وحقه وما أنزل إليه من ربه عز وجل.

فَأَحْضِرْ كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَهَمَّكَ، وَأَلْقِ إِلَى مَا هُوَ وَاصِفٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ سَمْعَكَ.

إن الله عز وجل اصطفى الإسلام لنفسه، واختار له رسلاً من خلقه، وابتعث كل رسول بلسان قومه ليبين لهم ما يتبعون، ويعلمهم ما يجهلون من توحيد الرب وشرائع الحق؛ {لِيُثَبِّتَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}¹. الآية

¹ - البقرة ١٥٠.

فلم تزل رسل الله قائمة بأمره متوالية على حقه في مواطن الدهور
وخوالي القرون وطبقات الزمن يصدق آخرهم بنبوّة أولهم، ويصدق
أولهم قول آخرهم، ومفاتيح دعوته واحدة لا تختلف ومجامع ملتهم
ملتئمة لا تفترق، حتى تناهت الولاية والوراثة التي بشر بها عيسى
عليه السلام إلى النبي الأمي الذي انتخبه الله لوجيه واختاره بعلمه،
فلم يزل ينقله بالأباء الأخايير والأمهات الطواهر أمة فامة، وقرنا فقرناً
حتى استخرجه الله في خير أوان وأفضل زمان من أثبت محاتد أرومات
البرية أصلاً، وأعلى ذوائب تبعات العرب زعمًا وأطيب منابت
أعياض قريش مغرسًا، وأرفع ذُري مجد بني هاشم شرفاً محمد صلى
الله عليه وسلم خيرها عند الله وخلقه نفساً على حين أوحشت
الأرض من أهل الإسلام والإيمان، وامتلات الآفاق من عبدة الأصنام
والأوثان، واشتعلت البدع في الدين وأطبق الظلم على الناس
أجمعين، وصار الحق رسماً عافياً، وخلقا بالياً ميتاً وسط أموات ما أن
يحسون للهدى صوتاً يسمعونه ولا للدين أثراً يتبعونه، فلم يزل
رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً بأمر الله الذي أنزل إليه
يدعوهم إلى توحيد الرب عز وجل ويحذرهم عقوبة الشرك ويمجادهم
بنور البرهان وآيات القرآن وعلامات الإسلام صابراً على الأذى
محتماً للمكروه .

وقد ألهمه الله عز وجل أنه مظهر دينه ومعز تمكينه وعاصمه
ومستخلفه في الأرض، فليس يثنيه ريب ولا يلويه هيب، ولا يعنيه
أذى، حتى إذا قهرت البيئات ألبابهم وبهرت الآيات أبصارهم،
وخصم نور الحق حجّتهم، فلم تمتنع القلوب عن المعرفة بدون
صدقه، ولم تجد العقول سبيلاً إلى دفع حقه، وهم على ذلك مكذبون
بأفواههم وجاحدون بأقوالهم، كما قال الله عز وجل العليم بما يسرون

الخابر بما يعلنون: {فَإِنَّهُمْ لَأُكَدِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} ^١ الآية، بغياً وعداوة وحسداً ولجاجة، افترض الله عليه قتالهم وأمره أن يجرد سيفه لهم وهم في عصابة يسيرة وعدة قليلة مستضعفين مستذلين يخافون أن يتخطفهم العرب، وتداعت عليهم الأمم، وتستحملهم الحروب، فأواهم في كنفه وأيدهم بنصره، وأنذرهم بمقدمة من الرعب ومشغلة من الحق وجنود من الملائكة حتى هزم كثيرا من المشركين بقلتهم، وغلب قوة الجنود بضعفهم؛ إنجازاً لوعده وتصديقا لقوله: {وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} ^٢، فأحسن النظر وقلب الفكر في حالات النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي قائما لله لتجد لمذاهب فكرك وتصاريف نظرك مضطرباً واسعاً ومتعمداً نافعاً وشعوباً جمعة كلها خير يدعوك إلى نفسه، وبيان ينكشف لك عن محضه، وأخير أمير المؤمنين: ما كنت لو لم تكن البعثة للنبي صلى الله عليه وسلم بلغتك، ولم تكن الأنبياء بأموره تقررت قبلك، ثم قامت الحجة بالاجتماع عندك، وقالت الجماعة المختلفة لك: إنه نجم بين ظهрани مثل هذه الضلالات المستأصلة والجماعات المستأسدة التي ذكر أمير المؤمنين من قبائل العرب وجماهير الأمم وصناديد الملوك، ناجم قد نصب لها، وغرى بها، يُجهَّل أحلامها، ويُكفر أسلافها، ويفرق آالفها، ويلعن آباءها، ويضلل أديانها، وينادي بشهاب الحق بينها، ويجهر بكلمة الإخلاص إلى من تراضى عنها، حتى حميت العرب وأنفت العجم، وغضبت الملوك وهو على حال ندائه بالحق ودعائه إليه، وحيداً فريداً لا يحفل بهم غضباً، ولا يرهب عنثاً، يقول الله عز وجل:

١ - الأنعام: ٣٣.

٢ - الصافات: ١٧٣.

{ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ } الآية.

أكنت تقول فيما تجري الأقاويل به وتقع الآراء عليه إلا أنه أحد رجلين؛ إما كاذب يجهل ما يفعل ويعمى عما يقول، وقد دعا الحتف إلى نفسه، وأذن الله لقومه في قتله، فليس الأيام بمادة ولا الحال بثابتة له إلا ريثما تستلحمه أسبابهم وينهض به حلمائهم غضبا لربهم وأنفة لدينهم وحمية لأصنامهم وحسداً من عند أنفسهم.

وإما صادق بصير بموضع قدمه ومرمى نبله، قد تكفل الله عز وجل بحفظه، وصحبه بعزه، وجعله في حرزه، وعصمه من الخلق، فليست الوحشة بواصلة مع صحبة الله إليه، ولا الهيبة بداخلة مع عصمة الله عليه، ولا سيوف الأعداء بمأذون لها فيه، ثم إن آيتكم يا أهل الكتاب لو قيل لكم: إن الرجل الذي يدعى العصمة وينتحل المنعة قد نجمت الأمور به على ما قال، وسلمت الحال له فيما ادعى حتى نصب لعمارات العرب وجماعات الأمم يقاتل بمن طوعه من خالفه، وبمن تابعه من عانده جاداً مشمراً، محتسباً واثقاً بموعود الله نصره، لا تأخذه لومة لائم في ربه، ولا يوجد له غميرة في دينه، ولا يلفته خذلان خاذل عن حقه، حتى أعز الله دينه، وأظهر تمكينه، وانقادت الأهواء له، واجتمعت الفرق عليه، ألم يكن ذلك يزيد حقه يقيناً عندكم، ودعوته ثبوتاً فيكم، حتى تقول الجماعة من حلمائكم وأهل الحنكة من ذوي آرائكم: ما كان الرجل الذي كان وحيداً فريداً قليلاً ضعيفاً ذليلاً معروفاً بالعقل منسوباً إلى الفضل ليجترئ أن يقول: إن الله عز وجل أوحى إليه فيما أنزل من الكتاب عليه أن يعصمه من العرب جميعاً، ويمنعه من الأمم طراً حتى يبلغ رسالات

ربه ويظهره على الدين كله، ويدخل الناس أفواجاً في دينه إلا وهو على ثقة من أمره ويقين من حاله؟

فسبحان الله يا أهل الكتاب، ما أبين حق النبي صلى الله عليه وسلم لمن طلبه، وأسهله لمن قصد له، واستعملوا في طلبه أبوابكم، وارفَعوا أبصاركم، تنظروا بعون الله إليه، وتقفوا إن شاء الله عليه؛ فإن علامات ثبوته وآيات رسالته ظاهرة لا تخفى على من طلبها، جملة لا يحصى عددها، منها خواص تعرفها العرب، وعوام لا تدفعها الأمم.

فأما الخواص المعروفة لدينا المعلومة عندنا التي أخذتها الأبناء عن الآباء، وقبلها الأتباع عن الأسلاف، فأمور كثر البيان فيها، وتداولت الشهادات عليها، وثبتت الحجج بها، وتراخت الأيام ببعضها حتى رأيناها عياناً، وقبلناه إيقاناً، فهي أظهر فينا من الشمس، وأبين لدينا من النهار، ولكن غيبت الأزمان عنكم أمرها، ولم ينقل الآباء إليكم من قبلها.

وأما الآيات العوام والدلالات الظاهرة في آفاق الأرضين القاطعة لحجج المبطلين التي لا تنكر عقول الأمم وجوب حقها ولا تنفع ألباب الأعداء صحة أمرها، فسيولجها أمير المؤمنين مسالك أسماعكم، ويعيد بها حجة الله في أعناقكم من وجوه جملة وأبواب كثيرة إن شاء الله، منها:

أنه لم تزل الشياطين فيما خلا من فترات الرسل وندرات الرسل تصعد إلى سماء الدنيا وتنصب للملأ الأعلى فتسرق السمع وتحتفظ العلم، وتنزل به إلى كل أفك أثيم، يبنون أكاذيبهم على واضح صدقه، وينفقون أباطيلهم بحسب حقه، خلطوا للباطل فيه، وتنويه للعباد عليه، فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم، وأنزل آيات القرآن إليه حرس السماء بالنجوم، ورميت الشياطين بالشهب،

وانقطعت الأباطيل، واضمحلت الأكاذيب، وخلص الوحي، فبطلت الكهان وضلت السحار، وكذبت الأحلام، وتحيرت الشياطين، فكانت آية بينة وعلامة واضحة وحجة بالغة تبهر قرائح العقول، وتخرج حجب الغيوم، فلا يقوم مع ضيائها ظلمة، ولا يثبت عند محكمها شبهة، ولا يقيم معها في محمد صلى الله عليه وسلم شك؛ لا من أصحابه خاصة ولا من جاء بعده عامة، وإنما جعل الله عز وجل آية باقية في الغابرين، وحراسة ثابتة من الشياطين؛ لأن الله جعل نبينا صلى الله عليه وسلم آخر النبيين فليس باعثًا بعده نبيًا يكذب أقاويل الكهنة، ويقطع أخبار الجنة.

وسنقول فيما يذهب إليه الظن ويقع عليه الرأي أنت ومن عقل من أمتك وأهل ملتك، هذه آية حاسمة وحجة قاطعة بينة قائمة مستعلية لأمرها مستغنية بنفسها، لا تحتاج إلى ما قبلها، ولا تتكل على ما بعدها، إن أقرت العقول بما نقول أو قامت البينة على ما ندعي، بلي، ثم تقول: وأين لك بالبينة ولسنا نقر بكتابك، ولا نؤمن برسولك، ولا نقبل قولك فيما قد سبقنا وإياك زمانه، وحجبت الغيوم عنا وعنك علمه، فأرجع إليكم إن قلتم ذلك، فإن وجدان القضاة قبل طلب البيئات.

وليس يجعل أمير المؤمنين فيما ينازعك ويحاجك فيه حاكمًا غير عقلك، ولا قاضيًا سوى نفسك، ولكنه يذكر الله الذي إليه معادك وعليه حسابك لَمَا جعلت التفهم لمسألته من بالك، وركبت حدودها في جوابك عادلا بالقسط قاضيًا بالحق قائلًا بالصدق ولو على نفسك ناظرًا بالأثرة لدينك، فلقد وفق الله آية وأهدى إليك بينة لا تستطيع دفعها لحجبها عن عقلك، ولا حجابًا لنورها دون بصرك، فلا تدفع الآية بقولك، والبينة بلسانك جحدًا بقطع وصول

الحجج إليك، ولا تغلق أبواب الفهم عنك؛ فإن اللسان لك مداول حيث شئت ومنقاد تصرفه فيما هويت، ولكن أنصب نفسك للفهم وأنت شهيد، وأورد الحق وقبوله فيما تريد، فإذا تصورت البيئات مجسدة في قلبك وتمثلت الحجج ممثلة لنظرك، وافهم المسألة فهمك الله الحق وجنبك الجحد.

ما تقوله أنت ومن قبلك في رجل كان يتيمًا ضعيفًا أجيرًا، ساهيًا لاهيًا، عائلاً خاملاً، لم ينل كتابًا، ولم يتعلم خطًا، ولم يكن في محله علم، ولا إرث ملك، ولا معدن أدب، ولا بيت نبوة، فترأقت الأيام به، واتصلت الحال بأمره، حتى خرج إلى العرب عامة والقبائل كافة وحيداً طريداً شريداً، مخذولاً مجهولاً، مجنواً مرمياً بالعقوق لأهنتهم، مقذوفاً بالكذب على أصنامهم، منسوباً إلى الهجر لأديانهم، وهم مجمعون على دعوة العصبية وحمية الجاهلية، متعادون متباغون، مختلفة أهواؤهم متفرقة أملاؤهم، يتسافكون الدماء، ويتباحون النساء، ويستحلون الحرم، لا تمنعهم ألفة ولا تعصمهم دعوة، ولا يحجزهم بر، فألفت قلوبهم، وجمع شتيتها، حتى تناصرت القلوب وتواصلت النفوس، وترافدت الأيدي، ثم اجتمعت الكلمة، واتفقت الأفئدة، حتى صار غاية للملقى رحالهم، ونهاية لمنتجع أسفارهم، وصاروا له حزباً متفقين، وجنداً مطيعين، بلا دنيا بسطها لهم، ولا أموال أفاضها بينهم، ولا سلطان له عليهم، ولا ملك سلف لأبائهم، ولا نباهة كانت له بين ظهرانيهم.

أقول: إنه ما قال ذلك إلا بوحى عظيم، وتنزيل كريم، وحكمة بالغة؟ فإن قلت ذلك فقد أقررت أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول، وتركت ما كنت تقول: إنه لم يدركه ولم يبلغه إلا بعقل شديد ونظر بعيد ورفق لطيف ورأي وثيق استنبنى به عقول الرجال،

واستمال إليه أفئدة العوام، فإن قلت ذلك فأنا سائلك بإلهكم الذي تعبدون، ودينكم الذي تنتحلون لما صدقتم أنفسكم وتجنبتم الهوى عنكم، أتؤمن قلوبكم وتقرّ عقولكم، ويحتمل نظركم أن محمداً صلى الله عليه وسلم الذي وصفتموه بكمال العقل، وبيان الفضل، ورفع التدبير، كان يقول لرجال العرب، وجماعات الأمم، ودهاة قريش: إن من آيات نبوتي، ودلالات رسالتي، وعلامات زماني، أن الشياطين تُرمَى بنجوم السماء، ولم تك ترمى بها فيما خلا، ثم يجعل ذلك كتاباً يُقرأ وقرآناً يتلى، وهو كاذب فيما تلا، ومبطل فيما ادعى إبطالاً تدركه عيون الناظرين، وكذباً يظهر لجميع العاملين، سبحان الله، أرايتم أن لو كان فيما قال من الكذابين، وعلى ما ادعى من الآثمين، ثم حاول إبعاد القلوب، وإيغال الصدور، وإخفاء النفوس، وتفريق الجموع، أكان يزيد على ذلك.

فيا أهل الكتاب، لا يحملنكم الإلف لدينكم على اللعب بتوحيدكم، فلعمركم، لئن تداركتم أنفسكم وناصرحتم نظركم، لتعلمن أن محمداً صلى الله عليه وسلم لو حاول الكذب أو رام الإفك، لما كان يترك جميع الأرض، وما يغيب عن بعض الخلق ويظهر لبعض، ويقصد للسماء المتصلة بالبصر، البارزة للنظر التي لا تخفى على بشر، ولا تغيب عن أحد، فيدعي فيها كذباً ظاهراً، وإفكاً بارزاً مكشوفاً، ولا يبقى صغير ولا كبير، ولا ذكر ولا أنثى، إلا عرف أنه إفك وزور، وكذب وغرور، ولا سيما إذا كان يلقي ذلك إلى أقوام أكثرهم أعراب، ليس بينهم وبين السماء حجاب، إنما يراعون الكواكب، ويتفقدون الغيوم، فأبعد عهد آخرهم بها تفقده لها، ونظيره إليها ساعة أو ساعتين، أو ليلة أو ليلتين.

لعمركم لو عثرت العرب من أمر النبي صلى الله عليه وسلم

على كذب لكان أول من يواثبه به ويمجادله فيه أعداؤه من قريش عامة، وحساده من جيرته خاصة، ونظراؤه من أهل بيته دنية، الذين كانوا يستعيرونه لكل طريق، ويقعدون له على كل سبيل، ويتسائلون من أمره عن كل ذي حادث فيتعلقون بالحروف المشكلة، والآيات المتشبهة، جدلاً وخصومة بها، وطعناً وإلحاداً ومنازعة فيها، حتى لقد وصفهم الله بفعلهم، وأخبر عن ذلك من أمرهم، فقال عز وجل: {بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} الآية، وما كان الله عز وجل ليقول ذلك ولا لأحد أن يقوله على الله في أمرهم، إلا عن خصومة شديدة، ومنازعة بليغة، ومجادلة معروفة، فَأَحْسِنِ النَّظَرَ لِنَفْسِكَ، وَلَا تَهْلِكَنَّ شَفِيقَةً عَلَىٰ مَلِكِكَ.

فأيم الله، لئن قلت: إن النجوم شيء، كانت العرب تراه بعيونها وتعرفه بقلوبها، فما كان محمد صلى الله عليه وسلم وهو عارف بها غير جاهل لها ليقول فيها إلا حقاً، وينتحل فيها إلا صدقاً، لقد ثبتت فروع كلامك فيها على رأسه، ووصلت آخر قولك له بأوله ثبوتاً على ما ذكرت من عقدة، ولزومها لما فرطت من نظره، ولكنك لا تجد مع الإقرار بذلك بدءاً من التصديق برسالته، ولا مذهباً عن الإيمان بنبوته.

ولئن زعمت أنه ادعى أمر النجوم كذباً وانتحلها باطلاً، عارفاً كان بها أم جاهلاً، لقد نسبته من الخطأ الذي لا يعنى عن بصره إلى ما يخطئ فيه بشر، فأكذبت نفسك، وتركت قولك: إنه لم يكن التأليف لقلوب العرب والجمع بثبيت القبائل إلا برأي سديد، وعقل أصيل، ورفق بالغ، إلى أحد أمرين لا نجد لكلامك وجهاً تذهب إليه غيرهما، ولا حملاً تضعه عليه سواهما؛ إما أن تقول: إنه ألف قلوب

العرب، وفرق جموع الأمم بتنزيل الوحي، فتؤمن أنه نبي، وإما أن تقول: فعل ذلك بجهل، وهذا قول لا يُقبل، كيف يصفه أحد من الجاحدين به، المكذبين له بغباوة أو يرمونه بجهالة، وهم يحوزون به حدود الأنبياء، ويرفعونه فوق أمور العلماء، ويتخطون به مراتب الحكماء ومنازل الناس، تكثيراً لعلمه، وتسديداً لعقله، وتثبيتاً لفضله، فيما لا يقدر الخلق عليه، ولا تهتدي الألسن إليه، حتى لقد نحلوه فعل الرب الذي لا يقدر عليه الخلق في وجوه كثيرة وأنحاء جمّة، من ذلك أنه إذا قالت البقايا من أمتنا: كان محمد صلى الله عليه وسلم يخبرنا بالغيوب قبل ظهورها، ويصف الأمور قبل حلولها، ويتجاوز ما يكون في زمانه من ذلك إلى ما يكون في زماننا غيباً، أطلع الله عز وجل عليه، أضافوا ذلك علماً إليه، فقالوا: كان أعلم الناس بمواقع النجوم، وأبصرهم بمنازل البروج، وأنظرهم في دقائق الحساب، كيف ولم يكن الحجاز دار نجوم، ولا محل حساب، ولا معدن أدب، بل كيف والمنجم يقيس ويخطئ، ويشك فيما يدعي، وهو أخو صواب لا شك فيه، وفارس صدق لا قياس معه.

ومن ذلك أنه إذا قالت العلماء من المسلمين: كان نبينا صلى الله عليه وسلم عليماً بباطن أخبار النبيين، وخفيّ قصص القرون الأولين، قالوا: كان أحيا الناس قلباً وأوسعهم سرباً، وأسرعهم أخذاً، يتتبع ذلك ويحبه، وقد رواه وعلمه، سبحانه الله، أو لا يعلمون أن المتعلم معروف العلم، متفاوت الحالات، متنقل الطبقات، وإنه ما أحد يؤدب صغيراً أو يطلب العلم كبيراً، إلا وله درجات في عمله، وتارات في أخذه، ومنازل في تعلمه، تارة تلميذ، وتارة مقارب، وأخرى حاذق، وبكل ذلك موصوف من أهله، معروف عند قومه، ظاهر لجيرته، مستفيض في عشيرته، ولا يجهل أمره، ولا يخفي ذكره، ولا ينسى عند

مواضع الحاجة إليه، وتارات به عليه، ولو كان ذلك معروفاً فيهم، أو موجوداً لديهم، أو ظاهراً عندهم لما أمره الله عز وجل أن يحتج عليهم ويقول في ذلك لهم: {فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ}، لا أتلو قرآنًا ولا أدعي وحيًا، أفلا تعقلون!!

وايم الله! لو كانوا يعقلون أو ينظرون لعلموا أن معلمه على غير الملة التي يعرفون؛ لأنه لهم من المخالفين، وعليهم من الطائعين، يذكر فضائح قولهم ومعائب أمرهم، ومخازي أسلافهم، وعوائل أديانهم، وإنه لو كان معلمه نصرانيًا لدعاه إلى النصرانية، أو يهوديًا لدعاه إلى اليهودية، أو مجوسيًا لدعاه إلى المجوسية، ولو لم يكن له معلمًا لما وقع على الحقيقة هداية من تلقاء نفسه، ومعرفة بقوة عقله، ولو كان معلمه الشيطان لما قايست البصراء بالكلام والعلماء بالمنطق بين ما بأيدينا من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به من كلام الوحي، فإذا بينهما بون بعيد، وتفاوت شديد، ليس يشبه قول العباد في تأليفه وأحاديثه ومعانيه وجميع ما فيه، لأن الله عز وجل لا يشبهه شيء.

من ذلك أنه إذا قال المسلمون: كان محمد صلى الله عليه وسلم يرى ماضي أسلافنا وصالح آبائنا من العجائب العظام، والآيات الكبار، ما هو جديد عندنا، بين قبلنا، فلم يعف أثره، ولم يدرس خبره، ولم يتقادم عهده من شجرة ناداها فأقبلت ثم أمرها فرجعت، ومن نحو بعير تظلم، وذئب تكلم، وأشباه ذلك كثيرة، ونظائر له عجيبة، قالوا: كان محمد صلى الله عليه وسلم كاهنًا صادقًا، وساحرًا ماهرًا، يشبه بالخيال، ويأخذ بالأبصار، كيف والجموع الكثيرة تصدر عن الأطعمة اليسيرة والمياه القليلة، شعبًا ورواء، أيكون ذلك والسحر

سواء، والأخذ بالعيون لا يجري في البطون، ولو كانوا ينظرون لدينهم وينصفون من أنفسهم لعلموا أن أمر الساحر يدور على إفك وغرور، وإن لمحمد صلى الله عليه وسلم آثاراً قائمة ومنافع دائمة، ثم لو كانت الكهانة والسحر يبلغان مثل هذا من الأمر، لبطلت آيات الكتب وعلامات الرسل، ولعلت الشبهة، وسقطت الحجة، وكذبت النبوة، ولبطل ما كان يفعله عيسى عليه السلام من إبرائه الأكمه والأبرص وإحيائه الموتى، فلا يكونن التقليد للرجال مبلغ علمك، ولا القبول لدعواهم بلا بينة.

ومن ذلك أنه إذا قال البصراء من أمتنا والعلماء بملتنا: كان النبي صلى الله عليه وسلم أمياً لا يحسن الكتابة، وحافظاً لا ينسى القرآن، وقلما يجتمع العقل الشديد، والحفظ السريع، والنسيان البطيء، قالوا: كان أخط الناس يداً، وأذكاهم حفظاً، كان يكتب بالنهار ويدرس بالليل.

ولعمر الله أن لو كان الحال كما يقولون والأمر كما يصفون، لما خفيت الصحف له، ولا اكتتمت الدراسة عليه، ولما كان يطيق سترها عن أهله، ولا حجابها دون قدمه، وكيف تؤمن القلوب، وتقرّ العقول أن رجلاً كبيراً حمل علماً كثيراً، وحكماً جماً، من آيات متشابهة، وسور متوالية، وهو صاحب أسفار مترامية، وأخو حرب دائمة، لا يبطن لفظه، ولا يسقط حفظه، لولا أن الله عز وجل كفاه أن يحرك به لسانه، وضمن له جمعه وقرآنه، فقال عز وجل: {سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى} الآية، فلم يكن يسقط واوًّا ولا ألفاً، ولا ينسى كلمة ولا حرفاً، وما أبين هذا وأعجبه، وأعجب منه المنكر له.

وأما قولهم في الخط وإكثارهم في الكتاب، فإن الله عز وجل جعله أمياً ليثبت حجته، ويصدق مقالته، ولئلا يشط المبتلون في أمره، ويقولون: تعلمه من غيره، فإنه قد قال ذلك بطائن من منافقة العرب، وطوائف من كفرة العجم، فنطقت به الأعداء من جيرته، والحسدة من عشيرته، الذين بلغوا من مجادلة حقه، ومخاصمة ربه، كفاة عن قرب، ووكلاء، عن بعد، فيما لم تكن العرب واقعة عليه، ولا الأمم مهتدية إليه، لأنهم قد أحاطوا من علم خبره، وخفي أثره، بما كان من غيرهم محتجباً، وعن سواهم مكتتماً، وقالوا: لو كان محمد صلى الله عليه وسلم، يتعلم من بشر أو يختلف إلى أحد، لما خفى عنا ولسقط علينا.

وحقاً لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يختلف إلى أحد صغيراً، أو يتعلم من بشر كبيراً، لعرف ذلك أترابه المختلفون معه ورفقاؤه والمقتدرون، ولما جهل ذلك من حوله من جيرته نصرة، ولا من معه من أهل بيته دنية، الذين عليهم يورد، ومن قبلهم يصدر، ولكان شائعاً عند حشم معلمه وجيرة موضعه الذين كان يختلف إليهم، ويتأدب بين ظهرائهم، ولو كانوا بذلك عالمين، أو فيه من أمره شاكين، ثم بلغهم وتقرر قبلهم أنه يقول: إن الله عز وجل أوحى إليه، فيما أنزل من الكتاب عليه: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} الآية، لمخاصمه منهم من كفر، ولكفر به منهم من آمن، ثم يدعى ذلك قرأناً، وينتحله وحياً، أما كان يرهب أن ينتشر في الأقربين، ويخرج إلى الأبعدين، فتبطل حجته، وتنتقض دعوته، وتسقط نبوته، وينفر أصحابه الذين لم يصبروا معه في المجاهدة أنفسهم، وبذلوا عند الشدائد مهجهم، وينفقوا فيه على

الحاجة أموالهم، مناصبين لأهل الشرق والغرب والعجم وكل الأمم، وهم قليلون مستضعفون غائلون جائعون، لا طلباً لدنيا ولا طمعاً في منال، إلا لما تعقبوا من قوله، وعرفوا من صدقه، ولولا أنه أخبرهم ووعدهم أن يغلب كسرى وقيصر لهم، فصدقوا بقوله، وآمنوا بوعدته، حتى قويت البصائر، وصرمت العزائم، وقويت البنيات، فنشطت النفوس، وشجعت القلوب، وحمى الأبدان لما وقع لهم طمع فيه، ولا ذهب لهم وهلٌ إليه، فكن من ذلك على يقين لا يخلجه شك، ومعرفة لا تخلطها ريب، إن شاء الله.

ومن ذلك أنه إذا قال المسلمون: ما من فعال محمود ولا مقال معروف، ولا خلق كريم، ولا أدب فاضل، إلا وقد أدب الله به محمداً صلى الله عليه وسلم، وأنزله في الكتاب إليه، فكان يأمر بالمكارم ويحض على المحامد، ويعمل بالمحاسن التي ليس فيها مدخل لشبهة ظالم، ولا معلق لحجة قائل، ولا مغمز لبصيرة عائب، ولا موضع لخصومة بشر، في وعد أو عهد أو حل أو عقد، أو مقال أو فعال، أو غير ذلك من الأمور.

قالوا: أمور حمل عليها نفسه، ودعاه إليها عقله، وصبر عليها لما رجا وأمل فيها. سبحان الله!! وما أمل بها وارتجى منها؟! إن قالوا: الدنيا فقد أكذبهم إدباره عنها حيث أمكنته القدرة منها، وأعثرته الحال عليها، وإن قالوا: حب الأثرة، فقد جعل نفسه للمسلمين أسوة في سهامهم وقصاصهم، وحدودهم وحقوقهم، وغير ذلك من أمورهم، وإن قالوا: الملك، فلقد كان أشد الناس لربه تواضعاً، وأعظمهم في جنبه تصاغراً، ما إن أكل متكئاً قط إلا مرة، ثم قعد كهيئة الفرع لها الفادم عليها، فقال: "اللهم إني عبدك ورسولك"، وإن قالوا: النعيم، فمن كان أيبس منه معاشاً، وأخشن منه رياشاً، وأغلظ منه مأكلاً،

وكيف يذوق العيش، ويجد لذيذ النعيم من حرم السكر والخمر، ونهي عن الديباج والقز، وكان أكثر دهره صائماً، وأطول ليله قائماً، فإن قالوا: طلب الصوت ورجب في الدين، فذلك ما لم يطلبه أحد في حب الصوت والتماس الحمد لما صبر مغاضب قومه، وملاوم أهله، وشتائم العرب، وتوعد العجم، واستهزاء قريش، يرمونه بالعقوق، ويقذفونه بالجنون، ويبهتونه بالسحر، وليس يدري ما يهجم به الأمر.

أم يقولون: طلب تأثيل الملك لقومه، وأراد توطئة الولاية لأقاربه، فكيف يطلب لقومه ما زهد فيه لنفسه، أم كيف يطلب لهم الملك، وقد أوطأهم الذل ثم القتل؟! لعمر الله أن لو أراد الملك لأقاربه، وأراد طلب السلطان لذوي رحمه لوكد لهم عقداً لا يحل، ولأبرم لهم أمراً لا ينقض، ولأثل لهم في عنفوان أمره ملكاً لا يخرج من أيديهم، ولا يبرح أبداً فيهم امثالاً لصنيعكم واحتذاء على مثالكم، مع أقاويل جمّة ونظائر كثيرة، لا يستقيم، أن يقولوا: إن محمداً صلى الله عليه وسلم غلب العرب وقهر العجم، أو قال في أمر السلطان والنجوم كذب.

فإن قلت: إن محمداً صلى الله عليه وسلم في قوة عقله وبيان فضله، وعلى ما قلنا وقتلتم، وصدقنا به نحن وأنتم، ولكن هفت العلماء وزلت الحكماء، وأخطأت القلوب، فقد يعلم أمير المؤمنين، وأنتم بذلك من العالمين، أن خطأ قلوب العلماء كخطأ دائرة الرحا، ليست العلماء بمخطئة إلا المرة والثنتين كما لا تحطى الرحى الحبة والحبتين، ومثل الذي نسبتم إلى النبي صلى الله عليه وسلم من الخطأ عندكم والجهل في أنفسكم كثير لا يحصيه أحد ولا يبلغه عدد، وأمير المؤمنين واصف بعضه لكم، ومورد ما حضر كتابه إن شاء الله لكم، وإيم الله على ذلك، لو قالت العلماء من المسلمين: هبوا محمداً صلى

الله عليه وسلم كان في أمر النجوم من المخطئين، فكيف أخطأت العرب، وهفت الأمم في ترك مجادلته ورفض منازعته، وكيف لم تقل العلماء من إفناؤه، والحكماء من حكمائهم، توبيخاً منهم له وتعبيراً لمن آمن معه، هذا أمر من أوضح الأكاذيب، وأبطل الأباطيل، فلا يثبت مع قولهم إيمان، ولا يقيم على شرحهم إنسان، فإن قلت: فلعل ذلك كان ولكنه درج على طول الأزمان، فكيف إذا صدقت العرب بنبوته، ولم تكفر القبائل برسالته، وهم يسمعون كذباً لا ينفع معه صدق كان قبله، وباطلاً لا يعصم معه حق حدث بعده؟ وإن قلت: أدخلهم بالقهر وضبطهم بالقتل وأكراههم بالسيف، فما بال القليل من المسلمين الذين قهرهم الكثير من المشركين، ما بالهم آمنوا وصدقوا، وصبروا وصابروا، وجدوا وجاهدوا؟ فكيف لم تنكسر عزائمهم، وتهن بصائرهم، ويرجعوا إلى دينهم، ويهربوا عن توحيدهم؟! كلا، لو كان الأمر على ما تقول لارفض القوم عن الرسول، ولكان صلى الله عليه وسلم أول مقتول أو مخذول.

فأحسن النظر فيما تذهب الأهواء برأيك إليه من آيات النبي صلى الله عليه وسلم، وإن جمحت الدعوى بكم فقائل: قد مالت به الأهواء في الباطل، فقال: إنه إلا يكن الأنبياء ذكرت النجوم في صحفها بينت الحكماء منها ذكراً في كتبها، فجعلت الكواكب بين الأعوام دليلاً على أمر يحدث تلك الأيام، ولا ما هذا الاختلاق يلط به الجاهل الفاسق، وما أن وضعت الحكماء ذلك في الكتب إلا ليالي ملئت السماء من الشهب.

وبالله لو ادعيتم غير ذلك فكان حقاً، وكانت القلة منكم صدقاً، ولما كانت الدعوى بناقضة لآية النجوم حجة ولا مدخلة على أحد فيها شبهة، لأنه ربما يقع فرط السنين من الكواكب لا يبطل رجماً

قد ملأ السماء من كل جانب، ثم لو لم تكن النجوم آية دامغة،
 وحجة بالغة، ودلالة قاهرة، وعلامة باهرة، وأمارة ظاهرة، وشهادة
 قاطعة، وبينه عادلة، وداعية قائمة، تبطل أطانين المشركين، وتردع
 أقاويل المنافقين، لما كان النبي صلى الله عليه وسلم ليعظم أمرها، ولا
 يكرر في أي القرآن ذكرها، رهبة لمناهضة أحياء العرب، ومعرفة
 بمجادلة إخوان الكتب، الذين لو وجدوا فيما كتب أمير المؤمنين من
 أمر النجوم، واحتج به عليك من ذكر الرجوم، موقعاً لظن، أو معلماً
 بطعن، أو مغمزاً لقول، لناصبوه إذا بالمجادلة وكاشفوه بالمنازعة،
 وجاهروه بالقول الذي لا يستطيع له ردّاً ولا يطيق له جحداً، ولكنها
 آية ملأت الأقطار كثرة، وحسرت الأبصار قوة، قد وجلت العقول،
 ووهت القلوب، وملأت النفوس جزعاً ووجعاً وفزعاً شغلهم عن
 الأولاد، وأذهلهم عن البلاد، حتى بلغ أمير المؤمنين وتقرر عند فقهاء
 المسلمين أن الله عز وجل لما ملأ السماء حرساً، وأحدث لها رصداً،
 وخلق فيها شهباً، ذكرت العقلاء من العرب وقعات الله عز وجل في
 الكتب بقوم نوح وعاد وثمود، وأشباههم من مؤايف تلك الجنود،
 الذين كانوا أشد بطشاً، وأكثر جمعاً، فانفجرت أيديهم من كرائم
 أموالهم، وأرسلت أنفسهم متائن عقدهم، وإن أهل الطائف لما فعلوا
 ذلك بأموالهم، وأجمعوا فيه الخروج إلى فقرائهم، قام فيهم رجل منهم
 ذو سن وعقل فقال: يا معشر العرب، لا تهلكوا أنفسكم قبل أن
 تهلكوا، ولا تُخْرَجُوا من أموالكم قبل أن تُخْرَجُوا، تَفْقَدُوا مواقع
 نجوم السماء، وكواكب بدور الدجى، فإن كانت النجوم التي حدث
 الرمي بها، والنجوم التي أخليت الأموال لها، هي البروج الشمس
 والقمر ومسال الحيوان والشجر، فهي حوائج الاستئصال، المتلفة
 الأنفس والأموال، وإن كانت النجوم التي حدث القذف بها، إنما هي

نجوم خلقت اليوم، فليست المعرفة بواقعة على مبتدأها، ولا الأبصار بلا حقة منتهاها، فأمسكوا العقد عليكم والأموال، فإنه أمر يحدث في إحدى هذه الليالي.

فإن قلت: وكيف وقعت الأمور في هذا الرجل كالعيان، وصارت المقالة كوعي الأذان؟ أنبأك أمير المؤمنين أن أوعية الفقه من المسلمين، الذين حملوا إلينا سنن الدين، هم أدوا ذلك إلينا، وأبقوه فخراً، فما إن ينفث منهم مفتخر يقول: أبونا الذي حبس على العرب الأموال والعقد، فما إن يدفع القول في ذلك منا أحد.

هيهات، ما كانت لتقر عند الفخار، إلا بطول هي أبين فيها من ضوء النهار، فافهم ما كتب أمير المؤمنين هارون الرشيد في هذا إليك، ولا يكن التعطل فيها بالشبهات أوثق ما لديك؛ فإنه قل حجة إلا وإلى جانبها شبهة تخيل للعقول، وتعرض للقلوب، وتجلجل في الصدور، فلا يثبت مع تخيلها، ولا يقيم لتعرضها بشر إلا من وزن الحق والباطل بميزان عادل، لا يميل إلى تفريط، ولا ينحط في تقصير، وقد جعل الله عز وجل العقول موازية للأموال، فزونا ما سمعتم من حجج كلام الرب عز وجل بما تنفون به الشبهة عن الحق، ولا تميلوا اللسان فتخسروا الميزان، وسيعلل أمير المؤمنين إن شاء الله بما جاء ذكر ما كتب به إليكم من أمر النجوم والرجوم والشهب في القرآن والرواية والكتب، فألطفوا النظر في صحة معانيه، ونحو الهوى عن شبهة ما وقعت فيه، قال عز وجل: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ} الآية، وقال: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ} (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ}، وقال: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ} (٦) وَحَفِظْنَا

١ - الملك: ٥.

٢ - الحجر: ١٦، ١٧.

مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ^١ الآيات. وإن شطب عن الحق شاطب، وذهب إلى الباطن ذاهب، لا يعرف مذاهب كلام العرب، ولا وجود معاني الكتب، ولا تفسير آي القرآن، فقال: إنما جعلت الكواكب والمصابيح حفظاً من الله عز وجل للسماء، ورجوماً للشياطين من قبل أن يبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالدين.

فإن في القرآن ما فيه بيان مما يبطل دعواه التي لا بينة عليه، ويكذب مقالته التي لا شهود لها، فقالت الجن - فجعل الله تبارك وتعالى قولها وحياً وبه منها صدقاً- قالت: {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مِلْثًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا^٢}.
 ألا ترون أنها كانت الجن لمست السماء، فلم تجدها ملثت حرساً شديداً وشهباً، وقعدت الشياطين منها مقاعد للسمع فلم تجد شهباً ولا رصداً، أولاً يسمعون إلى ما يحقق ذلك ويسدده ويصدقه ويشهد له من قول الله تعالى: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ^٣} الآيات، دع قول الجن أيام حرس السماء ورمى الشياطين، {وَأَنَّا لَأَ نَذْرِي أَشْرَ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا^٤، فإذا عملتم في ذلك ففكركم، وقلبتم فيه نظركم، فكنتم على برهان يقين، ونور مستبين من استطاعة الجن للاستماع وقدرة الشياطين على الاستراق، وإمكان السماء للعود، في فلك الحالة الأولى، ففكروا في الحال الأخرى حيث حرس الآيات أن تعرض باطلاً بحق، ومنعت الشياطين أن تنزل بصدق، وامتنعت السماء أن يصعد إليها

١ - الصافات: ٦٠٧.

٢ - الجن: ٨.

٣ - الشعراء: ٢٢١: ٢٢٣.

٤ - الجن: ١٠.

شيطان، فقال الله عز وجل: {وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ} (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ}، قالت الجن: {وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا}،^١ إن في قولهم الآية لأعظم نور وبيان، وأبين عن ذلك لكم وأصح عن عقل إن شاء الله منكم إخبار الله عز وجل حين جعلت الكواكب حفظاً من كل شيطان وارد، أنهم {لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ}،^٢ دع إخبارهم في الحال الأولى، إنهم يسمعون ويقعدون وينزلون ويستطيعون ويتلون على ملك سليمان، فكن لهذا من الحافظين، وفيه من المفكرين.

ومن آيات النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما نفرت القبائل من أعلام الشرك بمجموعها، وتداعت القادة من صنديد الكفر بأتباعها حذراً على غير لها أقبلت من الشام بصنوف رغائب أموال عظام، فكانت العير والنفير طائفتين، طائفة ذات عدة كثيرة، وشوكة شديدة، وطائفة ذات أموال رغبية، ورجال قليلة وفرصة ممكنة، أخرج الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم ووعدده ومن معه من المسلمين إحداهما، فكره المؤمنون جموع المشركين، وأراد الله عز وجل أن يقطع دابر الكافرين، وشيد بذلك أركان الدين، فلما تراءت الفئتان، وتناوشت الفرسان، وتلاقى الناس، وقبل ذلك ما قال الله عز وجل: {سِيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُؤَكِّنُ الدُّبْرُ}؛ قبض النبي صلى الله عليه وسلم قبضة من تراب حثاها في وجوههم، فلم يتناه دون مناخرهم

١ - الجن: ٢١٠: ٢١٢.

٢ - الجن: ٩.

٣ - الصافات: ٨، ٩.

٤ - القمر: ٤٥.

وعيونهم فانصرفوا منهزمين بلا كثير من قتال من المسلمين، يا أهل الكتاب، فأيتها آية أعظم حجة وأوضح بينة وأقهر غلبة من هذه التي لو صدرت الأمور بلا تحقيق لها لانفضت الجموع من المسلمين كفرةً بها، أبشارة الله المسلمين بإمداد الملائكة المقربين، وهزيمة نفير المشركين التي نجمت الأمور عليها، وتناهت الحال بهم إليها، أم قبضة من تراب يسير، ما ملأ المناخر من عدد كثير.

فلئن قلتم: إن هذه آيات بينات، وعلامات واضحات، ولكننا لا نقر لكم بها ولا نؤمن بقولكم فيها.

أفتؤمنون أن محمداً صلى الله عليه وسلم مع ما نسبتموه من البغض إليه كان يخلقها كذباً من تلقاء نفسه، ثم يدعيها وحياً من عند ربه، وهو لا يدري لعل الأمور تقع بخلاف ما يقول فيظهر كذبه، ويرفض تبعه، وإن تزعم أن أصحابه كانوا كثيراً أقوياء، نشاطاً جلدًا، فكان علي معرفة بقوتهم ويقين من غلبتهم، فقد قال الله عز وجل: {وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ} الآيات، ولم يكن الرسول ولا غيره ليخبر أصحابه من أمورهم بما يجهلون من أنفسهم ثم يدعى ذلك تنزيلاً من ربهم، هذا لا تقبله الآراء، ولا تقر به الحكماء، ولا يحده النظر.

أقولون: إنما أراد محمد صلى الله عليه وسلم ببشارته لهم وإخباره ما أخبرهم من هزيمة الله عدوهم، أن يشجع جنهم ويقوي ضعفهم، فكيف إذا لم يبق لما كان يرى من كثرة المشركين وقوتهم، وضعف المسلمين وقتلتهم بظهور الأنبياء، على خلاف قوله، وأن يحتمل الخبر

على غير ظنه، فيقع ظفر يكذب نبوته، ويقطع حجته، ويكون له ما بعده، وكيف إذًا لم ينسب الأمر إلى نفسه، وينحي الخبر عن ربه ليكون الخطر أصغر والشأن أيسر إن جرت الأقدار بما يحذر، أو وقعت الأمور على ما يكره، ولكنه أثبتته في كتاب مسطور، وورق منشور، فعل لعمر الله يدل على النبوة التي كان بها واثقًا، ويهدي إلى الوحي الذي كان إليه ساكنًا.

وإن عرض لنظرك، أو وقع في خلدك، أن الله عز وجل عود محمدًا صلى الله عليه وسلم الغلبة وأجراه على المنعة، فكان يجري على عادة قد عرفها ويسلك جادة قد خبرها، فلقد كانت الهزيمة في أول واقعة أوقعها الله، ثم لقد دالت الحرب فيما بعد سجالاً فيما بينه وبينهم، تارة عليه لهم وأخرى له عليهم، فناصرحوا الله عز وجل في نظركم، وقلبوا فيما يقول أمير المؤمنين فكرمكم، فلعمر الله ما كان النبي صلى الله عليه وسلم ليقول للملوك المشركين: إن الله هزمكم برمية من تراب، وهو يعلم أنه عنده من الكاذبين، فأحضر كتابي هذا فهمك، واصبر له وإن خصمك، فإن هذه آية عظيمة، وحجة بليغة، وبينة عجيبة، في غلبة العرب.

وأعجب من هذا والطف، وأكثر منها وأعظم، الآية في غلبة العجم واستمع، أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للمؤمنين، وكانوا كما قال الله عز وجل: {قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ}¹: إن قبائل العرب ستتحزب عليكم، وإن الله سيهزمهم لكم، وحيًا أنزله في الكتاب، فقال: {جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ}²، فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما نزل هذا القول عليه بدهور طويلة

¹ - الأنفال: ٢٦.

² - ص: ١١.

وسنين كثيرة، محبوسين محصورين في حومة الموت، وعسكر الخوف
 وخذق القهر، وذل الحصر سوادهم الأعم وجلهم الأعظم حفاة عراة
 عالة، إخوان دير، وأصحاب وير، لا قوة بهم، ولا منعة لهم، ولا
 أسلحة عندهم، ولا عدة معهم، قد أهدت العرب بعسكرهم،
 وأحاطت القبائل بخذقهم، وسالت الأحزاب تصديقاً لختم الله
 عليهم، تريد أن تزلزل أقدامهم وتهريق دماءهم، فكان المؤمنون كما
 وصف الله عز وجل من أمره ما لا يعرفون، حذاراً أن تنكسر
 عزائمهم وتتغير بصائرهم، فتنهزم أفئدتهم وتموت نجدتهم، وتختلف
 كلمتهم، فقال الله عز وجل: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ
 مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ
 الظُّنُونًا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا}،^١ حتى
 قالت طائفة منهم لأهل المدينة: {يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ
 فَارْجِعُوا}،^٢ وقالت طائفة أخرى: يا رسول الله إن بيوتنا عورة، فأذن
 لنا، يقول الله تعالى: {وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا}،^٣ فبينما هم
 على تلك الحال قد أجمعت العرب بتفريقهم في الجبال، فيما ينبئهم
 به من علم الغيوب، ويبشرهم به من أمر الفتوح، إن الله سينصركم
 على جمع الروم، ويغلب لكم جنود فارس فيهزم لكم جنودهم
 ويورثكم قصورهم ويستخلفكم في الأرض من بعدهم ويبدلكم من
 بعد خوفكم أمناً، وعداً صدقه الكتاب، وبشارة نطق بها الوحي،
 فقال: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ
 فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ

١ - الأحزاب: ١٠، ١١.

٢ - الأحزاب: ١٣.

٣ - الأحزاب: ١٣.

الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا^١، فقال أقوام وأناس ارتابوا حين تضايقت الحال وتزلزلت الأقدام، وطارت القلوب ودارت العيون، وأشرف الموت: {مَا وَعَدْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا^٢، أبعدنا هزيمة جموع الأحزاب وفتح قصور الشام، وغلبة جنود كسرى، وقد سالت القبائل علينا من كل جانب، وأحذق الموت بنا من كل مكان، فبقينا في مسغبة من الجوع، ومجهدة من الخوف، وضنك من الحال، مقهورين مقموعين؟ وقالت الخاصة من المؤمنين، حين عاينوا الجموع من المشركين وذكروا ما خبرهم الله من تحزيهم عليهم ومسيرهم إليه: {هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا^٣، فبينما أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في مضايق تلك الحال، وشدة الخصال، وعموم تلك البلايا الباهظة، والأمور الفادحة، التي قد أخذ بأنفسهم غمها، وبلغ مجهودهم كربها رافعين إلى الله عز وجل أيديهم يقلبون في السماء أعينهم، إذ أرسل الله على تلك الجنود الكثيفة والجموع العظيمة والأحزاب المقتدرة ريحاً على الأرض وجنوداً من السماء، فقطعت الأبنية، وطيرت الأمتعة، وسفت التراب في العيون وقذفت الرعب في القلوب، فولوا مدبرين، وخرجوا منهزمين، لا يلوي والد على ولد، ولا مولود على أحد، أمر صدق الله فيه قوله، وأنجز به وعده، وهزم الأحزاب وحده، وذكر المؤمنين نعمته فيهم، وعرفهم منته بهم فقال: {اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ

١ - النور: ٥٥.

٢ - الأحزاب: ١٢.

٣ - الأحزاب: ٢٢.

جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا}، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا} ٢ الآية، ما كان الله عز وجل ليقتص على المسلمين في أنفسهم، إلا ما قد راوه بأعينهم.

لولا أن هذا ما لا ينكره عقلك، ولا يدفعه نظرك، لما جادلتك بالكتاب، ولا نازعتك بالتنزيل، وإني لأترك من آيات النبي صلى الله عليه وسلم وعلامات الوحي ما هو أعظم من هذا وأبين، وأجل وأوضح، ولكن ليس لي أن أحاجك من آيات القرآن إلا بما عليه شاهد من برهان، ومخبر من بيان، لا يستطيع عقلك رداً له، ولا قلبك جحداً له، وكيف ينسبط لسانك، أو يجترئ قلبك أن يقول: إن محمداً صلى الله عليه وسلم أخبر أصحابه بالكذب وهم يعلمون، فاقترض عليهم من أمورهم ما لا يعرفون، لا ما يسوغ لك ولا يجمل بك، ولا يقبل منك أن محمداً صلى الله عليه وسلم يقول من تلقاء نفسه، كيف، أما كان يخاف أن يكذبه أصحابه، وتنتقل أحواله، وتنتقض أموره، لعمر الله لو وصفت بهذا من لا يعرفه بفضل ولا ينسب إلى عقل، لما كان سائغاً لك ولا جائزاً منك، فكيف تصف به من يرفع عن الناس قدره ويفضل عليهم عقله، وتقر أنك لم ترفي الدنيا أحداً صنع ما صنع وبلغ ما بلغ، فأيتما آية فيما اقتص عليك أمير المؤمنين أعظم أو بينة أعجب، أما كان يتلى على المؤمنين في الكتاب من اجتماع قبائل الأحزاب بجنود عظيمة قبل اجتماعهم بسنين كثيرة؟ أم ما كان ينادى به القرآن من الهزيمة لهم وينطق به

١ - الأحزاب: ٩، ١٠.

٢ - الأحزاب: ٢٥.

الوحي من الفتح عليهم، أم قول النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: "إن الله عز وجل يؤمن خوفكم ويعز نصركم على الأمم"، وهو على تلك الحال، ثم نجمت الأمور على ما قال، أم عسكريان متطابقان، وجيشان متقابلان باتت الريح نحوس أحدهما حتى انهزموا، وبات الآخرون منها في عافية وغفلة حتى أصبحوا، فأحسن النظر في أمرك والتثبت في دينك إن شاء الله.

واعلم أن من أعظم الآيات وأبين الدلالات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وحقه وأن ليس يتقول شيئاً من تلقاء نفسه، أنه قال في عنفوان أمره: إن الله سيظهر ديني على الدين كله، وجاء مع ذلك بأثرة عن ربه في كتاب مخطوط وتنزيل محفوظ، فأمره لك أدلّ أو أيهما عندك أعجب.

إذا كنت بنبوته مصدقاً، ولرسالته محققاً، الخبر الذي أخبره أم الفعل الذي صدقه؟ لئن نظرت بعقلك، وقلت في نفسك كيف ترقى إلى هذا نيته، وارتفعت نحوه همته، أم كيف امتدت إليه فطنته، وقويت عليه رويته؟ بل كيف دعت إليه نفسه وشجعه عليه قلبه، ودخل فيه طعمه في لسانه، وهو يذكر جنود كسرى، وجموع الروم، وملوك الترك، وملوك الشرك، وقبول اليمن، وصناديد الأمم، إن هذا لعجب، ولا سيما إذا لم يكن في إرث ملك قاهر، ولا كنف عز غالب، ولا معدن علم سالف.

ولئن أعدت النظر وكررت، فقلت: كيف وافق خبره أثره، وكيف صدق فعله قوله حتى غلب الشرق والغرب، إن هذا لعجب، وأعجب من هذا أمر يدلك أمير المؤمنين عليه، ويهديك إن شاء الله إليه، لو قلت لأهل مملكتك، ومن قبلك من أمتك: هل بلغكم أو تقرر قبلكم، أنه كان في الدهر الأول، والعصر الخالي أحد مثل محمد

صلى الله عليه وسلم، بدأت الأمور به مثل حاله من الوحدة، والضعف والذلة والمقلة، وصدرت الحال به كفعاله في الغلبة والمنعة، والقهر والظهر، وغير ذلك؟ لقالوا: لا.

ثم أنت لا تؤمن بمقالته، ولا تقر برسالته، إلفاً لدينك، وضناً بملك وطمعاً في قليل من الدنيا قد نعاها الله إليك، ورغبة في صباية عيش غير باقية في يديك، فهذا عجب، وأعجب من هذا أمر يقفك أمير المؤمنين على نور حقه، ويوضح لك إن شاء الله بيان أمره، أصبحت العرب طرداً والأمم جميعاً في محمد صلى الله عليه وسلم، ثلاثة لا رابع لهم ولا مخرج للحق من بينهم، رجل مصدق به من المؤمنين، ورجل مكذب به من الكافرين، ورجل شاك فيه من المنافقين.

فأما الشاك فلما قيل له: أخرجت نفسك من الحق، وأبرأتها من الصواب، وأقررت عليها بالخطأ، لقولك: لا بد أن يكون الحق في التصديق والتكذيب، ولست على واحد منها أعتزل عنها.

وأما المكذب فلما قيل له: أنت منكر والمنكر ليس بمدع، ومن لم يدع لم يلزمه بينة، ولا يسأل عن حجته، فقليل له: من أين عرفت قلبك، وأيقنت نفسك إيقاناً لا يخالجه شك، ومعرفة لا يشوبها ريب ولا ينازعها شبهة، أن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس برسول، لما درى ما يقول، لأنه لا يستطيع أن يقول على الرسل، ولا أن يتكذب على الكتب، فيقول: قد أخبر الله فيها أنه لا يبعث نبياً، ولا ينزل وحياً في كتاب مسطور بعد التوراة والإنجيل والزيور، بل قد يجد أهل الكتاب في أقاويل رسلهم وأخبار كتبهم، أن الله تبارك وتعالى ينزل كتاباً جديداً أو كلاماً حديثاً، بعد خراب بيت المقدس في آخر الزمان، ولم ينزل بعد ذلك كتاباً إلا القرآن.

وأما الرجل المصدق بمحمد صلى الله عليه وسلم فقليل له: أما أنت

فقد ادعيت، والمدعي يسأل عن الحجة، ويقبل منه البينة، فما بينتك ومن يشهد لك؟ فقال: ألم تقولوا: إن الحق لا يخرج من بيننا، ولا بد أن يكون مع بعضنا؟ قالوا: بلى، قال: فأية بينة أحق وأعدل، وأي شهود أذكى وأفضل من شهادتكم بسقوط صاحبي وثبوت الحق من بعدهما في يدي؟ قالوا: إن الأمر لكما تقول، ولكن البينة أشفى للصدر، فأقام بينة من الكتاب، وشهوداً من الوحي وآيات سوى ذلك عظاماً، وبينات عواماً، من كلام لا يقدر عليه الخلق، وصدق لا يكون إلا من قبل الرب، مشبهاً بما أورده أمير المؤمنين عليكم، وكتب في صدر كتابه هذا إليكم، مما قد تشهد به قلوب الأمم، وبذكيه فعال العرب.

فلما أقام بينته، وثبتت حجته ووجب حقه، وقضى به له، قيل: وكيف توسعت الأمور عليك، وضاعت المقالة لك، أن تقول: إن الله لا يبعث نبياً بعد محمد صلى الله عليه وسلم، ولا وحياً ينزل غير القرآن، فأبطلت الكتب المحدثه، وأكذبت الوثيقة، ولم تترك وحياً غير القرآن، ولم يجز للنصارى أن تقول: لا نبي بعد عيسى عليه السلام، ولا كتاب خلف الإنجيل، ومن ذلك من أخبار الكتب ما قلنا: كل متنبئ بعد نبينا كذاب، فشاعت وجازت الحجة، ووضح العذر، وأما النصارى فيجدون في أواخر كتبهم، وأقاويل رسلهم أن الله عز وجل يبعث نبياً حديثاً، وينزل كتاباً جديداً، فليس لهم أن يكذبوا نبينا، صلى الله عليه وسلم، ولا أن يردوا كتاباً.

فهؤلاء الثلاثة، أما الشاك فسقط، وأما المنكر فبطل، وأما المصدق فثبت ثبوتاً ليس فيه مدخل شبهة ولا موضع لحجة، ولا معلق لمنازعة، وذلك أن المنكر لوجوب حقه والشاك في ثبوت صدقه لا يجد بداً من أن ينحى المصدق عن الخلق، ويخلي الدنيا عن الحق، وهذا

قول المكذبين بربهم الشاكين في بعثهم، فأحسن النظر في معانيه
ينكشف لك عما فيه إن شاء الله.

ومن أبين آياته وأدل علاماته صلى الله عليه وسلم ووسع له فيما
صدر إليه، أنه لما أخبرت النصارى واليهود أنهم لم يجدوا محمداً صلى
الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل موصوفاً مكتوباً، تجمعت العلماء
منهم، وتدارست الكتب فيما بينهم، فلما نظروا إلي اسمه، وعائنه
بنعته، وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ويستفتحون بذكره على
من سواهم كفرت طائفة حسداً من عند أنفسهم وجحداً من بعد ما
تبين لهم، وأمنت طائفة تصديقاً بكتابها وخوفاً من ربها.

فلعمر الله لولا أن الذين آمنوا بحقه وصدقوا بأمره رأوا صفته
عياناً، وقبلوا نعته إيقاناً، لما فارقوا أديانهم، ولا جادلوا إخوانهم، حتى
وقفوهم على اسمه ونسبه، وصفاته وعلاماته وهم علماء بني إسرائيل،
وحملة الإنجيل، من أهل الكتاب الذين احتج الله عز وجل بهم
على العرب، فقال عز وجل: {أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ
بَنِي إِسْرَائِيلَ}، ولعمر الله، إنها لآية عظيمة، وحجة بليغة، ذكرها الله
في كتابه، وجعلها على العرب من بيناته، فقال لهم: {قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ
لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ
لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا
لَمَفْعُولًا} الآيات.

يقولون: وعدنا أن يرسل رسولا، فقد أرسله وحقق قوله، وصدق
وعده، واحتج النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وذكره، ولم يكن
ليقول للنصارى واليهود، فيما ذكر الله من صدق الموعد، إنه في

١ - الشعراء: ١٩٧.

٢ - الإسراء: ١٠٧، ١٠٨.

التوراة والإنجيل مكتوب موجود، إلا وهو من ذلك على حق يقين، ونور مستبين، وكيف كان يستشهد من التوراة والإنجيل بكذب، ويتقول عليهم الباطل مع حرصه على تصديق أهل الكتاب ليستدعى به إيمان أحياء العرب.

أما ما كان يعلم أنه إذا قال لهم إنه موجود في مثاني كتبهم، وسمي على أفواه رسلهم، فلم يجدوا خبره يقيناً، ولا وصفه مستبيناً، أنهم سيدبرون عنه إدباراً تزداد به العرب نفاراً، إلا أن يقولوا خطأ من علمه، وهواء من خبره، فكيف لم يحط إذا في كتبهم حرفاً غيره، ولم يخلف منها شيء، سواء، سبحانه الله، لقد أكثر المؤمنون العجب من ذهاب الأساقفة بكم، فأنتم تنكرون ما يقولون لكم، مما ليس لذي لب أن يأذن له أن يؤمن به، ولا أن ينبذ إليه سمعه، يقولون لكم: إن أنبياء الله ورسله المبعوثين بالرحمة إلى خلقه، لطفت النبوة منهم، ووقعت الأخبار المنزلة عليهم على صائر الأمور، وغوامض الخطوب، فسار الناس عليها، وأشاروا لهم إلى طلبها، فهي مكررة في مثاني كتبهم، ويطون صحفهم، وأقاويل رسلهم، وتركوا من كلام الله النبأ العظيم، والأمر الكبير، الذي ملك آفاق الأرضين واستفاض على جميع العالمين، لم يذكروه بخير يأترون به، ولا بشر ينتهون عنه، كلا، ما ترك الله على هذا خلقه، ولا بهذا وصف تبارك وتعالى نفسه، إنه لأرحم الراحمين وأحكم الحاكمين.

ولئن رجعت إلى قلبك لتقولن في نفسك: لعمر الله، لو كان هذا الأمر الذي طلع الشمس وامتداد النهار، فيبلغ مشارق الأرض ومغاربها، وسهول الآفاق وحزونها، حقاً وصدقاً وعدلاً، لبشرت به الكتب وتنبأت عليه الرسل، ودعت إليه النذر، تزييناً له وترغيباً فيه، وأمرأ به، ولو كان ضلالة وجهالة وعماية، لتقدموا في التحذير منه

والتزهيد فيه، والتثبيط عنه، فيدعو ذلك إلى أن تنظروا إلى كتب
 الأنبياء، وأقاويل الرسل، فإيم الله لئن طلبت لتجدن، ولئن اجتهدت
 لتوفقن، وما الصواب بممنوع، ولا الخير بمحذور، ولقد كانت العلماء
 بالكتب والبصراء بالتأويل تجده، ولكنها كانت تكتمه بتحريف كلام
 الكتب عن مواضعه، وصرف تأويل الحكم إلى أشباهه حسداً من عند
 أنفسهم، وبغياً بعد ما تبين لهم، ثم لقد اقتديتم بهم، وجريتم معهم،
 وأخذتم عنهم بلا حجة لكم، ولا قوة معكم، إلا الاقتداء بالآباء
 والاتباع للأثار، فاتق الله في نفسك، واتهم الرجال على دينك، ولا
 تجعل النظر إلى غيرك من ذوي الشك في القلوب، والنسخ في العقول،
 والتهم في التعطيل الذين لعلمهم يعرض لآرائهم ويقع في أوهامهم أن
 يقولوا: فلعل ما يتلو عليكم أمير المؤمنين من آيات القرآن، ويقرر
 لكم من حجج الوحي شي، يزيد في المصاحف بعد النبي صلى الله
 عليه وسلم، وهذا ما لا يحتمله عقل صحيح ولا نظر قوي، وذاك
 الشاك في شهادات الرجال، متفقه من بلدان وأمصار مختلفة، وشعوب
 وقبائل متفرقة، ليس يدعوهم إلى ما شهدوا دين، ولا يحملهم على ما
 اتفقوا عليه دنيا، لا يستقيم له أن يؤمن بما لم تدركه جوارحه وتحيط
 به حواسه، لإسقاطه حجة الإجماع وإبطاله شهادة العوام، واتفاق
 المختلفين دلالة واضحة، فهو سائلكم عن الحجة في الإنجيل والبينة
 على التوراة شكاً في الرب وتكذيباً للرسل، فما كنت قائلة له أو
 مجيبة به في كتابكم، فأجبه بمثله في كتابنا، وإن كانت الأحوال منها
 غير معتدلة، ولا مؤتلفة ولا مرتففة، ولا واحدة تعدل حالاتهما،
 ويتفق أمرهما من كتابكم ما لم تنزل به الملائكة وحياً كالقرآن، ولم
 يشافه المسيح به أصحابه باللسان، إنما كان فعلاً أثبت من بعده، ولم
 يكن الفعال موضوعاً بعده، وليس يكتب إليكم أمير المؤمنين شكاً

فيه، ولا يورده عليكم مرة به.

ولقد علم أمير المؤمنين هارون الرشيد أن كتب الله عز وجل محفوظة، وأن حججه مخزونة، لا يزداد فيها على تقادم عهد، ولا ينقص منها على تضارب دهر، وأن ذلك ثبت في الإنجيل من بعد عيسى عليه السلام، وأنه قال لمن اجتمع إليه من الحواريين: بالوحي أكلمكم والأمثال أضرب لكم. فأمثاله المضروبة كلام، وكلامه الرائع وحي، ولكن ما بال الشك ينفي عن كتابكم، بحجة الاجتماع عليه عندكم، وهو على ما وصف أمير المؤمنين لكم، وسيان في تنزيل كتابنا، وقد أدرك شهادة دينه، وإما قريباً من عهده ومعابنة وحيه واجتماع على حفظه، هنا حكم مختلف.

فقل للذين يشكون فيه ويرتابون به: أوقعوا أوهامكم على حالات الأوقات التي تعرفون وقوتها (مواقيتها) بطبقات الرجال الذين يتهمون.

فإن قالوا: أما طبقات الرجال التابعين، وحالات زمان أمير المؤمنين فذلك ما لا يسوغ الأقاويل فيه، ولا تدخل الشبهة عليه، لانتشار القرآن وامتداد الزمان، وكثرة الحملة، لا يأتيه فيهم، والحفظة للسانه منهم، ولكن الدين الذي نزل به القرآن، وقبض النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، وكيف بوقوع تهمة أو دخول شبهة على أقوام (لبث) النبي صلى الله عليه وسلم عشرين حجة فهم يتلو كتاب الله عز وجل في كل عام عليهم، حتى حملوه في صدورهم، وحفظوه في قلوبهم، وكرر في آذانهم مسموعاً وأمرّاً على أبصارهم مكتوباً، وجرى على ألسنتهم متلوّاً، وجملة كثير منهم محفوظاً، ثم توارثوه فيهم، وتداولوه فيما بينهم حتى أدوه إلينا، وأوفوا به عندنا من مواضع متفاوتة وأصناف وأجناس متباينة على كلمة واحدة.

فإن قالوا: اتفقت الرجال على الزيادة فيه وأمكنك الحال من الحمل عليه، فليعلموا أن المؤمنين المخلصين ليسوا في الزيادة متهمين، وأن الملحدين ليسوا على ذلك بقادرين، وكيف يقدر القليل من المنافقين على مخالفة الجمع من المؤمنين بعد ما حفظته قلوبهم، ووعته أسماعهم، ثم تكتتم القدرة لهم، وتستتر الزيادة منهم، هذا ما لا يقدر عليه منافق، ولا يطيقه مشرك ولا فاسق، وإيم الله، أن لو قدرت اليهود على الزيادة في الإنجيل لأفسدوا كتابكم وغيروا دينكم، ولو جعل الله المنافقين على الزيادة في كتابه قادرين لبدلوا ديننا، وغيروا حالنا، ولو كانوا لذلك مقرين، وعلى ذلك مقتدرين، فلا تُلقينَ إلى ما قاله المضل سمعك، ولا تنصت الدهر إليه ذهنك، فإنه اتخذ الشك في كتابنا ذريعة إلى الإخلال بكتابك، سُلماً على الشك في دينك، وعلة في الطعن على ملتك، ولكن قل: يا ولي الشيطان، أني وقع لك إيمان بأنك من ولد فلان؟ أتقول: شهدت الجيرة، واجتمعت العشيرة، واتفق المختلفون، فذهب الشك وزال الريب، ووقع الإيقان من غير العميان؟ صدقت، فما بال الشك فيما اجتمعت العامة على القول به، واتفقت الجماعة في الشهادة عليه من آيات الكتب وبينات الرسل، وإن ذهب بهذا عن أمره، وباعده عن شيبه، فتؤمن أنه من نطفة خُلِق، ومن رحم خرج، فإن جحد وأبي أُلأ يؤمن بما لا يرى فقل: رأيت لو كنت سمياً أعمى، أكنت تؤمن بشيء مما في الدنيا، من سماء وهواء أو بحر أو سبع أو أرض، أو جبل أو شبه ذلك مما لم يدركه العميان، ولم يقبله إلا عن الناس؟ فإن قال: نعم، فقل: فهل لك إلا بالاجتماع الكفر بالرب، وما لدائه دواء غير الصلب، فاتق الله إذا كنت إماماً وقائداً لأهل ملكك، لا تقدمهم إلى النار فتحمل أوزارهم مع وزرك.

فإن من أبين آيات الوحي، وأدل علامات النبي صلى الله عليه وسلم، أنه لم يبتدع في الدين أمراً من تلقاء نفسه، ولا يتقدم في الأمور بين يدي ربه، والله أظهر فيما أنزل من الكتاب أموراً كان يحسبها صلى الله عليه وسلم مستورة، فقال تأديباً له، وإخباراً لمن آمن بعده: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ}^١ الآية، وقال: {عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يُزَكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَا مَن اسْتَخْفَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّيَ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ}^٢ الآيات، وقال تعالى: {وَلَوْلَا أَنْ بُنِّتْنَا لَقَدْ كِدْنَا تَرْكِنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذَا لَأَذُنَّاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا}^٣، وقال له حين صرف قلبه عن بيت المقدس إلى البلد الحرام حين سكنت القلوب إليها، وأنست النفوس بها: {وَلَيْسَ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}^٤ الآية، وكانت القبلة التي صرفه الله إليه، وأمره بها عظيمة على المنافقين، واقعة بخلاف الكافرين، كبيرة إلا على الذين هدى الله من المؤمنين، فإنهم قالوا: إذا اختلفت القبلتان وافترت الجهتان كانت الطاعة فيها واحدة لا اختلاف فيها ولا افتراق عليها، وكيف تختلف الطاعة من رجل بني بأمر الله عز وجل ثم هدم بوحي الله.

١ - الأحزاب: ٣٧.

٢ - عبس: ١ - ١١.

٣ - الإسراء: ٧٤، ٧٥.

٤ - البقرة: ١٢٥.

فإن قلت: إن الله حوله عن أفضل القبليتين وأقوم الجهتين، فلا سواه في الفضل البين والخبر السرّ، قبلة سلط الله عليها الكافرين، ولم يمنعها من الظالمين، وقبلة منعها بجنود من عنده، وعصمها بغير ما حوّل من خلقه ولا حرمة يدعيها أحد ممن فيها، فأرسل طيراً أبابيل ترمي الأعداء بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول، فإن تقل: هذا خبر ننكره وقول لا نعرفه، فبأي حديث بعد هذا تؤمنون؟ وتشهد الله عز وجل أنه من قبله، وأنتم تعلمون أنه أنزله الله عز وجل سورة الفيل على قوم أدركه منهم بشر كثير.

فإن قلت: إن محمداً صلى الله عليه وسلم خبرهم بما عاينوه وأدركوا خلافه، فقل: إنه أراد أن يفرقهم عنه ويوحشهم منه، وأحب أن يرموه بالكذب ويقذفونه بالحمق، ويوصمونه بالجنون ويظنون به الظنون، كلا: ما كان نبي ولا غير نبي ليجاهر أقواماً بخلاف ما رأت أبصارهم وشاهدت آباؤهم، فيخبرهم بخلاف ما شاهدوا، وتكذيب ما قد عاينوا، فلا تكونن من الممترين، ولا بأمر الفيل من المكذابين.

فلعمر الله، لو كان من أمر النبي صلى الله عليه وسلم ما تلحد أنت وقومك إليه لما قام معه رجلاً، ولا اختلف فيه سيفان، وأن فيما صنع الله عز وجل بالفيل وأتباعه دلالة على قبلة الله وأنبيائه، فاتق الله، فقد شرع أمير المؤمنين علامات النبي صلى الله عليه وسلم، وكشف الأغطية لك عن النور بآيات الوحي، فإن مالت الأهواء بك، وغلبت الأساقفة عليك، وحضرك الرؤساء الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى بلا حجة عندهم ولا سلطان أتاهم فقل: أنبئوني عما اجتمعت عليه النصرانية وذهبت إليه بهم المعاني من تشقيق الكلام وتصريف الكتب: أحروف تتعسفونها، أم لغة تعرفونها؟

فإن قالوا: إنهم بغير لغة يتكلمون، فهم إذا قوم يلعبون، وإن قالوا:

إنهم يتكلمون بلغة معروفة ومعان معلومة، فقل: أخبروني عن قولكم أب وابن، أما ما تعترف العقول من المنطق، ويقع في القلوب من المعنى أم لا، فإن قالوا: لا، ليس ذلك بالذي تذهب أوهام العباد إليه، ولا بالذي تقع الحقائق في الآباء والأبناء عليه، إنما هو كقول الله عز وجل في التوراة لإسرائيل: بكرى، لا يعني ولادة الرحم، وكقول المسيح عليه السلام للحواريين: أنتم إخوتي. لا يعني أخوة النسب، فذلك قول لا يجدون معه بدءاً من أن ينسبوا عيسى عليه السلام عبداً، وإن قالوا: بل هو ما تجري به ألسن العباد، ويقع في قلوب الخلق من الولادة المعروفة، والأبوة المعلومة، فليخبرونا متى كان الأب والدأ، والابن مولوداً، أقبل الولادة أم بعدها؟ فإن قالوا: قبلها، وجعلوا على القول الأول تثبيت الأبوة، إلا أن ذلك ليس بالشيء الذي تذهب إليه الأوهام، ولا بالمعنى الذي يقع في قلوب الأنام.

ولا بد إذا أسقطت الولادة المعروفة وبطلت الأبوة الموجودة، أن يقولوا: إن الأب والابن اسمان خلقا على غير معنى، ونسبان أضيفا إلى غير حق، فيقرون أن عيسى عليه السلام خلق مثلهم، وأنهم يتكلمون بغير لغة أحد منهم.

وإن قالوا: إنما كان الابن مولوداً والأب والدأ بعد الولادة، فقد أقرروا بأن الابن حدث مخلوق وعبد مربوب لقولهم إنه لم يكن حتى ولد، ولم يولد حتى خلق، وقل لمن يقول الزور العظيم ويقذف بالإفك المبين: أليس الأب أبا على حياله ولم يزل، والابن ابناً نجس وروح القدس كذلك؟

فإن قالوا: نعم، فقد أقرروا بأنهم ثلاثة متباينة، وقعت عليهم ثلاثة أسماء متفاوتة، وتركوا قولهم: إنهم ثلاثة أصلهم واحد.

وإن قالوا: الأب والابن وروح القدس واحد، ولكن بعضه أب

وبعضه ابن وبعضه روح قدس، فقد دخلوا في التحديد الذي هو عيب عندهم، وقالوا في التبعض بما هو كفر قبلهم، وإن قالوا: ليس مبعضاً، ولا مجزأ، ولا محدوداً ولا ثلاثة متباينين، فإذا هم قوم يلعبون، يقولون: الأب ابن، والابن أب، والوالد مولود، والمولود والد، والكبير صغير، والصغير كبير، والقليل كثير، والكثير قليل، وهذا من أبين المحال وأخلف المقال، وليس من المنطق ما لا يوجد في لغة عرب ولا عجم، ولا لسان أمة من الأمم، وإنما أرسل الله عز وجل كل نبي بلسان قومه ليبين لهم، فيضل الله الظالمين، ولولا ذلك لما فهمت الأمم مذاهب أقاويل الرسل، ولا معاني أحاديث الكتب، فلا تطع الذين يلعبون بأنفسهم، ويتكلمون بغير لغتهم، ويقولون: الثلاثة واحد والواحد ثلاثة، وهذا محال في مجاري المقال ومعاني الفعال.

لعمرك الله، لئن اتهمت عقول الأساقفة على دينك، واهتممت بالنظر في توحيدك، لتعلمن أن الواحد لا يكون ثلاثة، وأن الثلاثة لا تكون واحداً، إلا على وجه ما له ثان يقول به، ولا منه مخرج تستريح إليه، فألق نحوه سمعك، وأنصت إليه فهمك، فإن أمير المؤمنين هارون الرشيد واصفه لك، وليس واقعاً إلا على المخلوقين، ولا لازماً غير المحدودين، ولا داخلاً على رب العالمين، وهو أن يكون الشيء أصله واحداً وأجزاؤه كثيرة، من نحو الإنسان، وهو أصل يجمعه اسم، وله أجزاء تلزمها أسماء، فليس الجزء بالأصل، ولا الأصل بالجزء، ولكن الجزء بعض الأصل، فإذا أردت الجزء، قلت: يد الإنسان، وسمع الإنسان، ولولا أنه محدود مخلوق مجزأ مبعض لما جاز هذا القول فيه، ولا دخل هذا المقال عليه، وكذلك الشمس وضوء الشمس، وشعاع الشمس، ودقيقها وغلظها وحرورها، وأعلىها وأسفلها وأشباه ذلك.

فلئن قلت: سميت كل جزء من الأجزاء على حياله إنساناً، وكل جزء من الشمس دون أصله شمساً، ونسبت فعل الأصل إلى بعض أجزائه، وتركت أن تنسب الأصل فاعلاً ببعض الأجزاء كما تقول: بسط الإنسان يده، ومشى برجله، ونظر بعينه، ثم ضربت ذلك لله عز وجل مثلاً، وجعلت لله قياماً، فقلت: الأصل واحد، وهو الله عز وجل، والأجزاء كثيرة، وهي أب وابن وروح القدس، وكل جزء منها إله على حياله، ورب دون غيره، لم تجد بداً أن تلحق اليد والعين والنفس بالأب والابن وروح القدس، فتكثرت أهلك، وتحدد ربك، وتترك قولك: إن الله ليس محدوداً ولا مجزأً ولا مبعضاً، إلا أن يكون إنما تريد مذاهب الأسماء فتقول: المعنى واحد، وهو الله عز وجل، والأسماء أب وابن وروح قدس، فإن كنت تقول هذا، وكنت إنما تعبد أسماء فما تجد بداً من أن تعبد الأسماء كلها وتقول: إنها آلهة على حيالها، حتى قول باسم: ارحمني، ويثان: اغفر لي، فاتقوا الله يا أهل الكتاب؛ فإن الله عز وجل ليس بأب ولا ابن ولا اسم، ولكن {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

فإن أشارت الأساقفة إلى بعض الإنسان باليد والرجل وأشبه ذلك، وقالوا: ليس إنساناً، فقل: لا، ولكنه للإنسان بكماله، وكذلك إن أشاروا إلى بعض الشمس فقالوا: ليس هذا الشمس طالعاً، فقل: لا، ولكنه بعضها، ولو كانت الأسماء التي تقع أبصاركم عليها، وتشير أيديكم إليها من الشمس والسماء والهواء شمساً وهواءً وسماءً، لكانت الشمس والهواء والسماء أكثر مما يبلغه الإحصاء، ولو قصدت بالإجابة لمسالك هذه الأودية لبطلت الحجج الداخضة، وانقطعت الأقاويل

المتناقضة، وسل من قبلك من أساقف أمتك وشماسة أهل ملتك الذين يزعمون أن عيسى المسيح ويرفعونه أن يكون عبداً: على أي شيء، وقع اسم المسيح من عيسى؛ على الروح أم الجسد، أم على كليهما؟ فإن قالوا: وقع على الروح نفسه؛ لأن الروح إله دون غيره، فقد أقرّوا بأن إلههم يأكل ويشرب، ويمشي ويركب؛ لأنهم يجدون ذلك من فعل عيسى مبيناً قبلهم موصوفاً عندهم، فإن قالوا: وقع اسم المسيح على الجسد بعينه، فكان الجسد هو المسيح إذاً دون غيره، والمسيح إذاً مخلوق عندهم، والإله إنسان إذاً مثلهم، فلم يعبدون المخلوق ويدعون من خلقه ويرأه؟! وإن قالوا: وقع الاسم على الروح والجسد جميعاً، فلن يجدوا مخرجاً ولا بداً ولا محيصاً إذا أوقعوا الاسم عليهما من أن يضيفوا الأعمال إليهما، فيقولوا: إن الجسد المخلوق هو خلقهم، وإن الروح الخالقة قد ماتت قبلهم، وذلك لما يجدون من ذكر موت عيسى عليه السلام في الكتب عندهم وفي الإنجيل الذي قبلهم، وسل من قبلك عن الأب والابن، فقل: أيهما أعظم وأيهما أصغر، فإن قالوا: الأب أعظم والابن أصغر، فقد جعلوهما متباينين، وإن قالوا: هما واحد وكلاهما عظيم، وليس الأب بأعظم من الابن ولا الابن بأصغر من الأب، فقد نقض حينئذ جوابهم، وأكد المسيح عليه السلام كلامهم حيث يقول: لو كنتم تحبونني لفرحتم حيث أذهب إلى إلهي فإن إلهي أعظم مني. فلم يقل أعظم مني، إلا وهو يعرف بأنه أصغر منه، وسلهم عن قول المسيح: أنا ذاهب إلى إلهي وإلهكم. فقل: من هذا الإله الذي ذهب إليه عيسى عليه السلام، إله في السماء متباين منه منقطع عنه؟ فهما إذاً اثنان متباينان، أم إله كان به متصلاً وكانا جميعاً واحداً؟ فكيف إذاً يجوز له أن يقول إذاً أذهب إليه، إلا أن يقولوا: إن بعضه ذهب إلى بعض، وهذا مما لا يجوز

عندهم في صفة الرب عز وجل.

وسل من قبلك: أخرج المسيح من بطن أمه مريم بكماله حتى كان البطن منه فارغاً، وكان هو منه بكماله خارجاً؟ فإن قالوا: نعم، فقد انكسر قولهم: إن الله بكل مكان، وإن قالوا: لم يخرج المسيح ولم يخل البطن، فقد كذبوا إذًا في قولهم: إنه قد خرج، وأقروا أنه قد ولد، فتعالى عما يصفون، وتنزه عما يشركون، وسلهم: لم هبط عيسى إلى بطن مريم وتجسد باللحم والدم، فإن قالوا: ليمحق الخطايا من الأرض ويربط الشيطان عن الخلق، فقل: كيف إذًا لم يربطه عن نفسه، وكيف باء من اليهود بصلبه، ولم سلط على أهل دينه يتبعون في كل شعب ويقتلون بكل واد.

وقل للذين يقولون: إن الخالق في كل مكان من السماء والأرض وغير ذلك: أيهما أعظم؟ المحيط المشتمل، أم المخلط المشتمل عليه كما يقولون؟ تعالى الله عما يشركون، فإن قالوا: إنما التحم بعضه دون بعض، فقد حددوا وبعضوا ونقضوا وانتقضوا، وإما قالوا، فلن يجدوا بدءاً من أن يقولوا: إن بعض المسيح -الذي جعلوه ربهم وهو إليه عندهم- ميت بعضه جيفة، وأن بعضه حي طيب؛ لأنهم زعموا أنه التحم بجسد حي فيه روح، فلا بد إذًا أن يدخل عليه ما يدخل على الأجسام الحية من الخوف والفرح والعطش وأشباه ذلك، وهو عندكم كفر عظيم، وإفك مبین، فاتق عقوبة الله ربك، ولا تمس مكباً على وجهك، ولكن اطلب والتمس وابحث، فقد قال عيسى عليه السلام في الإنجيل: من سأل أعطي، ومن طلب وجد، ومن استفتح فتح له.

اجمع العلماء والبصراء الذين عندك، والأساقفة والرهبان الذين قبلك فقل: لأي شيء نسبتم المسيح لها وجعلتموه رباً، ونجد الله

سماه في الكتاب ابناً، وقد تجدونه قال: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم أيضاً. وهذا كلام يحتمل وجهين؛ أحدهم أولى به، وقول لا يحتمل إلا وجهاً وهو الربوبية، أم كيف تنظرون إلى كلامه: أذهب إلى أبي وأبيكم. فتفردونها في نفسه، وقد قالها فيه وفي غيره.

فاتق الله وكن من القائمين بالحق، الموحدين للرب، إن أمير المؤمنين هارون الرشيد قد ضرب لك أمثالا جمّة، وصرف إليك مسائل كثيرة، وبين لك من آيات النبي صلى الله عليه وسلم، وعلامات الوحي قليلاً من كثير، واضحاً من تفسير لا تمتنع العقول من التصديق به، ولا القلوب من الإقرار به.

وسيدكر لك الرشيد أمير المؤمنين من علامات النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل ما يكتفى به إن شاء الله وباليسير منه؛ لأن كتب الله عز وجل محفوظة، وحججه محروسة، ولا يُزاد فيها ولا يُنقص منها، وإذا وجدت فيها كلمة تدلك على حق وتهديك إلى رشد، فلست واجداً أخرى تصدك عنه وتشكك فيه، إذا تلى ذلك بالحق ووضع على الصدق، ولكن ضلت اليهود والنصارى بتحريف الكلام وتصريف تفسير الكتب، وأمير المؤمنين هارون يسأل الله العصمة والتوفيق.

من ذلك ما قد شهد به عيسى عليه السلام عندكم وبينه في الإنجيل لكم، إذ قال للحواريين: أنا ذاهب وسيأتيكم البارقليط روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه، إنما يقول كما يقال له، وهو يشهد عليّ، وأنتم تشهدون لأنكم معي من قبل الناس بالخطيئة، وكل شيء أعد الله لكم يخبركم به.

وترجمة البارقليط: أحمد، هذا ما لا شك ولا مرية فيه، وهو الذي يخبر بما وعد الله المؤمنين وصالحى الحواريين في القرآن ولستم تجدون

ذلك في التوراة ولا في الإنجيل.

ومن ذلك قول أشعيا النبي عليه السلام: قيل لي: أقم بطاراً ما ترى بخبري؟ قال: أرى راكبين بعيرين مقبلين أحدهما يقول لصاحبه: سقطت بابل وأصنامها المنحوتة. ولسنا نعرف نبياً ركب بعد موسى عليه السلام بعيراً إلا محمداً صلى الله عليه وسلم كثيراً.

ومن ذلك قول داود عليه السلام: اللهم ابعث جاعل السنة كي يعلم الناس أنهم بشر. يقول: كي يتبين الناس أن عيسى عليه السلام إنسان، ولسنا نعلم نبياً وضع سنة تنسب إليه إلا محمداً صلى الله عليه وسلم، أما عيسى عليه السلام نصب سنة موسى عليه السلام.

ومن ذلك قول حبقوق المتنبئ في زمان دانيال: جاء الله من السماء والقديسين من جبال فاران، وامتلات من تجميد أحمد وتقديسه، ومسح الأرض بيمينه، وملك رقاب الأمم. وقال أيضاً: تضيء لنوره الأرض، وتحمل خيله في البحر. فألى من ينحو هذا القول، وإلى أين يذهب بهذا المعنى؟ لئن ذهب به إلى غير الذين تحمل خيله في البحر، وبدأ من جبال فاران أمره، وغلب على الأرض ومسحها، وملك رقاب الأمم كلها، لقد تركتم الحق وأنتم تعلمون.

ومن ذلك قول داود عليه السلام في الزبور: صدقوا وسبحوا الرب تسبيحاً حديثاً، سبحوا الذي هلله الصالحون، ليفرح إسرائيل بخالقه، ويتوب صهيون من أجل أن الله اصطفى له أمته، وأعطاه النصر وسدد الصالحين بالكرامة يسبحونه على مضاجعهم، ويكبرون الله بأصوات عالية، بأيديهم سيوف ذات شفرتين، لينتقم الله من الأمم الذين لا يعبدونه، ثم يقيد ملوكهم بالقيود وأشرفهم بالأغلال.

فأيتما أمة يكبرون الله بأصوات وآذان الصلوات الدائمة، وعلى كل شرف وعند كل حرب، وأيتما أمة كانت سيوفها ذات شفرتين إلا أمة محمد عليه الصلاة والسلام.

ومن ذلك قول أشعيا: عبدي الذي وجب به حبي الذي بشرت به نفسي أفيض عليه روحي، يوصي الأمم بالوصايا، لا يضحك ولا يسمع صوته في الأسواق، ويفتح العيون العور، ويسمع الأذان الصم، ويحيي القلوب الغلف، وما أعطيه غيره، أحمد يحمد الله حمداً حديثاً، تهليله يأتي من أقصى الأرض، يجوز الماء بشدة أمواجه (والأرض) يفرح سكانها، يمدون الله على كل شرف ويكبرونه على كل رابية. ومن قول أشعيا: سبحوا الرب تسبيحاً حديثاً، ويسبحه من آفاق الأرض، فرح يكون في بني فيار.

وينو فيار قريش أهل فاران الذي نزل فيهم القرآن، وأيتما أمة تسبح من آفاق الأرض إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم. ومن ذلك قول داود عليه السلام في المزمور الخامس والأربعين، يقول الله عز وجل لمحمد في المزمور: انصبت رحمتي على شفتيك، من أجل ذلك باركك الله إلى الأبد، تقلد السيف على الأمم أيها الجبار على الأمم بالقتل والأسر والسبا، بهاك وحمدك أحمد، يغلب البر منك كلمة الحق، وذللت لك الأشقياء، وسيفك يحسمه يمينك، ونبالك مسمومة، ويسقط عند الأمم.

فأي نبي كان على الأمم جباراً، ولهم بإذن الله قتالاً إلا نبينا صلى الله عليه وسلم.

ومن ذلك آخر التوراة: وجاء الله تبارك وتعالى من سيناء، وأشرف على ساعير، واستبان من جبل فاران، وجاء عن يمينه ربوات القديسين.

وتفسير هذا أن الله عز وجل أنزل التوراة على موسى في طور سيناء، وأنزل الإنجيل على عيسى عليه السلام في جبل ساعير وهو جبل بالشام، وأنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم في جبل فاران وهي بلاد مكة، وأنتم تجدون ذلك في كتبكم، مكرراً، وتعرفونه جميعاً بلغتكم.

ومن ذلك قول الله عز وجل لموسى عليه السلام: سأقيم لهم من إخوانهم مثلك، أجعل كلامي على فهمه ولا يتكلم إلا بما أمره به. فمَنْ إخوة بني إسرائيل إلا بنو إسماعيل؟ أما تعلم أن لو كان الله عز وجل يعني أحداً منهم لقال لهم: أقيم لكم نبياً منكم؟!

فإن قلت: إنما قال من إخوانكم، وهو يريد من أنفسكم، فهب أن أمير المؤمنين قبل هذا الخلف منكم، ووسع في هذا المجال عليكم، فكيف تصنعون بقول الله عز وجل في التوراة: مثل موسى في بني إسرائيل لا يقوم. فهل تجدون من هذا مخرجاً ومن الإيمان أن المعنى وقع على محمد صلى الله عليه وسلم بدأ.

ألا تسمع قول الله عز وجل: أجعل كلامي على فمه. كي يعني به أمني لا يقرأ ولا يكتب؟

أوليس قد أمر عيسى عليه السلام حواريه أن يقولوا في صلاتهم: يا أبانا الذي في السماء تقدس اسمك؟

كيف صار عيسى دونهم ابناً وصار له دونهم أباً، وهم يقولون: يا أبانا!! أم كيف يجعل سليمان بن داود إلهاً، وقد قال الله عز وجل لداود: يولد لك غلام يسمي لي واسمي له.

ولم لا يجعلون إسرائيل إلهاً وقد قال الله عز وجل له: أنت بكري. بل لِمَ لا يسمون المؤمنين عامة والحواريين خاصة آلهة، وقد قال المسيح للحواريين: أنتم إخواني. وقد قال في الإنجيل: أعط كل من

آمن بي سلطاناً يدعى له.

وإن كان هؤلاء كلهم للمسيح إخوة أفلا تجعلونهم كلهم آلهة، وكيف تقولون: إن عيسى ابن الله، وهو يقول في مواضع جمّة وأماكن كثيرة، إنه ابن الإنسان، فكيف يكون ابن الإنسان ابن الله؟ ومتى كان ذلك؟ لئن قالوا: إن عيسى لم يزل ابن الإنسان، لقد جعلوا مع الله إنساناً قديماً، وجعلوا الله إنساناً حديثاً، وجعلوا المسيح ابن الله لم يزل، وابن الإنسان فيما حدث، وهذه أمور متناقضة، وحجج داحضة، وأقاويل فاحشة.

فإن قالوا: إنما نعبد المسيح لأنه رفع إلى السماء، فليعبدوا الملائكة فإنهم في السماء قبله، وإدريس فقد رفعه الله وغيره، وإن كانوا يعبدون المسيح لأنه لم يخلق من ذكر فآدم وحواء لم يخلقا من ذكر ولا أنثى، ولم يقعا من غم الرحم، وضيق البطن، وحال الصبا فيما وقع فيه المسيح.

وإن قالوا: إنما نعبد عيسى لأنه أحيا الموتى، فما أحيا حزقيل أكثر، وما كان من اليسع تلميذ إلياس أعجب؛ لأنه أحيا الموتى بعد مائتين من السنين، وإن طلبتم ذلك في سير الملوك عند قصة اليسع أصبتموه إن شاء الله.

وإن كانوا إنما يعبدون المسيح من أجل الأسقام التي أبرأ العجب والتي أرى، فعجائب موسى أعجب، وآياته أعظم، أين ما ذكرت لك من عجائب عيسى من عجائب موسى، من انقلاب البحر له، وسلوك الجيش معه، أم أين ذلك من حجر يضربه فيتفجر بعيون الماء، ويحمله معه حيث شاء؟ بل أين تلك وهذه غير هذه من الآيات من حبس يوشع ثلاث ساعات، وكل ما صنع موسى وعيسى وغيرهما بإذن الله وأمره وقدره وقضائه، فاتق الله وكن من القائلين بالحق

والموحدين للرب، ولا تقل على عيسى ما لم يقل؛ فإنكم لا تجدونه قال لكم في شيء من كتبكم: اعبدوني فإنني ربكم. تعالى الله عما يقول الظالمون، ويذهب إليه الجاحدون.

وإن أمير المؤمنين هارون الرشيد قد أحب أن ينصح لك في أولى داريك بك وأهم شأنيك لك، فدعاك إلى الإسلام، وأمرك بالإيمان الذي به تدخل الجنة وتنجو من النار، فإن قبلت فحظك أصبت ونفسك أحرزت، ولك ما للمسلمين، وعليك ما عليهم، وإن رددت نصيحة الرشيد فيما فيه الحظ في آخرتك، فإن أمير المؤمنين ينصح لك فيما فيه الصلاح في عاجلتك: من إعطاء التي يحقن الله بها دماءكم ويحرم بها سباءكم، ويجعلها قواماً لمعاشكم، وصلاً لبلادكم، وتوفيراً لأموالكم، وأمناً لجنابكم، وسعة لسربكم، وبركة على فقرائكم، وغنى لأهل الحاجة والفاقة والمسكنة منكم.

ولن يذكر أمير المؤمنين هارون الرشيد في الجزية من حلول الأمن فيكم، وعموم العافية إياكم، واستقامة البركة عليكم، وكف أيدي المسلمين عنكم، وبسطها على الأعداء منكم شيئاً إلا وفي قليل ما كان أشباه ذلك أيام تلك الفدية التي كان الله أجرى نعمتها لكم على يده، وفتح بركتها عليكم من قبل، ما يدلكم على صدق أمير المؤمنين هارون الرشيد فيما يذكر، ويشهد له على حقه فيما يقول إن شاء الله، فقد تعلمون أن الله قد أدخل على كل طرف من أطرافكم، وصنف من أصنافكم بتلك الفدية أموراً عظيمة البركة، واسعة المنفعة في أمور غير واحدة.

منها: أن قادة جنودكم، وساسة حربكم كانوا بعد وقوع أمرها واستحكام عقدها فراغاً لمحاربة أعدائكم ومناصبه من ناوأكم بين أن يستعجموهم في بلادهم وينزلوا عليهم في ديارهم، ولا يرهبون تعقب

بشر إن ساروا في أرضهم، ولا يتخوفون طراداً إن اجتمعوا لقتالهم أن يقيموا في خفض ودعة وأمن وسعة مع الأزواج والأولاد والعيال والأوطان والرباع والمحال، وهم اليوم يترقبون الجيوش من كل شعب، ويتخوفون الحتوف في كل وقت؛ لا يهدأ لهم جأش، ولا يسكن فزع، ولا ينام لهم ليل، ولا يأمن فيهم حال، قد قطعت الهموم دابرهم، وأضمرت المخاوف جنوبهم، واستأصلت الجنود أموالهم.

ومنها: أن أهل الحراثة وإخوان العمارة في بلادك وأطراف أرضك كانوا سراعاً إلى عمارة أرضهم وإصلاح ما تحت أيديهم، فيما لا قوام لهم ولا لمعاشهم إلا به، ولا بقاء لدينهم إلا معه، فقد أمنوا الجيوش ومعرتها والجنود وبادرتها، وانتشروا للعمارة، وابتكروا في الزراعة، فارقوا رهوس الجبال وإقحام الغياض، وراحوا في أواسط أوطانهم وظلال محالهم، يشققون الأنهار، ويغرسون الأشجار، ويفجرون العيون، حتى نمت الأموال واخضرت الحال، وأخصب الجنباب، وأصبحوا اليوم عن الزراعة ممتنعين وللحراثة تاركين، وبغيرها مشتغلين في إصلاح آلات الهرب، وإحراز العيال في الحصون ورم القلاع للجلاء، وتحريش الحصون للبلاء، قد انتقلوا عن منابت البر وكرائم الأرض، ومجاري المياه، إلى أوشال الجبال، وأشجار الغياض، ويطون الأودية، فليس يبلغون من عمارة بلادهم ولزوم أوطانهم، ومن متناول ثمارهم وقوام معاشهم مثل ما كانوا يبلغون، ولا ينالون من خفض العيش وطيب الأمن ولذة الدعة قريب مما كانوا ينالون.

ومنها: أن إخوان التجارات، وأصحاب الأموال، وأهل الظلف والحافر، كانوا يتناولون ما شارفهم من بلادنا، وما قاربهم من أسواقهم، فينفقون تجارتهم، ويغنون بضائعهم، فتعظم الأرباح وتضعف الأثمان، وكانت الباعة من تجار المسلمين وغيرهم من

الذميين، يتناولونهم للبيع ويتناولونهم للشراء منهم، فعمت البركة وسهلت المنفعة، حتى نالت الرعاء في جبالها وأقبالها، والنساء في غزولهن وعمل أيديهن فضلاً عن غيرهن.

ومنها: أنك ومن قبلك من ذوي العبادة والزهادة، والتأله والنسك والنيات، كنتم على عافية من أيام الرضا بالحرب، وسلامة من أوزار الحض على قتال الخوف، قد نجوتم من معصية المسيح في الدنيا التي نهاكم عنها، والأمور التي أمركم بها من نحو قوله: من لطم خدك الأيمن فمكته من الأيسر، ومن انتزع قميصك فأعطه كساءك، ومن لطمك فاغفر له، ومن شتمك فأعرض عنه.

ومنها: أن من بأقصى بلادك ونواحي حوزتك، قد ذاقوا تلك الأيام من لذة الخفض، ودعة الحال، وحلاوة الأمن، ورفاهية العيش، وسعة العافية من سباء أزواجهم، وهيض أولادهم وحطم معاشهم، وأسر رجالهم، وغنيمة بقرهم وغنمهم، وإفساد شجرهم وثمارهم، وإجلاء عن مساكنهم وأوطانهم، ما لم يكن لهم رأي يعرفه، ولا ظن يبلغه، ولا طمع يقاربه، ولا أمل يذهب إليه، وما قد عرفت الخاصة من بطارقتكم، والعامّة من أهل ملتكم به، ومن رأفتكم بهم، ورحمتكم لهم، وشفقتكم عليهم، وأثرتكم إياهم، وبركة ولايتكم ملكهم، ومنفعة سياستكم أمرهم، ما قد ازدادوا لكم به محبة، وفي بقائكم رغبة، ولأمركم طاعة، وعلى ملككم شفقة، وفيما نابكم نصيحة مع ما قد ازددتم بذلك من الهيبة في صدور الأعداء، والشرف في قلوب النظراء، والعظم في عيون الأمم، حتى أقروا لكم بقوة عزائم العقول، وفصل سياسية الأمور، وصحة تدبير الملك، وصدق النية ولطف الحيلة التي جعلوا نسبة عملكم بها، ومحل رأيكم فيها على أنكم نظرتهم لضعفائكم حتى قووا، ولفقرائكم حتى استغنوا،

ولقربابكم حتى بينوا وحيوا وقووا المسلمين من أيام الحروب وأوزار القتال ومعصية المسيح عليه السلام، وأعدائكم الأبعدين وجيرتكم الأقربين، حتى كنتم من فراغكم لهم، وانشغالكم من أمركم بها، وما أوطأتموه، ليرديكم في برائن القتل، وذل الأسر وغلبة القهر والإذعان والاستسلام، وإما كفيتموهم بالصلح واستوثقتهم منهم بالرهن.

فإذا ذكرت ما كان من هذا وأشباهه وأمثاله في الفدية، فاعلموا أن أمثاله وأضعافه مقيم معكم في الجزية، فلا يكونن لك رأي غيرها ولا أمر سواها، فلقد أكثر أمير المؤمنين الرشيد العجب من أمركم، وأطال تقليب الفكر في بعضكم، فظن أن إخراجكم من جميع ما كنتم فيه إلى خلافه مما أصبحتم عليه من انتظار وقعات الحروب، ورسولات الجنود وأكل الحدود، وتوقع الجلاء والسبب والقتل والأسر والحصر، شيئاً اختدعكم الله عز وجل فيه عن أنفسكم، وكيداً استدرككم به لما علم من قلوبكم.

إلا أن أعجب عذركم وأفظعه كان عند أمير المؤمنين هارون، إذ بلغه جراتكم على الله عز وجل في نقض عهده، واستخفافكم بحقه في خفر ذمته، وتهاونكم بما كان منكم، وأنتم تعلمون أن موثيق العهود ونذر الأيمان الذي وضعه الله عز وجل حرثاً بين ظهرانني خلقه، وأماناً أفاضه على عباده، لتسكن إليه نفوسهم، وتطمئن به قلوبهم، وليعاملوا به فيما بينهم، ويقيم به من دنياهم ودينهم، فما من ملك من الملوك، ولا أمة من الأمم تبیح حمى الله عز وجل تهاوناً به، وجرأة عليه، إلا أجرى الله عليهم دائرة من دول الأعداء، وأنزل عليهم عذاباً من السماء، وقد رجا أمير المؤمنين هارون الرشيد أن يجري الله نعمته منكم بأيدي المسلمين بعد أن اعتقد عهدكم، وأخذ ميثاقكم بالأيمان المغلظة والعهود المؤكدة التي قد اعتقدها في

رقابكم، وحملها على ظهوركم، فأشهدتم الله بها على أنفسكم،
وتسامع بها من حولكم، وحكم بها بطارقتكم وأساقفتكم، فلا الله
اتقيتم، ولا من الناس استحييتم نكثاً للعهود، وبغضاً للمسلمين،
وخفراً بالأمانة، وإياحة للحمى، فتوقعوا العقوبة، وانتظروا الغيب،
فلقد وثق أمير المؤمنين أن من عذاب الله ما هو حالّ إن شاء الله بكم.
ومن أسباب ما يريد الله من الانتقام منكم، ما أزمع أمير المؤمنين
وعزم عليه، وقذف الله في قلبه من الإرادة والنية والرغبة في إبطاء
الجيوش بلادكم، واستبَاء المقاتلة أرضكم، والتفرغ لكم من كل
شغل، والإيثار لجهادكم على كل عمل، حتى تؤمنوا بالله وأنتم
طائعون أو كارهون، وتؤدوا الجزية، ويقين من الانتجاع الذي لا طاقة
لكم إن شاء الله به، ولا سمير لكم بإذن الله عليه، فإن جنود أمير
المؤمنين فارغة كثيرة، وخزائنه عامرة وافرة، ونفسه سخية بالإنفاق،
ويده مطلقة بالبذل، والمسلمون نشاط إليكم منقلبون عليكم، فقد
عودهم الله في لقائكم عادة يرجون انتظار مثلها، وأبلاهم من قتالكم
بلاء من أمثالها إن شاء الله، وكتاب أمير المؤمنين هارون الرشيد نذيره
بين يدي جنوده، ومقدمة إن شاء الله من جيوشه، إلا أن تؤدوا الجزية
عن التي دعاك أمير المؤمنين إليها وحدك، ومن قبلك عليها رحمة
للضعفاء الذين لا ترحمهم، وتوجعاً للمساكين مما لا توجع منه لهم
من الجلاء والسبأ والقتل والأسر والقهر، وقساوة قلوبكم، وأثرة
لأنفسكم واعتصاماً بنحواصكم، ولا تراقبون في الرحمة لهم والتعطف
عليهم أدب المسيح إياكم، وقوله في الكتاب لكم: طوبى للذين
يرحمون الناس، فإن أولئك أصفياء الله ونور بني آدم.

وايم الله، لو يعلم من قبلك من المساكين والزارعين والفقراء
والضعفاء والعمله بأيديهم ما لهم عند أمير المؤمنين الرشيد لتحذروا

عليه وأقبلوا إليه من إيوائهم، وإنزالهم الأرض الواسعة، وإمكانهم من مسابيل الماء السائحة، والعدل عليهم بما لا تبلغه أنت ولا تقاربه رفقا بهم ونظراً لهم وإحساناً إليهم مع تخليته إياهم وأديانهم لا يكرهون على خلافها، ولا يجبرهم على غيرها، لاختاروا قرب أمير المؤمنين على قريبك، وجاوروه على جوارك، ولأنقذوا أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأزواجهم وعيالاتهم مما حل بهم في كل عام ويلقون من كل غزاة،^(١) فاتق الله وأقبل، واقبل ما عرض عليك من الجزية، ولا يمنعك ما فيه الحظ لك ولأهل مملكته، ونحن على رجاء أن الله لا يؤخر ذلك منكم، ويدفعه عنكم، إلا ليجعله على يد أهل بيت النبوة والرحمة، ولأهل الوراثة فيهم الكتاب والحكمة الذي لا يدخل عليكم في الإذعان لهم وأداء الجزية إليهم حمية ولا نقيصة ولا عار، والذين يفون لكم بما يعقدون، ويتبعون فعلهم ما يقولون.

ثم أمير المؤمنين هارون الرشيد بخاصة لما جعل الله عليه رأيه وفيه نظرة من البر والرحمة والإقسط والوفاء بالعقود والعهود والشروط، نظراً لدينه وخوفاً من ربه، ولما قذف الله في قلبه وقلوب المسلمين من المحبة والطاعة والأثرة، ولما جعلهم الله عليه من اجتماع الكلمة، واتفاق الأفتدة، والنصائح في السر والعلانية، وما عوده الله ممن نصب له بمجادبة، ورماه بمكايدة، وحراه بحيله من النصر العزيز والفتح القريب، والظفر المبين، فأبذل من الحرية ما شئت، وسم منها ما هويت، واعلم أن أمير المؤمنين هارون ليس يحدوك عليها لحاجة به إليها ولا المسلمين، ولكن طاعة لربه وأثرة لحقه، وليجعلها سبباً لما يريد أن يجري فيما بينه وبينكم، وإنه إنما قبول المهدي، رحمه الله، الفدية منكم بطلبة أمير المؤمنين كانت إليه، والحاجة كانت فيها

١ - إشارة إلى الصوائف التي كان يقوم بها هارون.

عليه، ولم يكن من رغبة فيها، ولا حاجة إليها، ولا استعظام لها، لقد كان يعطي في المجلس الواحد مراراً أمثالها، ولكن ذلك كان أمير المؤمنين يومئذ فيكم، فأما اليوم إذ استبان له غدركم ونقضكم ونكثكم، واستخفافكم بدينكم وجرأتكم على ربكم، فليس بين أمير المؤمنين هارون الرشيد وبينكم إلا الإسلام أو الحرب المجلية إن شاء الله، ولا حول بأمير المؤمنين ولا قوة إلا بالله، عليه يتوكل وبه يثق، وإياه يستعين. والسلام على من اتبع الهدى.

أمير المؤمنين

هارون الرشيد

سبحانه مقلب القلوب وصاحب الملك والملكوت، والقادر على أن يخلق بني الإنسان على قلب رجل واحد مؤمن طائع أو فاسد فاجر، ولن يزيد ذلك على ملكه شيئاً، ولن ينقص منه شيئاً، والقادر على أن يذهب بكل الخلق ويأتي بخلق جديد، وما ذلك على الله بعزيز، ولا يمثل هذا الخلق عنده جناح بعوضة.

ولكنها سنة الله في خلقه، فقد خلق الأضداد حتى لا يستوي العباد، فالخير والشر ودفع الناس بعضهم ببعض من نواميس الحياة.

لقد خلق الله العباد بفطرة إلهية تهفو إلى الخير والمحبة والمساواة بين البشر، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وخلق البشر شعوباً وقبائل ليتعارفوا ويتعاونوا في إعمار الكون، ليس للصراع والدمار ونشر الخراب، واليهودية والمسيحية والإسلام دين سماوي واحد، وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام رسل جاءوا متكاملين غير متعارضين، فهم من مشكاة واحدة، ولكنها أفاعيل الشيطان، ومن تسلط عليهم، الذين عاثوا في الأرض فساداً، وابتعدوا عن النهج الرباني، فخالفوا واختلفوا وسعوا للتسلط والاستعباد، وهذه الرسالة تبين وحدة الدين على لسان أنبياء الله ورسله، ولم يعمد نبي إلى هدم ناموس سابقه، ولكنها تنوعت بين رسالات خاصة لأمم بعينها ورسالات عامة للثقيلين، وصلى الله على محمد النبي الأمي الذي أرسل للثقيلين، والحمد لله الذي هدانا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وعليه قصد السبيل.

أغسطس: ٢٠٠٨

حسن عبد الغفار

فهرس المراجع

- الإسلام وأصول الحكم - علي عبد الرازق
الأغاني - أبو الفرج الأصفهاني
الإمتاع والمؤانسة - التوحيدي
البيان والتبيين - الجاحظ
البداية والنهاية - ابن كثير
الدولة العباسية - محمد الخضري
الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم - إبراهيم العدوي
الزنادقة والشعبوية في العصر العباسي الأول - د/ حسين عطوان
الشعر والشعراء - ابن قتيبة
العصر العباسي الأول - د/ عبد المنعم ماجد
العقد الفريد - ابن عبد ربه
الفخري في الآداب السلطانية - ابن طباطبا
الكامل في التاريخ ابن الأثير
المواعظ والاعتبار - المقرئ
الملل والنحل - الشهرستاني
الولاية وكتاب القضاء - محمد بن يوسف الكندي
أبو مسلم الخراساني - محمد صبيح
أثر الشرق في الغرب - جورج يعقوب

أحسن التقاسيم - المقدسي

تاريخ الطبري - الطبري

تاريخ التمدن الإسلامي - جورحي زيدان

تاريخ الخلفاء - السيوطي

تاريخ الأمم الإسلامية - محمد الخضري

تاريخ بغداد - أبو بكر الخطيب البغدادي

دولة الإسلام - الحافظ شمس الدين الذهبي

سيرة ابن هشام - ابن هشام

سير أعلام النبلاء - الحافظ شمس الدين الذهبي

ضحى الإسلام - أحمد أمين

فتوح البلدان - البلاذري

قصة الحضارة - ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، م ٧ ج ١٣،

١٤.

كتاب الخراج - أبو يوسف القاضي

مروج الذهب - المسعودي

معجم البلدان - ياقوت الحموي

موسوعة التاريخ الإسلامي - د/ أحمد شلبي

مقدمة ابن خلدون - ابن خلدون

هارون الرشيد - أحمد أمين

وفيات الأعيان - ابن خلكان

المحتويات

- ٣ • تقديم
- ٥ • تمهيد
- ٩ • التحول الاجتماعي في العالم الإسلامي
- ١٣ • مظاهر التحول الاجتماعي
- ١٤ • عوامل سقوط الدولة الأموية
- ١٨ • خلفاء العصر العباسي الأول
- ١٩ • الدولة العباسية وازدهار الحضارة الإسلامية
- ١٩ • قيام الدولة العباسية
- ٢٣ • خلفاء العصر العباسي الأول
- ٢٣ • أبو جعفر المنصور مؤسس الدولة العباسية
- ٢٥ • فتن الخوارج في العصر العباسي الأول
- ٢٨ • بداية الحركات الشعبية
- ٢٨ • ظهور الحركات العدائية للدولة العباسية
- ٣١ • العلويون
- ٣٣ • قتيل باخمرا
- ٣٣ • موقعة فنج
- ٣٧ • هارون الرشيد أمير الخلفاء وسيد بني العباس

- عهد الرشيد ١٧٠ / ١٩٣ هـ ٣٨
- ملامح عن شخصية الرشيد ٣٨
- نشأة الرشيد وقصر الخلافة ٣٩
- الرشيد وولاية العهد ٤٠
- خلافة الرشيد ٤٤
- آل بيت الرشيد ٤٧
- زوجاته ٤٧
- زبيدة بنت جعفر بن المنصور ٤٧
- أولاد الرشيد ٤٩
- قطوف من شخصية الرشيد ٥١
- أولاً: في الأدب والثقافة ٥١
- الولايات وحكم الرشيد ٥٩
- الأندلس ٦٥
- ولايات المشرق ٦٧
- تقوى الرشيد وإيمانه ٧٥
- مظاهر الترف والثراء في عهد هارون الرشيد ٨٤
- المجتمع في عهد الرشيد ٨٥
- ازدهار المجتمع في عهد الرشيد ٩٧
- الزنادقة ١٠٢
- البرامكة ١٠٩

- ١١٤ نكبة البرامكة
- ١٢٨ تعقيب على نكبة البرامكة
- ١٣٢ البرامكة في الميزان
- ١٣٧ الرشيد مجاهداً
- ١٣٧ دولة الروم والصراعات الداخلية
- ١٤٦ مظاهر القوة في عهد هارون
- ١٤٩ موجز جهاد الخليفة هارون الرشيد
- ١٥٢ العلاقات الخارجية في عهد الرشيد
- ١٥٢ النشاط البري والبحري
- ١٥٢ مناطق النفوذ التجاري
- ١٥٤ التبادل التجاري
- ١٥٥ التبادل الثقافي
- ١٥٩ الحركة اللا إيقونية
- ١٦١ أدب الحروب
- ١٦٥ سيادة اللغة العربية
- ١٦٧ هارون ودولة الروم
- ١٧١ الأدب السلطاني
- ١٧٧ ملتقى الأدب والأدباء
- ١٩٢ القضاء وأبو يوسف
- ٢٠٧ رجال حول الرشيد

- ٢٠٨ • الفضيل بن عياض
- ٢١١ • الإمام مالك بن أنس
- ٢٣٠ • الإمام الشافعي
- ٢٣٨ • هارون الرشيد - الشجرة الطيبة
- ٢٤٣ • وفاة الرشيد
- ٢٤٨ • سقوط الأقنعة
- ٢٥٠ • كيف سُوءت دولة هارون الرشيد
- ٢٦٣ • قيام دولة وهوان أمة
- ٢٦٩ • خاتمة
- رسالة أبي الربيع محمد بن الليث من هارون
- ٢٧٢ • الرشيد إلى قسطنطين ملك الروم

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com